الاتفاقية البريطانية ـ الفرنسية
"سايكس ـ بيكو"
وآثارها السياسية على تقسيم بلاد الشام
دراسة في الجغرافيا السياسية

دكتور

عبدالعزيز بن راشد المطيردي

أستاذ مساعد بقسم الجغرافيا جامعة الملك سعود
الرياض ـ المملكة العربية السعودية

الملخص العربي

تناول البحث الاتفاقية البريطانية–الفرنسية «سايكس–بيكو» وآثارها في تقسيم منطقة الشام، حيث تمت الاشارة في البداية الى أهمية دراسة هذه الاتفاقية وأبعادها، وإلى حدود منطقة الشام تاريخياً وتقسيمها قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها. كما أوضحت الدراسة الظروف التي وُقعت فيها هذه الاتفاقية، وهي فترة الحرب العالمية الأولى حيث كانت بريطانيا وفرنسا بحاجة لدعم العرب؛ ولذا تحركت بريطانيا لاستغلال الخلافات بين العرب والأتراك لتستفيد من ذلك في تحركاتها العسكرية في الحرب. ولتحقيق ذلك وقعت اتفاقاً مع الشريف حسين وعدته فيه بتنصيبه ملكاً على العرب بعد أن تضع الحرب أوزارها في مقابل أن يقف الى جانب الحلفاء ضد العثمانيين. وفي ذات الوقت وقعت مع الفرنسيين هذه الاتفاقية –اتفاقية سايكس/بيكو– لتقسيم المناطق العربية التي ستنسحب منها تركيا بعد الحرب.

وكشفت الدراسة عن مضمون الاتفاقية وبنودها، ثم عن تخطيط الدولتين وتحركهما في مؤتمر السلام بباريس عام ١٩١٩، ومؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ لتطبيق الاتفاقية وتقسيم منطقة الشام ووضعها تحت انتدابهما ونفوذهما. فبعد تمكن الدولتين الاستعماريتين من بسط نفوذهما قسمتا المنطقة حسب مصلحتهما متجاهلين الاتفاق الذي عقده البريطانيون مع الشريف حسين، وغير مبالين برغبة واختيار سكان المنطقة. ومن خطواتهم في ذلك؛ إعلان لبنان ككيان مستقل، وسوريا كمنطقة سياسية تضم دمشق وحلب ومنطقة العلويين وجبل الدروز. ثم جاء إعلان إمارة شرق الأردن –مملكة الأردن الحالية– باتفاق بينهما ضمن ضوابط وأطر معينة. وأخيراً تأتي فلسطين التي منحها البريطانيون لليهود بإعلانهم وعد بلفور وقيامهم بخطوات عملية مكنت للصهاينة من احتلالها وإعلان دولتهم على أراضيها الى يومنا هذا.

Abstract

The research dealt with the British-French Agreement "Sykes-Picot" and its effects on the Levant region. At the beginning, the research pointed to the importance of studying this agreement and its effects. Also, it pointed to the historical boundaries of the region and its division before and after the First World War. The study explained the circumstances in which this agreement was signed. It took place during the First World War, when Britain and France were in need of Arab support. Therefore, Britain moved to exploit the disagreements between Arabs and Turks in order to benefit from this in its military movements in the war. To achieve this, Britain signed an agreement with Sharif Hussein, in which he was promised to be reigned as a king over the Arabs after the end of the war in exchange for allying with them against the Ottomans. At the same time, Britain signed this agreement with the French "the Sykes/Picot Agreement" for the division of the Arab territories from which Turkey withdrew after the war.

In addition, the study revealed the contents of the agreement and its terms, then the planning and movement of the two countries at the Peace Conference in Paris in 1919, and San Remo Conference in 1920 to implement the agreement and divide the area of the Levant region and placed it under their mandate and influence. After the two colonial powerful countries managed to control the area, they divided the region according to their interests, ignoring the British agreement with Sharif Hussein, and neglecting the desire and choice of the people of the region. One of the steps is to declare Lebanon as an independent entity, and Syria as a political region that includes Damascus, Aleppo, the Alawites and Jabal Druze. Then, they declared the Emirate of East Jordan - the current Kingdom of Jordan – an internal agreement between them concerning certain controls and frameworks. Finally, Palestine was granted by the British to the Jews by announcing Balfour Declaration and the practical steps that enabled the Zionists to occupy and declare their state on its territory until today.

مقدمة:

ينال موضوع تقسيم المناطق وقيام الوحدات السياسية ودور القوى الاستعمارية في ذلك، اهتماماً لدى الدراسين والمهتمين في الجغرافيا السياسية. ومن هنا جاء اختيار هذا الموضوع الذي يتناول تقسيم منطقة مهمة وحساسة في العالم العربي على يد المستعمر، ألا وهي بلاد الشام ذات التاريخ العريق والموقع الاستراتيجي المهم؛ الذي جعلها منطقة صراع وتماس مع القوى الأوروبية في القديم والحديث. ويركز الموضوع بشكل خاص على الاتفاقية البريطانية- الفرنسية (اتفاقية سايكس-بيكو) ودورها في تقسيم الخريطة المعاصرة لهذه المنطقة (بلاد الشام). هذه الاتفاقية التي ولدت ووقعت بين الدولتين وبتأييد روسي عام ١٩١٦ (قبل نهاية الحرب العالمية الأولى). وتمت المعاهدة بعد محادثات مطولة بينهما حول مصير منطقة الشام التابعة للدولة العثمانية ونصيب كل منهما بعد أن تضع الحرب أوزارها.

ويتأكد مثل هذا الموضوع في الفترة الراهنة، حيث يواجه العالم العربي ومنطقة الشام خصوصاً تحديات وتدخلات أجنبية تسعى لفرض تغييرات وتقسيمات سياسية تخدم مشروعاتها في المنطقة؛ وهذا يفرض على كل القوى والأفراد المهتمين بمستقبل المنطقة أن يأخذوا الدروس والعبر من تلك الحقبة الغابرة التي وُقعت فيها تلك الاتفاقية ومرت بها المنطقة. والدراسة ستتناول تحديد منطقة الشام وكيف كان وضعها الإداري قبل الحرب العالمية الأولى (نهاية العهد العثماني)، ثم الظروف والملابسات التي وقعت فيها اتفاقية سايكس-بيكو، ومضمون الاتفاقية وأبعادها في تقسيم بلاد الشام المعاصرة.

منطقة الدراسة:

تتعلق الدراسة بمنطقة بلاد الشام، الواقعة الى شمال الجزيرة العربية وشرق البحر المتوسط (انظر الخريطة ١)، وهذا المصطلح (الشام)؛ مصطلح قديم استعمله العرب للدلالة على جميع المناطق الواقعة إلى الشمال من الجزيرة العربية، ما عدا إقليم العراق. جاء في القاموس المحيط "الشأْم بلادٌ عن مشأمة القبلة سُمِّيَت به لذلك، أو لأن قومًا من بني كنعان تشاءَموا إليها أي تياسروا، أو سُمِّيَت بسام بن نوح فإنهُ بالشين بالسريانيّة، أو لأن أرضها شاماتٌ بيض وحمر وسود. وعلى هذا لا تُهمَز وهي مؤنّثة وقد تُذكّر" (الباحث العربي؛ قاموس عربي-عربي http://www.baheth.info/all.jsp?term). ولم يكن لبلاد الشام حدود سياسية ثابتة متفق عليها؛ ولذا حددها الجغرافيون العرب بعبارات مختلفة. فياقوت الحموي يقول: "حدّ الشام من الفرات إلى العريش المتاخمة للديار المصرية، وأما عرضها فمن جبل طيئ من نحو القبلة إلى بحر الروم". أما الإصطخري، وهو من أقدم مَن أوضح حدود الشام، فيقول: "وأما الشام فإن غربها بحر الروم، وشرقها البادية من أَيلة إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم، وشمالها بلاد الروم، وجنوبها حد مصر وتيه سيناء، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور". ويضيف الإصطخري وهو يتحدث عن الثغور الشمالية لبلاد الشام أنها مما يلي الروم، وهي ملطية والحدَث ومرعش والهارونية وعين زربة والمصيصة وأذنه وطرسوس، وتقع كلها اليوم في تركيا.

خريطة (١) موقع منطقة الشام

اعتماداً على: www.daleel-malaysia.com/vb/tourism82993

ويتفق الاصطخري مع ابن حوقل والمقدسي في تحديد أقاليم بلاد الشام، فيرون أنها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين، ويضيفون إليها الجبال والشراة (محمود عكام،-www.ak-kam.org/index.ph). وبناءً على ذلك فمنطقة الدراسة هي المنطقة التي تشمل اليوم؛ سوريا، لبنان، الأردن وفلسطين المحتلة.

الإطار المنهجي للدراسة:

يتضمن هذا الاطار أهمية الدراسة ومشكلتها وتساؤلاتها ومنهجها وإطارها المرجعي:

١ – **أهمية الدراسة** : تأتي أهمية هذه الدراسة وموضوعها من النقاط والحيثيات التالية:

أ – تناولها لموضوع مهم في الجغرافيا السياسية، وهو موضوع تقسيم المناطق سياسياً وتشكل الوحدات السياسية.

ب– ارتباط الدراسة بمنطقة مهمة، ألا وهي منطقة الشام، ذات الموقع المتميز والمكانة الاستراتيجية في العالم العربي؛ مما جعلها منطقة صراع مع القوى الأجنبية منذ القدم وحتى فترة الاستعمار الغربي وإلى الوقت المعاصر.

جـ– أن الدراسة تسهم في كشف بعض جوانب التحركات الأجنبية؛ البريطانية– الفرنسية الخفية، التي استهدفت المنطقة العربية والاسلامية ووحدتها.

د – ما تمر به منطقة الشام اليوم من تحديات وتدخلات أجنبية يؤكد أهمية مثل هذا الموضوع، فالتاريخ يعيد نفسه؛ ومن ثم فدراسة الاتفاقية البريطانية الفرنسية حول منطقة الشام سيساعد في فهم عقلية وتفكير هذه القوى الأجنبية واختيار المنهج االأنسب في التعامل معها.

٢ – مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

كلما استعرض الجغرافي العربي بل والمثقف العربي خريطة المنطقة العربية وتقسيمها ومنها منطقة الشام؛ كلما عاد بذاكرته الى فترة الاستعمار الغربي للمنطقة. حيث بسط نفوذه وفرض تقسيمه لها بعيداً عن مراعاة رغبات سكان المنطقة وظروفها المختلفة، بل كان الهم الأول للمستعمر هو تحقيق مصلحته واستمرار تحكمه. وهنا يتساءل الجغرافي العربي كيف التقت هذه القوى وخاصة بريطانيا وفرنسا واتفقت على تقسيم هذه المنطقة وخاصة بلاد الشام، وما هي العوامل التي ساعدت في ذلك؟ وهل بالفعل حققت هذه القوى كل ما تريد في التقسيم، وما هي آثار وأبعاد الاتفاقية بين هاتين القوتين (اتفاقية سايكس–بيكو) في تقسيم منطقة الشام.

هذه التساؤلات تشكل الجانب المهم في مشكلة البحث، وتزداد المشكلة إلحاحاً مع استمرار بعض أبناء المنطقة إلى الوقت الراهن في الثقة والتعويل على القوى الأجنبية في حل مشكلات

المنطقة وتحقيق مصالحها والدفاع عن حقوقها. هذه المشكلة تطرح نفسها وتحتاج من الباحثين المراجعة والحل، ولعل مثل هذه الدراسة تسهم في تجلية هذه المشكلة وحلها.

جانب آخر في الموضوع والإشكال، وهو أن الاتفاقية وما ترتب عليها، تمثل نموذجاً واضحاً لنوع من أنواع الحدود السياسية، ألا وهي الحدود اللاحقة المفروضة والإجبارية. التي تعني الفرض والإجبار من طرف خارجي بدون الرجوع إلى سكان المنطقة وأخذ آرائهم ومراعاة أوضاعهم المختلفة. ومثل هذا النوع من الحدود الإجبارية -التي لا تراعي العوامل البشرية- يكون مصدر إشكالات وصراعات وتبقى قضية التقسيم والحدود بمثابة القنابل الموقوتة التي تثور ما بين وقت وآخر. وهذا ما حدث بالفعل للحدود في منطقة الشام بناءً على هذه الاتفاقية التي اتفقت فيها الأطراف الخارجية على التقسيم بدون علم سكان المنطقة ومراعاة أوضاعهم؛ ومن ثم ورثت المنطقة إشكالات هذا التقسيم وحدوده المفروضة التي فتتت المنطقة وجزأتها، بل وجعلت جزءاً منها وهي منطقة فلسطين منطقة مدولة، ثم منطقة انتداب بريطاني تم تهيئتها لتكون وطناً لليهود على حساب أهلها الفلسطينيين.

وتهدف الدراسة الى الإجابة على هذه التساؤلات:

- كيف كان واقع منطقة الشام سياسياً وإدارياً قبل الحرب العالمية الأولى (نهاية العهد العثماني)؟
- ماهي الظروف والأسباب التي أدت إلى توقيع اتفاقية التقسيم (سايكس-بيكو)؟
- كيف كانت تُحاك وتسير المخططات والتحركات الأجنبية الاستعمارية ضد المنطقة العربية؟
- ماذا عن آثار وأبعاد هذه الاتفاقية على منطقة الشام وتقسيمها؟

٣- منهج الدراسة:

استخدم الباحث المنهج التاريخي الاستقرائي لتتبع تاريخ النفوذ البريطاني والفرنسي في منطقة الشام والتطورات التي مرت بها المنطقة في تقسيمها وتشكلها السياسي المعاصر. كما استفاد الباحث من المنهج التحليلي في تحليل وتفسير بعض المواقف والأحداث التي مرت بها المنطقة.

٤- الإطار المرجعي (الدراسات السابقة):

تمت الاستعانة بالعديد من الدراسات والكتب التي تناولت موضوع الاتفاقية البريطانية-الفرنسية (سايكس-بيكو) وأبعادها. ويمكن تصنيف هذه الدراسات إلى ثلاث مجموعات حسب موضوعها وتركيزها: أولاها؛ الدراسات التي ركزت على الاتفاقية وأبعادها وآثارها. والمجموعة الثانية؛ وهي الأكثر، الدراسات والكتب التي كتبت حول التاريخ الحديث لمنطقة الشام وما

حولها، والتي تناولت الاتفاقية ضمن التطورات والأحداث التاريخية التي مرت بها المنطقة وأثرت عليها. وثالثها؛ الدراسات والكتب التي درستها كنموذج للمؤامرة والتحدي الأجنبي السياسي الاستعماري للمنطقة. وفيما يلي بعض النماذج لهذه المجموعات:

من النماذج في المجموعة الأولى؛ دراسة جوزيف حجار (١٩٩٩)، بعنوان؛ سورية بلاد الشام؛ تجزئة وطن (دراسة وملف وثائقي حول اتفاقية سايكس-بيكو) والتي تناولت في جزئها الأول جذور هذه الاتفاقية والظروف التي ولدت فيها ومضمونها وأبعادها باختصار. أما الجزء الثاني فقد تضمن أهم الوثائق الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة بالمفاوضات البريطانية-الفرنسية-الروسية التي مهدت للاتفاقية مع ترجمتها باللغة العربية. وقد جاءت الدراسة وثائقية أكثر منها تحليلية؛ حيث لم تولي جانب الآثار والأبعاد للاتفاقية على المنطقة وتقسيمها ما تستحقه من اهتمام.

ومن دراسات المجموعة الثانية (التاريخية)؛ كتاب برج (١٩٧٤)، الذي تناول الاتفاقية في أحد الفصول، حيث تحدث عنها وظروف ولادتها وأبرز بنودها، كما تحدث في موضع آخر عن دور فرنسا بعد الحرب في سوريا وسياستها التقسيمية لسوريا. أما حلمي إسماعيل ١٩٨٧، فقد تناول تاريخ المنطقة العربية في ظل السيادة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي الفصل الأخير تناول حركة الشريف حسين والمؤامرة الاستعمارية ضد العرب، ثم تحدث عن معاهدة سايكس-بيكو بشيء من التفصيل. أما حكمت إسماعيل (١٩٩٨)، فقد رصد السياسة الفرنسية في سوريا في فترة العشرينات من القرن ٢٠، وتحدث عن مفهوم سورية الطبيعية ثم سورية حسب اتفاقية سايكس-بيكو، وأشار الى المملكة السورية المستقلة ونهايتها على يد الفرنسيين.

ومن دراسات المجموعة الثالثة؛ التي تناولت الاتفاقية كنموذج للمؤامرات والتحديات الخارجية؛ دراسة الخالدي (٢٠٠٠)، التي تناولت الاتفاقية في معرض الحديث عن المؤامرة الكبرى لتمزيق بلاد العرب، ودور الدول الغربية وخاصة بريطانيا وفرنسا في ذلك، ثم أشارت الى سياسة الاستعمار فيما بعد في تمزيق منطقة الشام. أما عبدالرحمن (٢٠١١) فقد تناول المعاهدة كنموذج للمؤامرات الكبرى التي تعرض لها الوطن العربي. كما تناول دسائس الاستعمار وسياساته الماكرة في التقسيم وزرع المشكلات الحدودية بين دول المنطقة.

وبإمعان النظر في هذه الدراسات التي يجمعها تناول هذه الاتفاقية، نجد أن كل دراسة ركزت على جانب معين، فالتاريخية ركزت على البعد التاريخي، والفكرية أبرزت الجانب التآمري وأبعاد التحدي الأجنبي في المعاهدة، وحتى تلك الدراسة الخاصة بالاتفاقية جاءت دراسة وثائقية بالدرجة الأولى. وهذا ما يعطي هذه الدراسة -التي نحن بصددها- بعض السمات والميزات، حيث جاءت بصيغة شمولية تجمع بين التاريخ والسياسة والجغرافيا، وبتركيبة متوازنة بين هذه العناصر المختلفة. وهذا ما تتسم به الجغرافيا السياسية ويميزها عن غيرها من العلوم.

أولاً: التقسيم الإداري والسياسي لبلاد الشام قبل الحرب العالمية ١ (نهاية العهد العثماني)

كانت بلاد الشام في أوائل العهد العثماني مقسمة إلى ثلاث ولايات، هي:

- ولاية حلب وتشمل شمال الشام.
- ولاية طرابلس الشام، وتشمل وسط البلاد طرابلس، وحماة وحمص وسلمية وجبلة.
- ولاية دمشق (وتسمى ولاية الشام) وتشمل جنوبي الديار السورية : دمشق والقدس وغزة ونابلس وتدمر وبيروت وصيدا وغيرها. وفي عام ١٦٦٠م أنشئت ولاية صيدا المكونة من المناطق الساحلية الجنوبية.

وعلى إثر حوادث عام ١٨٦٠م الطائفية، استقل لبنان استقلالاً ذاتياً فكان يؤلف وحدة ادارية خاصة، يتولاه متصرف برتبة وزير مرتبط برئيس الوزراء، وكان يعرف باسم "الصدر الاعظم" وفي عام ١٨٨١م أنشئت متصرفيتان مستقلتان هما "القدس" و"دير الزور" واصبحتا تابعتين لوزارة الداخلية في اسطنبول مباشرة. فكانت متصرفية القدس تضم أقضية يافا وغزة والخليل وبئر السبع. واخيراً أحدثت ولاية بيروت في عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨م) لتحل محل ولايتي طرابلس وصيدا. وبذا انتهى التقسيم الإداري العثماني للشام في الفترة الأخيرة (ما قبل الحرب العالمية الأولى)، إلى ثلاث ولايات وثلاث متصرفيات، وذلك كما يلي:

١. الولايات وتشمل:

أ – ولاية سورية وعاصمتها دمشق، وتشمل الأردن وفلسطين.
ب– ولاية حلب في الشمال.
جـ– ولاية بيروت التي تضم المناطق الممتدة من اللاذقية شمالاً حتى نابلس جنوباً، دون بعلبك والبقاع اللتين مكثتا خاضعتين لولاية دمشق.

٢– المتصرفيات، وتشمل:

أ.لبنان ب.القدس ج.دير الزور، التي ورثت إيالة الرقة، وشملت مناطق واسعة من الجزيرة الفراتية وبادية الشام (مركز إدراك Idraksy،net، ملف خاص؛ تقسيم سوريا مئة عام من الخطط والمحاولات).

ثانياً: الاتفاقية البريطانية الفرنسية "سايكس- بيكو"

ظروف توقيعها ومضمونها

وقعت الاتفاقية بين بريطانيا وفرنسا بموافقة روسيا القيصرية عام ١٩١٦م ،إبان الحرب العالمية

الأولى بهدف اقتسام الأراضي التي كانت تحت السيادة العثمانية في الشام وأجزاء من العراق بعد نهاية الحرب وانهزام ألمانيا وحليفتها الدولة العثمانية .

١ – ظروف توقيع الاتفاقية :

وُقعت هذه الاتفاقية في ظروف خاصة، حيث كانت فصول الحرب العالمية الأولى تتتابع والدولتان الاستعماريتان (بريطانيا وفرنسا) تعيشان حلفًا واحدًا في خوض غمار الحرب ضد ألمانيا وحليفتها الدولة العثمانية. وفي الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى كان الوضع في الشام والدولة العثمانية كما يلي:

أ – استيلاء أعضاء جمعية الاتحاد والترقي على الحكم في اسطنبول ١٨٠٩م ورفعهم شعار القومية الطورانية وتبنيهم سياسة التتريك في المناطق العربية؛ مما ولد ردة فعل عند العرب تجاه الدولة العثمانية، وأذكى روح القومية العربية والمطالبة بالاستقلال (الخالدي، ٢٠٠٠م، ص ص٩٨، ٩٩). ومما زاد الطين بلة تعيين جمال باشا والياً عثمانياً على سوريا، وكان مستبدا غشوماً عامل العرب وقياداتهم بعنف حتى أنه أعدم مجموعة من قيادات القومية العربية ولذلك سمي بالسفاح (الخالدي، ٢٠٠٠م، ص ص ١٢٦–١٢٨). وكانت التهمة التي وجهها لهم، هو اتصالهم بقوى خارجية وتآمرهم ضد الدولة العثمانية. وهذه التهمة قد تنطبق على عدد منهم ولكنه عمم الحكم ووسع المواجهة مع الجميع، ومنهم شخصيات كانوا يطالبون بالإصلاح في ظل الدولة العثمانية. وأيا كان الوضع وتحليل الأسباب فإن تنفيذ هذه الإعدامات هيأت الناس في الشام للثورة ضد الدولة العثمانية.

ب– مع قيام الحرب العالمية الأولى وفي ظل هذه الظروف المشحونة بين الأتراك والعرب، دخلت بريطانيا على الخط مستغلة ردة الفعل العربية تجاه الدولة العثمانية وساعية لقطع الطريق على المسلمين وتعاطفهم مع الدولة العثمانية؛ هذا التعاطف الذي أثر على سير المعارك وأعاق تقدم جيوش الحلفاء عند قناة السويس وفي اليمن، بل إن كتائب من هذه الجيوش استسلمت للأتراك عند كوت العمارة (الخالدي، ٢٠٠٠، ص ٢٠٥ـ). في هذه الظروف اتصلت بريطانيا بالشريف حسين (أمير مكة) الذي كان على علاقة سيئة مع الأتراك، وكان الاتصال عن طريق آرثر مكماهون –المعتمد البريطاني بمصر– وذلك عام ١٩١٥م، حيث دخل في مراسلات ومفاوضات مع الشريف حسين. وقد بدأت هذه المراسلات سرية وعرفت فيما بعد بـمراسلات الحسين–مكماهون. وكان الشريف يسمي هذه الرسائل المتبادلة بينه وبين الإنجليز بـمقررات النهضة. وقد حرص الإنجليز على استغلال شعور الشريف بمكانته وانتمائه للدوحة النبوية وإحساسه بأحقيته للحكم؛ ولذلك حرص مكماهون في رسائله الأولى على ملامسة هذا الشعور وبعثه؛ ليثور على الأتراك غير العرب. وكانت الرسائل الأولى في غاية اللطف فمثلًا جاء في

رسالته الأولى للشريف:

"إلى السيد الحبيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد الشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين سيد الجميع، أمير مكة، قبلة العالمية، ومحط رحال المؤمنين الطائفين، عمت بركته الناس أجمعين. بعد رفع رسوم وافر التحيات العطرة والتسليمات القلبية الخالصة. نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشريف الشعور والإحساسات نحو الإنجليز، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد، وأن مصالح العرب هي نفس مصالح الإنجليز والعكس بالعكس، ولهذه النية فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت سيادتكم عن يد علي أفندي، وهي التي كان موضحًا بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها، وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة المباركة. إلى أن يقول في رسالته:

.. و في الختام .. أرفع إلى تلك السدة العليا كامل تحياتي وسلامي و فائق احترامي"، تحريرا في ١٩ شوال ١٣٣٣هـ (٣٠ أغسطس١٩١٥م).

المخلص /السير آرثر مكماهون (إسماعيل، ١٩٩٧، ص ص ٤٨١-٤٨٣).

وتوالت المراسلات بين الطرفين حتى بداية عام ١٩١٦م ،وفي هذه المحادثات كان الشريف حسين يفهم تعهد بريطانيا له باستقلال البلاد العربية من جبال طوروس شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً، مروراً بالحجاز في مملكة عربية تحت إمرته. هكذا كان يفهم بينما بريطانيا تفهم وتضمر شيئاً أخر اتضح فيما بعد. والمتتبع للمراسلات بين الطرفين يلحظ أن مكماهون حاول التملص من إعطاء تعهد واضح وصريح للشريف يتضمن حدود المملكة العربية المزمع إقامتها. ففي رسالته الثالثة إلى الشريف حسين التي أجابه فيها على رسالته حول حدود المملكة العربية، كتب للشريف قائلًا: "أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسالة تحتاج إلى نظر دقيق وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب. إن حكومة بريطانيا مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم، على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظراً أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات، وإننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ الحذر (إسماعيل، ١٩٩٧م، ص ٤٨٦). وفي مارس ١٩١٦م انتهت المفاوضات بين الشريف و مكماهون، وكانت أهم نتائجها:

- اعتراف بريطانيا باستقلال العرب وحقهم في إنشاء دولة عربية مستقلة و يُتفق على حدودها لاحقاً، بعد البت في مسألة التحفظات التي وافق الشريف على تأجيلها إلى ما بعد الحكم.
- تعهد الحسين بإعلان الثورة على تركيا، واستعداد العرب لمناصرة الحلفاء في الحرب وبذل ما يستطيعون في ذلك (إسماعيل، ١٩٩٧، ص ٤٨٩).

وقبل تجاوز هذه المفاوضات و التعهدات من الطرفين، لابد من الإشارة إلي أن هذه العملية تمت في العديد من فصولها في إطار من السرية، بل وبقيت بعض تفصيلاتها سراً بين الشريف ومكماهون، لا يعلم بها حتى بعض المقربين من الشريف. وما ذلك إلا لعلم الحسين وغيره بأن هذا العمل سيواجه باستنكار كبير من العديد من القيادات والزعماء المسلمين. وقد أشار الكاتب محمد أسد في كتابه الطريق إلى مكة إلى شيء من هذا، حيث ذكر أن الرأي العام الإسلامي كان غير راض عن الدور الذي لعبه الأشراف في الثورة التي قام بها الشريف حسين بوحي من الإنجليز ضد الأتراك واعتبروها خيانة من قبل المسلمين لإخوانهم في الدين (الطريق إلى مكة ،محمد أسد ،ص ٦٦). وممن استنكر ذلك شكيب أرسلان الذي كتب إلى الحسين محذراً وناهياً له عن المضي في تحالفه مع الإنجليز ضد العرب والمسلمين (الخالدي، ٢٠٠٠، ص ٢٠٥).

وفي الثاني من حزيران ١٩١٦م ، أعلن الحسين الثورة ضد الأتراك، وساند الجيش البريطاني بقوة ضد الجيش العثماني وكانت البداية بكتابة بيان وقعه، ناشد فيه المحاربين في الجيش العثماني بترك مواقعهم ومساندة الطرف الآخر، وقد ألقت الطائرات الإنجليزية هذا البيان على الجيش العثماني، ومما جاء في هذا البيان: "سمعنا بمزيد الأسف أنكم تحاربوننا نحن الذين نجاهد في سبيل المحافظة على أحكام الدين الإسلامي من التغيير ولتحرير العرب قاطبة من حكم الأتراك. نحن نعتقد أن الحقيقة الخالصة لم تصل إليكم؛ لذلك أرسلنا لكم هذا الإشعار ممهورًا بمهرنا، نؤكد لكم أننا نحارب لأجل: حفظ الدين وحرية العرب عامة" (الخالدي، ٢٠٠٠م ص ص ٢٠٢- ٢٠٣) . وانطلقت قوات الحسين العربية من الحجاز واستولت على معظم بلاد الحجاز بعد طرد حامياتها التركية وقامت بقطع المواصلات التركية بين شمال وجنوب الجزيرة وسدت منافذ البحر الأحمر والمحيط. وفي يناير سنة ١٩١٧م استولت القوات العربية بقيادة فيصل بن الحسين على ميناء الوجه على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، ثم تقدمت نحو العقبة واستولت عليها في يوليه من نفس العام.

وبعد ذلك انضمت القوات العربية في العقبة إلى قوات الحلفاء الزاحفة من مصر إلى الشام بقيادة الجنرال البريطاني اللنبي، وأصبحت القوات العربية تشكل الجناح الأيمن لجيش الحلفاء. وقبل وصول هذا الجيش للشام أرسل الأمير فيصل مبعوثيه إلى الشام لإثارة العرب ضد الحكم التركي مستغلًا سوء معاملة الوالي التركي جمال باشا للأهالي في المنطقة. وكان هؤلاء المبعوثون يبثون في دعايتهم أن انتصار جيوش الحلفاء سيحقق للعرب استقلالهم. وقد حققت هذه الدعاية

أهدافها وأربكت القيادة التركية الألمانية في الشام وكانت من عوامل انتصار الحلفاء؛ حيث دخلت قواتهم مدينة القدس في ديسمبر ١٩١٧م. وفي اكتوبر سنة ١٩١٨م دخل الأمير فيصل على رأس الجيش العربي مدينة دمشق وشكل أول حكومة عربية بقيادته. لكنها لم تدم طويلًا حيث قضى عليها الفرنسيون ١٩٢٠ (إسماعيل ،١٩٩٧،ص ص٤٩٣-٤٩٤). في هذه الظروف والأجواء ولدت اتفاقية سايكس-بيكو التي كانت الأساس لتقسيم بلاد الشام فيما بعد.

٢- التحركات البريطانية - الفرنسية لتوقيع الاتفاقية:

في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تجري مفاوضات مع الشريف حسين وتتعهد له بدعم مشروع المملكة العربية بعد انتهاء الحرب وسقوط الدولة العثمانية، في نفس الوقت كانت تجري مفاوضات مع فرنسا لرسم مستقبل المنطقة وتقسيمها حسب مصلحة الطرفين وبشكل يخالف ما تظهره للشريف حسين. ولعل من المفيد الأشارة إلى أن الأطماع والتطلعات الفرنسة والبريطانية في منطقة الشام ليست وليدة سنوات الحرب العالمية الأولى أو السنوات القريبة التي سبقتها، وإنما هذه الأطماع كانت قديمة منذ قرون. ففي عام ١٥٨١م، وعندما سمح العثمانيون لدخول السفن الفرنسية أصبح الفرنسيون الحماة الشرعيين للتجار الأجانب في الدولة العثمانية.

وفي عام ١٧٤٠م حصلت فرنسا على حق حماية الأماكن المقدسة عند النصارى، وحق محاكمة رعاياها في تركيا دون الرجوع إلى المحاكم التركية. وكانت فرنسا أكثر الدول الأوربية نشاطًا تبشيرياً بالنصرانية وتعليمياً في بلاد الشام، حيث أنشأت العديد من المؤسسات الثقافية ووثقت صلاتها بكنائس المنطقة وسعت سعياً متواصلًا لتنشيط التجارة معها، وتنفيذ بعض المشاريع التنموية. ففي عام ١٨٨٩م حصلت على مد سكة حديد يافا-القدس وقبل ذلك في عام ١٨٥٨م حصلت شركة فرنسية على امتياز شق طريق بيروت-دمشق. هذه الطرق والوسائل ساعدت فرنسا في توطيد نفوذها المادي في سوريا وما حولها وبقيت تنتظر الفرصة المواتية لبسط نفوذها السياسي. وأصبحت منطقة الشام هاجس فرنسا الأكبر في السنوات التي سبقت الحرب. وقد سعت بكل ما أوتيت من قوة لإبعاد نفوذ الدول الأوربية الأخرى عن منطقة الشام وخاصة بريطانيا -القوة المنافسة- التي كان لها نفوذها آنذاك في مصر وشرق الجزيرة العربية. ووصل الحال في ذلك إلى حد الانزعاج الفرنسي والشك في أي تصرف يقوم به مسئول بريطاني في المنطقة. فمثلًا عندما قام سكرتير دار الاعتماد البريطاني بمصر برحلة من حيفا إلى بيروت ومنها إلى جبل لبنان، طرحت الجهات الفرنسية المعنية هذه الزيارة مع الخارجية البريطانية التي نفت بدورها أن يكون لهذه الزيارة أي بعد سياسي وأكدت لفرنسا أنها لا تنوي المطالبة بأي نفوذ في الشام (حكمت إسماعيل، ١٩٩٨م، ص ص٢١-٢٤،٢٢-٢٥).

هذا الوجود الفرنسي في الشام والموافقة الضمنية من بريطانيا جعل فرنسا تعتبر نفسها صاحبة حق تاريخي في المنطقة، وقد جاء تقرير عضو مجلس الشيوخ الفرنسي فلاندين عام ١٩١٥م

حول سوريه وفلسطين مشيراً إلى ذلك حيث ذكر أن: "المهمة التاريخية التي تنتظر من فرنسا حمايتها التقليدية على الكاثوليك الشرقيين، وحضورها الثقافي والقديم العهد في المشرق... إلى قوله: أن المشرق العربي هو الامتداد الطبيعي للإمبراطورية الفرنسية في المغرب. وعلى إثرا أزمة البلقان خطب بوانكريه في مجلس النواب الفرنسي، وجاء في خطابة: لست بحاجة إلى القول أن لنا مصالح تقليدية في سوريا ولبنان وإننا عازمون على تأمين رعاية واحترام هذه المصالح، وأني استطيع أن اذكر مع هذا أن ما يذاع عن وجود خلاف بيننا وبين بريطانيا في هذا الصدد ليس إلا تلفيقاً لا يستند إلى أساس من الصحة، فإنجلترا قد صرحت لنا بلسان ودي صريح أنها لا تضمر نية أي عمل في هذه المنطقة، وأنها لا تحمل أي مطمح سياسي فيها (نفسه، ص ص ٨، ٢٦). وهكذا التقت مصالح الإمبراطوريتين (بريطانيا وفرنسا) واتجهتا للاتفاق على اقتسام المكاسب متجاهلين رغبة سكان المنطقة. وبدأت مرحلة من المفاوضات بينهما؛ حيث أحاط وزير الخارجية البريطاني السفير الفرنسي بلندن علماً بالمفاوضات مع الحسين؛ مما جعل فرنسا تتخوف من أن تؤثر هذه المفاوضات على مصالحها ومطامعها في منطقة سوريا. ومن ثم سعت للحصول على وعد صريح من بريطانيا تؤكد فيه على عدم المساس بحقوق فرنسا ومصالحها خلال المفاوضات التي تجريها بريطانيا مع الشريف حسين. ففي تلك الأثناء صدرت تعليمات الرئيس الفرنسي بريانداBriand للسفير الفرنسي في لندن كامبون Cambon ولمعاونه المفاوض F.Picot بيكو مؤكدة على ضرورة رسم الحدود الثابتة الأوفر اتساعًا للبلاد السورية التي تطمع فرنسا في ضمها بعد سقوط الدولة العثمانية؛ وذلك لتحاشي النزاع مع الحليف المنافس البريطاني ومع طموحات القوميين العرب السوريين (حجار، ١٩٩٩ص ٢٦).

ومع ظروف الحرب وتزايد أهمية التحالف بين الدولتين، استجابت بريطانيا لرغبة فرنسا ودخلت في مفاوضات معها. وتم عقد أول جلسة بينهما في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٥م بلندن وكانت الجلسة بمثابة المداولات التمهيدية التي أوضح فيها كل طرف وجهة نظر حكومته. وقد حرص المفاوض البريطاني أن يقنع الطرف الفرنسي الحليف بخطورة الموقف خاصة وأن جيوش الحلفاء آنذاك قد مُنيت ببعض الخسائر في بعض المعارك كما في معارك الدردنيل. ومن ثم فإن على الطرفين العمل بروح الفريق الواحد وقبول بعض التنازلات، ومنها منح العرب والشريف حسين بعض الحقوق والوعود ليقفوا إلى جانب الحلفاء في المعركة. وقد أقنع هذا الطرح الطرف الفرنسي وجعله ينظر لقضية حقوقه في منطقة سوريا الكبرى في ضوء الاستراتيجية والنظرة البريطانية الواسعة للموقف في المنطقة .وبناءً على ذلك سارت المفاوضات بينهما فيما بعد بهذا التفاهم وهذه الاستراتيجية؛ خاصة وان وزير الخارجية البريطاني أوضح للسفير الفرنسي أن الهدف من المفاوضات مع الشريف حسين والعرب هو القضاء على الوحدة العربية- العثمانية عن طريق إغراء الحسين بمملكة عربية في ظل هذه الظروف ، ثم بعد انتهاء الحرب يكون هناك إجراء آخر (نفسه ص ٢٩-٣٠).

ثم عقدت الجلسة الثانية في ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٥م، واتفق الطرفان فيها على خطوط عريضة منها؛ أن بعض المناطق السورية بمفهومها الكبير ستؤول إلى السيادة الفرنسية كمتصرفية القدس –ماعدا الأماكن المقدسة– وولاية بيروت مع جبل لبنان وبعض نواحي ولاية أضنه وحلب، بينما المناطق الأخرى من سورية ومنها دمشق وحلب ستؤول إلى الحكم العربي الشكلي مع تمتع فرنسا بالامتيازات السياسية والاقتصادية فيها ، أي أنها بمثابة المحمية الفرنسية . وبعد ذلك أخذت المفاوضات الطابع الثنائي بين البريطاني السير مارك سايكس والفرنسي شارل جورج بيكو، واللذَين ارتبطت الاتفاقية باسميهما فعرفت فيما بعد باتفاقية سايكس–بيكو. وقد اختط هذان المتفاوضان منهجاً في المرونة والتعاون للوصول إلى النتيجة التي تخدم الطرفين. وكانت مفاوضاتهما في معظمها تدور حول حصتي الطرفين في المنطقة العربية وما الذي يمكن أن يسمحا به للحكم العربي الشكلي تحت حمايتها. وفي هذه المفاوضات طرح المفاوض البريطاني قضية مصير فلسطين السياسي باستثناء الأماكن المقدسة، وطلب أن تحظى حكومته بالنفوذ على هذه المنطقة. وقد قبل المفاوض الفرنسي بذلك في ميناء حيفا مع خليج عكا شرط أن تبقى منطقة فلسطين تابعة لإشراف دولي (حجار،١٩٩٩م، ص ٣٦–٣٨، ٤١).

وبعد انتهاء الطرفين البريطاني والفرنسي من وضع الاتفاقية في صورتها النهائية، عرضت فرنسا فكرة إشعار الحكومة الروسية القيصرية بالاتفاقية؛ خاصة وأنها الحليف الثالث لهما في الحرب وتمت الموافقة على ذلك. واتفق الطرفان على إحاطة روسيا بمجريات المفاوضات مع التصريح الرسمي على أنها لم تصل بعد إلى المرحلة النهائية من القرار الحاسم ومن التوقيع أو الالتزام الدولي. فإذا ما وافقت عليها روسيا يُصار بعدئذ إلى متابعة سير المباحثات بين بريطانيا والشريف حسين ثم توقع الاتفاقية الثنائية الفرنسية–البريطانية. وتم بالفعل عرض الاتفاقية على روسيا التي أبدت موافقتها بشرط تحقيق رغبتها في الهيمنة على بعض الولايات العثمانية المحاذية لها وخاصة أرمينية ومنطقة مضايق البحر الأسود (نفسه ٤٨، ٥٢) .

٣– مضمون (بنود) الاتفاقية :

تضمنت اتفاقية سايكس–بيكو التي تم عرضها على روسيا ووقعها في ١٨مايو١٩١٦م الوزير البريطاني جري Grey والسفير الفرنسي كامبون Cambon، تضمنت توطئة وإحدى عشرة مادة كما يلي –انظر خريطة (٢):

- في التوطئة أشارت الاتفاقية إلى أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية بعد قناعتهما بمعارضة الشعوب العربية بشدة للحكم التركي وإمكانية تأسيس دولة عربية معادية للحكم التركي ومؤيدة لدول التحالف فقد بدأتا مباحثات وقامتا بدراسة مجمل المشكلة وتوصلتا إلى ما يلي :

أ – استعداد بريطانيا وفرنسا للاعتراف والحماية لدولة عربية في المناطق A&B المشار إليها في الخريطة المرفقة تحت سلطة أمير عربي تتمتع فرنسا وبريطانيا فيها بحق الأفضلية في المشاريع الكبرى والحق المطلق لهما وحدهما بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب عند طلب هذه الدولة العربية (خريطة ١).

ب- يُسمح للدولتين (بريطانيا وفرنسا) في منطقتي اللونين الأزرق والأحمر بإقامة أي نوع من أنواع الإدارة المباشرة أو غير المباشرة أو أي مراقبه ترغبان بها أو تحسبانها ملائمة بعد تفاهم مع الدولة العربية .

جـ– في المنطقة ذات اللون التراثي في الخريطة (منطقة فلسطين) تنشأ إدارة دولية يتفق على صيغتها فيما بعد.

د – تحصل بريطانيا على مينائي حيفا وعكا وعلى تأمين كمية معينة من مياه نهري دجلة والفرات في المنطقة A لصالح المنطقة البريطانية B ، وتتعهد بريطانيا بعدم مباشرة أية مفاوضات تؤدي للتخلي عن جزيرة قبرص بدون موافقة فرنسا .

هـ – يظل الاسكندرون مرفأً حراً فيما يتعلق بتجارة بريطانيا وتتمتع فيه بحرية النقل لسلعها. كما تتمتع بهذه الحرية في الخط الحديدي عبر المنطقة ذات اللون الأزرق مهما كان اتجاه هذه السلع، ولا يقام أي تباين في المعاملة على حساب السلع البريطانية في أي خط أو مرفأ والوضع نفسه فيما يتعلق بهذه المادة ينطبق على فرنسا في مرفأ حيفا .

و – عدم تمديد خط حديد بغداد في المنطقة A جنوباً أبعد من الموصل وفي المنطقة B شمالًا أبعد من السامراء إلى أن يتم تشييد الخط الحديدي الذي يربط بغداد بحلب بمساهمة الحكومتين.

ز – يحق لبريطانيا وحدها تشييد وإدارة وامتلاك خط حديدي يربط حيفا بالمنطقة B مع التمتع بحقها في نقل جيوشها بواسطته.

ح – بقاء التعرفة الجمركية على حالتها لمدة ٢٠ عاماً في جميع المناطق ذات اللون الأزرق والأحمر المشار عليها بالحرفين A & B. 9. تم الاتفاق بين الحكومتين –باعتبارهما حاميتين للدولة العربية– على أن لا يقبلا أن تمتلك دولة ثالثة أقاليم في شبة الجزيرة العربية أو تنشئ قاعدة بحرية في الجزء الواقع على الساحل الشرقي من البحر الأحمر.

ط– تستمر المفاوضات مع العرب فيما يتعلق برسم حدود الدولة أو الاتحاد الكونفدرالي لدول عربية بالطرق المتبعة سابقًا باسم الدولتين .

ي– أن لا تباشر الحكومة الفرنسية أية مفاوضات للتخلي عن حقوقها في المنطقة ذات اللون الأزرق لأي دولة سوى الدولة العربية أو الاتحاد الكونفدرالي لدول عربية، إلا بموافقة

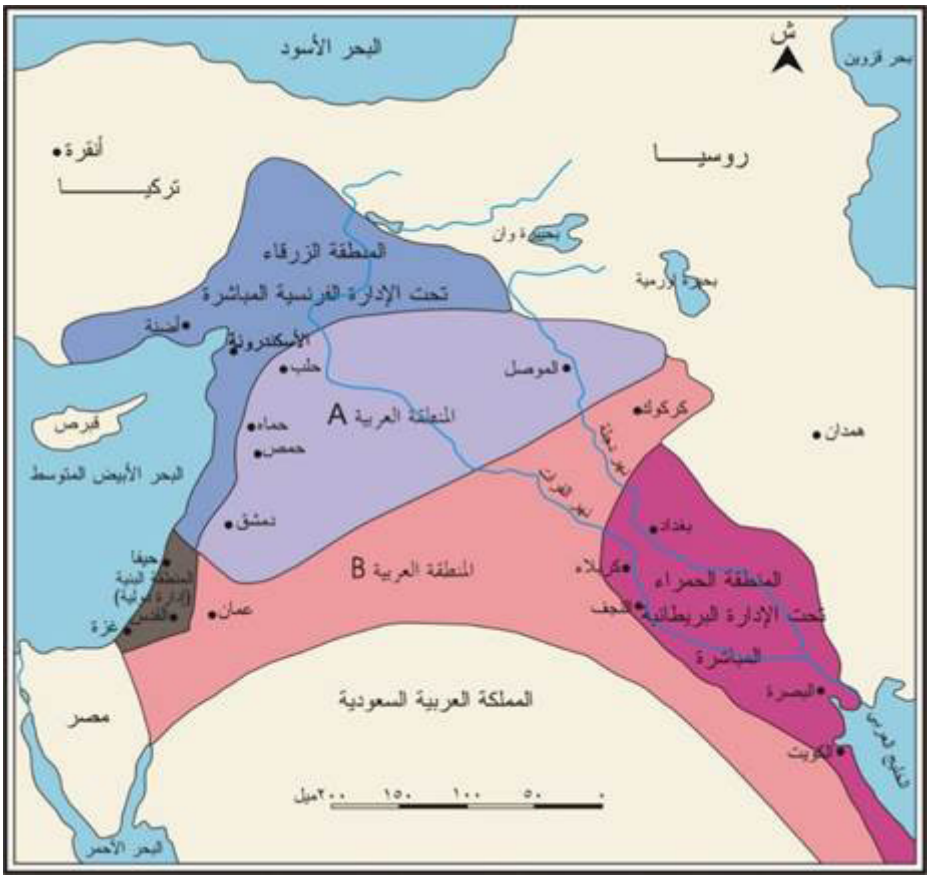

خريطة (٢) تقسيم منطقة الشام والعراق حسب اتفاقية سايكس بيكو

إعداد الباحث اعتماداً على موقع علاء العبادي www.alebady.com (مترجمة)

مسبقة من الحكومة البريطانية التي تعطي بدورها الضمانة ذاتها لفرنسا فيما يتعلق بالبحر الأحمر (حجار، ١٩٩٩م، ص ص٤٩-٥١) .

هذه هي اتفاقية سايكس-بيكو بموادها التي قسمت منطقة الشام العربية وما جاورها بين هاتين القوتين. إنها اتفاقية حيكت في الظلام وقد حرصت كل من بريطانيا وفرنسا على سريتها، ولم تطلع بريطانيا أو تشر إلى هذه المفاوضات في محادثاتها وترتيباتها مع الشريف حسين. وبقيت هذه الاتفاقية طي الكتمان حتى قامت الثورة الشيوعية في روسيا وسقطت حكومة القياصرة، ومن ثم كشفت روسيا البلشفية عن هذه الاتفاقية نكاية بدول الغرب الرأسمالي وفضحاً لتآمر القياصرة معهم، ومحاولة لكسب العرب وتعاطفهم. لقد قامت روسيا الشيوعية بنشر نص هذه الاتفاقية في كانون الأول ١٩١٧م؛ مما جعل الأتراك وغيرهم يعرفون عن هذه الاتفاقية (يكن، فتحي، ١٩٨٣، ص ٢٥). وبعد نشر الاتفاقية أرسل الأتراك نسخة منها الى فيصل بن الحسين

ولسان حالهم يقول: هؤلاء هم البريطانيون الذين وثقتم بهم، وطلبوا وقتها عقد صلح مع الشريف يتخلى بموجبه عن الحلفاء. وقد أرسل فيصل بالرسائل لوالده الذي فوجئ بالاتفاقية، وأرسلها إلى المندوب السامي البريطاني مستفسراً، وقام المندوب البريطاني بدوره بإحالتها إلى وزارة الخارجية البريطانية. بعدها بعث نائب المعتمد البريطاني في جدة إلى ملك الحجاز في فبراير١٩١٨م ببرقية ذكر فيها أن بريطانيا ستقف إلى جانب العرب في كفاحهم من أجل التحرير (الخالدي، ٢٠٠٠، ص٢٣٧)، وهكذا استمر البريطانيون في غموضهم وتحايلهم على العرب بعباراتهم المطاطة، واستمر الشريف حسين في أحلامه الوردية في الخلافة التي ستصنعها له بريطانيا.

ملاحظات رئيسية: المتأمل للاتفاقية وظروف ولادتها وبنودها يمكنه تسجيل الملاحظات التالية:

أ – تجاهل الاتفاقية للعرب وعدم مراعاة الاتفاقية لحقوقهم، حيث جاءت لتحقيق رغبات ومصالح أطراف خارجية في منطقة عربية، وساعد ضعف العرب وتشتتهم آنذاك في تحقيق أهداف هذه الأطراف.

ب – سمة السرية المشبوهة والغموض لهذه الاتفاقية، وظهور الدول الموقعة عليها –وخاصة بريطانيا– وتعاملها مع العرب بوجه غير الوجه الحقيقي. فهي تمت في الخفاء وبصفة سرية، في نفس الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تُجري مفاوضات مع الشريف حسين حول نفس المنطقة التي قسمتها الاتفاقية، ولم تطلعه على شيء من ذلك. وهذه السمة السرية المشبوهة والغموض، أقر بها بعض السياسيين البريطانيين فهذا مثلاً أنتوني ناتنج – وزير الشئون الخارجية في حكومة أيدن ١٩٥٦م– وصف الاتفاقية بأنها وثيقة مخجلة؛ وذلك لأن بريطانيا ما كادت تنهي محادثاتها مع شريف مكة، حتى شرعت في محادثات سرية مع فرنسا تستهدف تحقيق مطامع الدولتين في الهلال الخصيب باقتسام سوريا والعراق ولما تمض ستة أسابيع على آخر رسالة من ممثل بريطانيا في مصر ماكماهون إلى الشريف حسين (محمد عبدالقادر، ١٤٠٥هـ، ص ص١٢٠-١٢١). وكان أساطين السياسة البريطانية فترة ولادة هذه الاتفاقية يعتبرونها محاولة عبقرية للتوفيق بين عهودها للعرب وواجبها نحو حليفتها فرنسا.

جـ – جاءت الاتفاقية لتحقيق الحلم الفرنسي في حكم سوريا، وتحقيق مطالبها التاريخية في منطقة الشام. كما جاءت لتحقيق حلم نصارى لبنان بتأسيس دولة لهم في لبنان.

د – الاتفاقية ببنودها كانت ضربة قاضية للحلم الإسلامي في إقامة جامعة إسلامية، وللقوميين العرب الذين حلموا بإعادة أمجاد الأمة العربية، حيث مزقت سوريا في مفهومها الكبير إلى دول متعددة.

ثالثاً: الأبعاد الرئيسية للاتفاقية

١ – الاتفاقية وبسط النفوذ البريطاني-الفرنسي في الشام:

في الثالث من تشرين الأول ١٩١٨م دخلت الجيوش العربية دمشق بقيادة فيصل بن الحسين في وسط نشوة عربية، حيث أعلن فيصل حكومته العربية على منطقة سوريا الكبرى (انظر خارطة ٢). وكان هذا الدخول للجيوش العربية نهاية للمعارك بين الإنجليز والعرب من جهة والأتراك من جهة ثانية على أرض سورية وبلاد الشام. ولكنه في نفس الوقت كان بداية للتنكر البريطاني للعرب والشريف حسين؛ حيث دخل القائد البريطاني اللنبي دمشق في نفس اليوم الذي دخل فيه فيصل، وقابله وأبلغه بسياسته الواجب تطبيقها وانه مستعد للاعتراف بإدارة عربية على الأرض المحتلة شرقي نهر الأردن، على أن تكون المنطقة تابعة لقيادته وأن فيصلًا احد قواد الحلفاء. كما

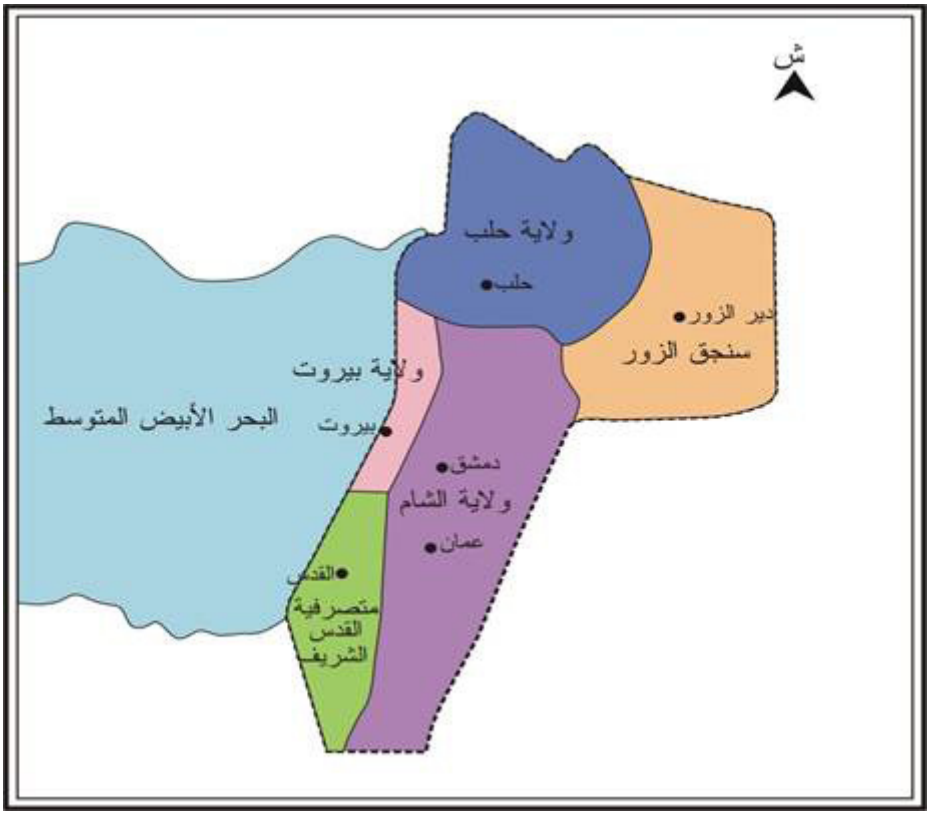

خريطة (٣) تقسيم سورية الكبرى عند إعلان الدولة العربية في عهد فيصل ١٩١٨م

إعداد الباحث اعتماداً على: https://ar.wikipedia.org/wiki

قرر تعيين ضابطي ارتباط :أحدهما انجليزي والآخر فرنسي ليكونا وسيطيه لدى الإدارة العربية. وعين فيصلًا حاكماً على المنطقة التي سماها منطقة محتلة وليست محررة من الأتراك. وعندما علم فيصل بتولي الفرنسيين سواحل سوريا ولبنان اعترض فأجابه اللنبي بإصرار: أن هذه الأوامر صدرت إليه بصفته القائد العام وعلى فيصل أن يطيع أوامره وأن يقبل بالأمر الواقع حتى يحين انعقاد مؤتمر الصلح (الخالدي، ٢٠٠٠، ص ٢١٧).

تتابعت الأحداث وبقي العرب والحسين ينتظرون انعقاد مؤتمر الصلح الذي كانوا يؤملون فيه تحقيق مطالبهم وما قطعه البريطانيون من عهود للشريف حسين.

انعقد المؤتمر بباريس شهر كانون الثاني ١٩١٩م وانتهى بقرار الانتداب من هذه الدول على المناطق التي انسحبت منها تركيا وتجاهل كل مطالب العرب في الاستقلال (حكمت إسماعيل،١٩٩٨م ، ص٥٩) وكانت هذه أولى الطعنات التي أصيب بها العرب، وفي نيسان ١٩٢٠م عقد المجلس الأعلى للحلفاء اجتماعا في سان ريمو في ايطاليا للنظر في اقتسام المستعمرات الألمانية قبل الحرب واقتسام ممتلكات الإمبراطورية العثمانية. وانتهى المؤتمر باتفاقية تنظيم الانتداب وتقسيم المناطق العربية؛ وبناءً علية مُنحت بريطانيا الانتداب على فلسطين بما في ذلك شرق الأردن والعراق ومُنحت فرنسا الانتداب على سورية ولبنان. وهكذا اقتسموا الكعكة ولم تحصل المملكة العربية الناشئة بسوريا على الاعتراف باستقلالها من الحلفاء إلا بشرط أن تقبل بالانتداب الذي يعني التخلي عن الاستقلال (حكمت إسماعيل،١٩٩٨م، ص٧٣). وهكذا دخلت منطقة الشام مرحلة جديدة من الانتداب والتبعية لبريطانيا وفرنسا وذهبت التطلعات لإنشاء مملكة عربية مستقله أدراج الرياح.

أما في الميدان فقد سبب قرار مؤتمر سان ريمو ردة فعل قوية في منطقة سوريا وتتابعت الأحداث وحاولت الحكومة العربية التي أنشأها فيصل بن الحسين بدمشق ١٩١٨م أن تقوي نفسها وترسخ وجودها ودخلت في مواجهات مع فرنسا حتى جاء ١٤تموز١٩٢٠م عندما أنذر الجنرال الفرنسي غور الملك فيصل بضرورة الاعتراف بالانتداب الفرنسي بدون قيد أو شرط. وأرسل الجيش الفرنسي لدمشق ودارت معركة في ميسلون انتصر فيها الفرنسيون بعتادهم وعددهم ودخل غور دمشق وأصاب أهل دمشق حزن كبير جراء ذلك (الخالدي، ٢٠٠٠، ص ٢٩٦-٢٩٧). وهكذا وقعت منطقة الشام تحت النفوذ البريطاني والفرنسي.

٢- تطبيق الاتفاقية وتقسيم بلاد الشام:

مع انتهاء الحرب بدأت الترتيبات والخطوات لتطبيق الاتفاقية البريطانية-الفرنسية (معاهدة سايكس-بيكو) المتعلقة ببلاد الشام. فعند توقف الحرب وقبل إقرار الأوضاع دولياً قُسمت الشام الى ثلاث مناطق بإشراف القائد البريطاني اللنبي هي:

أ – المنطقة الشرقية: وتشمل سوريا وشرق الأردن برئاسة الأمير فيصل بن الحسين.

ب– المنطقة الغربية: وتشمل الساحل السوري: صور، صيدا، بيروت، طرابلس، اللاذقية وقضائي أنطاكية واسكندرونه، تحت الحكم الفرنسي.

جـ– سهول عكا ومنطقة القدس ونابلس (فلسطين)، تحت الحكم البريطاني (ياغي، ٢٠٠٠، ص ١٠٤).

وتم إضافة المنطقة الأولى التي يرأسها فيصل بن الحسين (سوريا) للنفوذ البريطاني في المنطقة تحت قيادة اللنبي الذي قابل فيصلاً في اليوم الأول الذي دخل فيه دمشق وأبلغه بتبعيته لقيادته كما مر معنا سابقاً (علي سلطان، تاريخ سورية، ص ص ٢٦-٢٨). وفي مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ –كما تمت الإشارة- تم إقرار فصل المنطقة العربية، ومنها الشام عن تركيا ووضعها تحت الوصاية بإشراف عصبة الأمم. وفي مؤتمر سان ريمو بإيطاليا عام ١٩٢٠، تقرر وضع المنطقة العربية ما بين البحر المتوسط وحدود فارس تحت حكم الانتداب وتم تعيين الدول المنتدبة (محمد برج ، ١٩٧٤، ٢٤٦-٢٤٧). وفي هذا المؤتمر تم تفعيل الاتفاقية من خلال ما عرف بمعاهدة سيفرا التي قسمت سوريا الكبرى (الشام) الى أربع مناطق، هي: سوريا، لبنان، فلسطين وشرق الأردن. وفيه تم وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني (الصلاح، ١٤٠٦، ص٣١). وبناءً عليه اجتاحت الجيوش الفرنسية دمشق وأسقطت المملكة العربية بقيادة فيصل بن الحسين وبسطت نفوذها على سوريا.

وفي منتصف ١٩٢١م أعلن المندوب الفرنسي الاتحاد السوري من المناطق الثلاث: دمشق، حلب، العلويين، واستثنى جبل الدروز، وفي أواخر ١٩٣٦ ألحقت هذه المنطقة (جبل الدروز) بسوريا؛ لتتكون سوريا بعد ذلك من هذه المناطق الأربع التي تشكل سوريا المعاصرة (علي سيفو، يوتيوب، ٢٠١٥/٥/١٩).

وفي الفترة التي تلت ١٩٣٦ برزت المطالبة التركية بلواء الاسكندرونة ودخلت في مفاوضات مع فرنسا انتهت بتوقيع معاهدة بينهما عام ١٩٣٨ نصت على استقلال لواء الاسكندرونة، وكان هذا تمهيداً لضمه لتركيا بتأييد من بريطانيا في مقابل وقوف تركيا الى جانب الحلفاء في الحرب التي كانت بوادرها تلوح مع ألمانيا. وعملت الدولتان على إخراج ذلك بشكل قانوني، حيث قامتا بإجراء استفتاء شعبي أعلنت فرنسا أن نتيجته جاءت لصالح تركيا، ومن ثم دعتها لتسلم اللواء حيث دخلت الجيوش التركية الى الاسكندرونة عام ١٩٣٩ قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بثلاثة أشهر (ياغي، ١٩٨٤، ص ٨٩).

ومن خطوات التقسيم أنه في عام ١٩٢١ أصدر المندوب الفرنسي غورو قراراً بقيام دولة لبنان الكبير التي تشمل ؛ متصرفية جبل لبنان ولواء بيروت الذي يضم ؛ صيدا وصور ومرجعيون، ومنطقة

طرابلس التي تضم قضاء عكا وبعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا. وفي عام ١٩٢٧ أصدر المندوب دستوراً أصبح بموجبه لبنان جمهورية. واستمر الوضع كذلك حتى استقل لبنان بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦ بمناطقه التي حددها قرار المندوب الفرنسي (ياغي، ٢٠٠٠، ص ١٤٧).

ومن التطورات في تقسيم الشام بعد الحرب العالمية الأولى ظهور إمارة شرق الأردن بعد سقوط دمشق في يد الفرنسيين وقضائهم على مملكة فيصل بن الحسين فيها. حيث ولد هذا السقوط ردة فعل وشعور بالمرارة لدى الشريف حسين (ملك الحجاز وقتها) وابنه عبدالله؛ مما جعلهما يفكران في القيام بعمل عسكري ضد فرنسا، وبدأ الترتيب لذلك حيث اتجه عبدالله بن الحسين الى معان جنوب الشام واتصل بزعماء الشام ووجه نداءً الى السورين يدعوهم فيه الى الثورة ضد الفرنسيين والانضمام لقواته بصفته نائباً لملك سوريا (منسي، تاريخ الشرق العربي

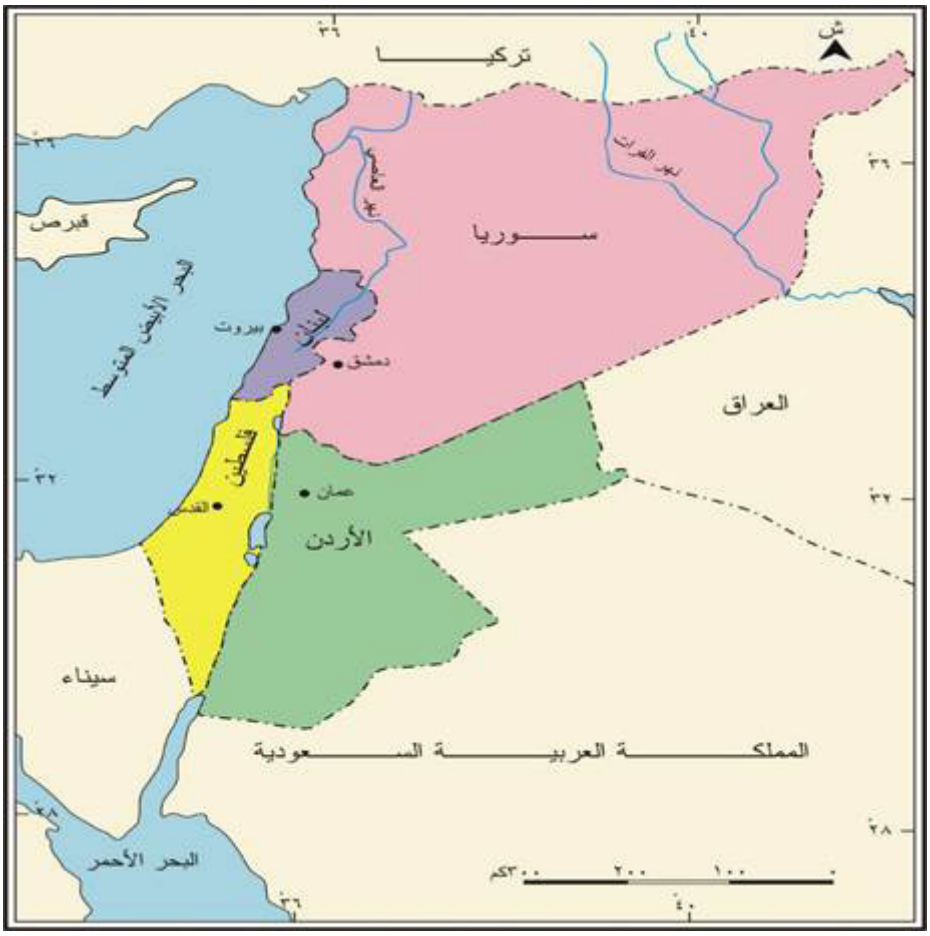

خريطة (٤) خريطة الشام المعاصرة (دول منطقة الشام)

عمل الباحث اعتماداً على www.alef-yaa.com

...، ص ٢٦٧). مع هذه التطورات عززت فرنسا قواتها على الحدود الجنوبية لسوريا، وطلبت من بريطانيا التدخل لوقف تحركات الأمير عبدالله. عندها رأت الحكومة البريطانية أن بإمكانها تحقيق أكثر من هدف من خلال جعل سيطرتها غير مباشرة في بعض المناطق؛ بحيث تدعم قيام حكم عربي يحقق مصالحهم ويكفيهم مؤونة مواجهة الشعوب، ويخفف شيئاً من ردة الفعل تجاه نقضهم للعهود التي أعطوها الشريف حسين.

وبناءً على هذا التوجه جاءت قرارات مؤتمر الشرق الأوسط برئاسة تشرشل عام ١٩٢١م -والذي دُعي له الشريف عبدالله بن الحسين-، حيث أوصى بقيام إمارة بوضع خاص تسمى إمارة شرق الأردن تحت إمرة الأمير عبدالله (منسي، ٢٠٠٩، ص ٢٦٧-٢٦٨). ولم يكن الفرنسيون بعيدين عن هذا التوجه والترتيب، حيث وافقوا البريطانيين في ذلك، واتفقوا على أن تتعهد هذه الإمارة وأميرها بالمحافظة على حدود فلسطين وسوريا من أي اعتداء. وقد تعهدت بريطانيا بدفع معونة مالية سنوية للأمير عبدالله. وحين أُقر صك الانتداب عام ١٩٢٣ عُينت حدود الإمارة وبُعث لها بمعتمد بريطاني ومستشارين، وتم الاعتراف بهذه الإمارة رسمياً خلال زيارة المندوب السامي لعمان في نفس العام ١٩٢٣ (ياغي، ٢٠٠٠، ص ١٨٦). وقد تعينت حدود الإمارة مع سوريا بموجب اتفاق بين فرنسا وبريطانيا عام ١٩٢٠، وتم تخطيط الحدود بصورة نهائية بين البلدين في أبريل ١٩٢٨ (الصلاح، ١٤٠٦، ص ٤٣).

وامتداداً لعملية تقسيم المنطقة على يد البريطانيين والفرنسيين بعد الحرب العالمية الأولى، فقد أقر مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني مع النص على أن يأخذ الانتداب في اعتباره تطبيق وعد بلفور البريطاني لليهود في فلسطين (محمد برج، ١٩٧٤، ص ٢٤٦). ومنذ ذلك الوقت دخلت فلسطين في دوامة جديدة وبدأ كيان جديد يتشكل في ضوء وعد بلفور وتحركات بريطانيا لتطبيقه على الواقع. وكانت أولى الخطوات البريطانية في ذلك تعيين أحد زعماء الصهيونية وهو هربرت صموئيل مندوباً سامياً في فلسطين، وقد عمل على تنفيذ وعد بلفور وسهل هجرة مئات الآلاف من اليهود الى فلسطين. وتتابعت الأحداث والتحركات البريطانية لدعم الوجود اليهودي في فلسطين، حتى جاء عام ١٩٤٨ عندما أعلنت بريطانيا انسحابها من فلسطين وأعلن زعماء الصهيونية قيام دولتهم إسرائيل التي اعترفت بها في الحال أمريكا والعديد من القوى الغربية. وبذا قام هذا الكيان على جزء من فلسطين، وفي حرب ١٩٦٧ توسع هذا الكيان ليشمل كل الأراضي الفلسطينية.

وهكذا تم تطبيق اتفاقية سايكس-بيكو بين بريطانيا وفرنسا، وتم اقتسام منطقة الشام بعد الحرب العالمية الأولى بينهما، حيث عاشت لبنان وسوريا تحت النفوذ الفرنسي والأردن وفلسطين تحت النفوذ البريطاني. وبعد ردح من الزمن عاشته المنطقة تحت هذا الوضع الاستعماري، استقلت كل من سوريا ولبنان والأردن حسب التقسيم والحدود التي رسمتها هاتان الدولتان. أما فلسطين

فدخلت عهداً جديداً من الاحتلال الصهيوني حيث قامت دولة اسرائيل على الأراضي الفلسطينية، وواجه الفلسطينيون معاناة تحت هذا الاحتلال الذي لا زال يجثم على فلسطين.

الخاتمة

أظهرت الدراسة أهمية دراسة الاتفاقية البريطانية-الفرنسية (سايكس-بيكو) ودورها في تقسيم الشام؛ خاصة وأنها تمثل نموذجاً لتحايل المستعمر ومخططاته التي لا تزال مستمرة حتى اليوم. كما وضحت حدود منطقة الشام تاريخياً، وما انتهت إليه من تقسيمها المعاصر الى الدول الأربع : سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن.

وكما وضحت الدراسة كيف استغلت بريطانيا الخلافات بين العرب والأتراك لتضرب بعضهم ببعض وتستفيد من ذلك في تحركاتها العسكرية في الحرب العالمية. ولتحقيق ذلك وقعت مع الشريف حسين اتفاقية وعدته فيها بتنصيبه ملكاً على الحرب بعد أن تضع الحرب أوزارها. وفي نفس الوقت وقعت مع الفرنسيين اتفاقية سايكس-بيكو لتقسيم المناطق العربية التي ستنسحب منها تركيا بعد الحرب. وجاء مؤتمر السلام بباريس ١٩١٩م ثم مؤتمر سان ريمو بإيطاليا ١٩٢٠م ليقررا تقسيم منطقة الشام بين بريطانيا وفرنسا ووضعها تحت انتدابهما ونفوذهما.

وكذلك أوضحت أنه مع تمكن الدولتين الاستعماريتين من بسط نفوذهما في منطقة الشام فقد عملتا على تقسيمها حسب مصلحتهما بعيداً عن اختيار ورغبة سكان المنطقة. ومن ذلك إعلان لبنان ككيان مستقل، وسوريا كمنطقة سياسية تضم دمشق وحلب ومنطقة العلويين وجبل الدروز. كذلك إمارة شرق الأردن التي اتفقت الدولتان على تشكيلها ضمن ضوابط وأطر معينة. إضافة الى فلسطين التي منحها البريطانيون لليهود عبر إعلانهم وعد بلفور، وقيامهم فيما بعد بخطوات عملية مكنت للصهاينة من احتلالها وإعلان دولتهم على أراضيها الى يومنا هذا.

ولعل من أبرز التوصيات التي يجدر التأكيد عليها ما يلي:

١- التذكير بأهمية دراسة مخططات وتحركات المستعمر التي اتبعها لتقسيم البلاد العربية والإسلامية، على مستوى مراكز الدراسات الاستراتيجية والبحوث العلمية في الجامعات، وأن تتنشر على نطاق واسع.

٢- أن على مثقفي المنطقة العربية ونخبها وأصحاب القرار السياسي في دولها، أن يأخذوا الدروس والعبر من هذه الاتفاقية وما صاحبها من خداع، وما نتج عنها من فقد للسيادة وترسيخ للنفوذ الأجنبي وتقسيم للمنطقة، وأن لا ننخدع مستقبلاً بوعود الدول الغربية وخططهاللمنطقة.

المراجع:

١. أسد، محمد (٢٠١٤): الطريق إلى مكة، ترجمة رفعت السيد علي، مكتبة الملك عبدالعزيز، الرياض.

٢. إسماعيل، حكمت (١٩٩٨): نظام الانتداب الفرنسي على سورية ١٩٢٠-١٩٢٨، دار طلاس، دمشق.

٣. إسماعيل، حلمي محروس (١٩٨٧): تاريخ العرب الحديث، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.

٤. برج، محمد عبدالرحمن (١٩٧٤): دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٥. حجار، جوزيف (١٩٩٩): سورية: بلاد الشام (تجزئة وطن)، دار طلاس، دمشق.

٦. الخالدي، محمد فاروق (٢٠٠٠) المؤامرة الكبرى على بلاد الشام، دار الراوي، الدمام.

٧. زيادة، نقولا (١٩٩٢): قصة الاستعمار في العالم العربي، الفاخرية، الرياض

٨. سلطان، علي (١٩٨٧): تاريخ سورية، دار طلاس، دمشق.

٩. الصلاح، محمد (١٩٨٦): الإدارة في إمارة شرق الأردن، دار الملاحي، إربد- الأردن.

١٠. عبدالرحمن، أسامه (٢٠١١): مؤامرات تقسيم الأمة العربية، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة.

١١. عبدالقادر، محمد (١٤٠٥هـ): نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، مكتبة وهبة، القاهرة.

١٢. منسي، محمود حسن (٢٠٠٩) تاريخ الشرق العربي المعاصر، خوارزم العلمية، جدة

١٣. ياغي، اسماعيل (٢٠٠٠) تاريخ العالم العربي المعاصر، دار العبيكان، الرياض

١٤. ياغي، إسماعيل و محمود شاكر (١٩٨٤) تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر، ج١، دار المريخ، الرياض

١٥. يكن، فتحي (١٩٨٣)، العالم الاسلامي والمكايد الدولية خلال القرن الرابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت.

مواقع انترنت ويوتيوب:

١٦. الباحث العربي؛ قاموس عربي-عربي www.baheth.info/all.jsp?term

١٧. الدباغ،مصطفى abedkhattar.com/abedkhattar/palestine/book3 1.htm

١٨. سيفو، علي (٢٠١٥) تاريخ التقسيم في سورية، يو تيوب -youtube, WWW.YOU TUBE.COM/WATCH?v=8eu4Qmtz3i0

١٩. عكام، محمود، موقع الدكتور على الانترنت، http://www.akkam.org/index. php?type=1814

٢٠. مركز إدراك Idraksy،net، ملف خاص؛ تقسيم سوريا مئة عام من الخطط والمحاولات.
٢١. موقع https://ar.wikipedia.org/wiki
٢٢. موقع www.alef-yaa.com
٢٣. موقع علاء العبادي www.alebady.com
٢٤. موقع www.daleel-malaysia.com/vb/tourism829931

دور المرأة الثقافي في بلاد الشام
خلال العصر الأموي

دكتورة

نورة بنت أحمد حامد الحارثي

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك،
ووكيلة البحث العلمي بجامعة بيشة

الملخص العربي

أسهم انتقال الخلافة الإسلامية إلى بلاد الشام في فتح آفاق جديدة في مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية، فقد اختلط المجتمع الشامي بعناصر جديدة من موالي وبيزنطيين وفرس. وبرزت ظروف سياسية جديدة أفرزت فرقًا وأحزابًا ومذاهب. ونشأت تيارات دينية جديدة، أهمها الزهد والتصوف. وقد تفاعلت المرأة مع كل تلك المتغيرات، ففي العلوم الدينية طرقت المرأة جميع أبوابها متعلمة ومعلمة، وأدخلت عنصر الزهد والتصوف في سلوكها الديني والثقافي. وفي الجانب الأدبي كتبت المرأة في صنوف الأدب جميعًا، وتميزت في فن الموسيقى والغناء والشعر المغنى بتأثير عنصري الموالي والجواري. وكان حضور المرأة في العلوم التطبيقية أقل من المجالين السابقين، وعرف عدد قليل ممن اشتغلن بالطب والكيمياء والفلك.

وكان دعم الخلفاء والولاة لجهود المرأة الثقافية وخصوصًا في العلوم الدينية والأدبية كبيرًا، فكان بلاط الخلافة مفتوحًا لجهود المرأة الثقافية ومشجعًا لها فأغدق عليها الثناء وأجزل لها العطاء. وقد تبنت مؤسسات مختلفة جهود المرأة الثقافية وأسهمت في انتشارها، من مدارس وكتاتيب ومجالس خلفاء ومجالس أدب، وكان المسجد أكثرها تأثيرًا. وكان مجتمع المرأة الثقافي يضم المحدثة وراوية الحديث والفقيهة والزاهدة والمعلمة والشاعرة والناقدة والمغنية والطبيبة والجارية وسيدة المجتمع، وكان فضاء المجتمع الأموي يتسع لكل ذلك من خلال مساحة الحرية التي مهدت السبل لازدهار حياة المرأة الثقافية الدينية والأدبية والعلمية في بلاد الشام.

كلمات مفتاحية: المرأة، الأموي، الشام، الثقافي، العلمي، المؤسسات.

Abstract

The rise of the Umayyad Caliphate in Bilad al-Sham opened new horizons in the issues of social, political and religious life's. The new Islamic society had different groups of people; the Mawali, Byzantines and Persians. The New political conditions formed many groups, parties, doctrines and different attitudes. New religious currents have emerged, for instance asceticism and mysticism. The Umayyad Women had interacted with all those variables. She covered all fields of the religious sciences, as well as she Introduced the basics of asceticism and mysticism in the religious and cultural behavior.

On the literary side, the Umayyad women wrote in all literature categories. Her creativity had appeared in the art of music, singing, lyric. The presence of women in applied science is less than previous fields. Some of them had worked in medicine, chemistry and astronomy.

The caliphs, Governors had supported the cultural efforts of women, especially in religious sciences and literature.

The Caliphs Palace was open to women's efforts and encouraging them, praise them, and extend its tender. Many institutions had contributed in supporting the efforts of women in cultural diffusion; for instance mosques, schools, Quranic schools (al-Katatib), councils of literature and boards of the successors. Women's cultural community consists of a narrator, jurist, the ascetic, poet and critic, singer, and physician. The Umayyad community was expanded to all through the space of freedom that paved the way for prosperity of the lives of women religious, cultural, literary and scientific in the Levant Umayyad community was expanded to all through the space of freedom that paved the way for prosperity of the lives of women religious, cultural, literary and scientific in the Levant.

As a consequence of the space of freedom in the Umayyad society all cultural fields was flourished. That paved the way for prosperity of the lives of women religious, cultural, literary and scientific in Bilad al-Sham.

Keywords: women, Umayyad, Sham, scientific, cultural institutions.

المقدمة:

عاشت بلاد الشام على مكونات الثقافة العربية التقليدية التي سبقت الإسلام، فقد كانت قائمة على تعدد الأديان من وثنية ويهودية ومسيحية، وعلى تنوع الأمم والشعوب التي سكنتها، فكان فيها اليوناني والروماني واليهودي والسرياني والفارسي والعربي. وعندما دخلت بلاد الشام الإسلام، وصارت دار الخلافة فيها، ارتبطت الثقافة بالتوجه الديني والتشريعي الإسلامي. ولأن بلاد الشام ذات خليط ثقافي فقد تعرضت لتأثيرات حضارية كلاسيكية يونانية ورومانية وساميّة من كنعانية وآرامية وسريانية، فضلًا عن تجاورها مع حضارات بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس وآسيا الصغرى، وقد منح هذا كله بلاد الشام غنى وتنوعا ثقافيًا، وتعددًا في الأديان والمذاهب والأعراق.

لقد كانت بلاد الشام، قبل أن تصبح عاصمة الدولة الأموية، مقرًا لحكام الروم ومستقرًا لجيوشهم وقادتهم. وقد جعل هذا مسؤولية الخلفاء والحكام الأمويين ومهمتم صعبة، في سبيل "ترسيخ الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة وتطويرها بصورة تستطيع معها أن تحل محلّ الثقافات القديمة"[1]. وقد انقسم المجتمع الأموي إلى عدد من الفئات أكبرها العرب، والموالي، والرقيق. حيث انقسم العرب فيه إلى فئات أيضًا: الفئة العليا الدينية من الصحابة والتابعين، والدنيوية من القبائل اليمانية، والمضرية في العراق، والشامية، والفئة الثانية عامة العرب بدوًا وحضرًا. وانقسم الموالي الى طبقة عليا من أصول أعجمية، مثلت الدهاقنة والأعيان والمسؤولين، والفئة الأخرى باقي

(١) أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية – الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ص٩٠.

الموالي، ومنهم عبيد العتاقة، والسريان والفرس والروم. بينما كان الرقيق فئة واحدة مَلَكَهَا كل من العرب والموالي[1].

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إبراز دور المرأة المسلمة الثقافي "الديني والعلمي والأدبي" في العهد الأموي الممتد من (٤١ه - ١٣٢هـ / ٦٦١م - ٧٥٠م) في بلاد الشام.

أهمية البحث:

كان للمرأة في العصر الأموي دورًا مؤثرًا في مختلف أنساق الحياة، ومن بينها النسق الثقافي "الديني والعلمي والأدبي"، **ولذا سيقوم هذا البحث:**

١- بذكر بعض النساء اللواتي عنين بالشؤون الدينية والعلمية والتعليمية والثقافية والعلمية في العصر الأموي في بلاد الشام[2].

٢- إبراز ملامح حياة المرأة الثقافية الدينية والعلمية والأدبية في العصر الأموي في بلاد الشام.

٣- عرض جهود المرأة وإسهاماتها الثقافية "الدينية والعلمية والأدبية" في العصر الأموي في بلاد الشام.

٤- التعرف على العلوم التي برعت فيها المرأة، وتميزت، خلال العصر الأموي في بلاد الشام.

٥- تبيين ما أتيح للمرأة من مجالس ومنتديات وأماكن لتنهل منها العلم أو لتبرز ما أوتيت من طاقات إبداعية في مختلف مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية.

مبررات البحث وأسئلته:

أثارت كثير من الدراسات الغربية والإستشراقية الشكوك والشبهات حول المرأة المسلمة في عصور الإسلام المختلفة، فشككت في قدراتها جميعها، كما شككت في مدى سماح الإسلام لها بالمشاركة في حياة المجتمعات الإسلامية العامة، ويشكل هذا البحث لبنة في الرد غير المباشر على هذه الشبهات والشكوك.

لم نعثر على دراسات متخصصة وكافية تلتفت إلى دور المرأة الثقافي الديني والعلمي والأدبي في العصر الأموي في بلاد الشام تحديدًا، فأتت بعض الدراسات على دورها في المجالات الحياتية

---

(١) رواقة، إنعام موسى إبراهيم، الحياة الاقتصادية وأثرها في الشعر الأموي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م، ص٧٢، ٧٨ - ٨٧.

(٢) لا يتسع هذا البحث إلى رصد النساء اللواتي شاركن في الحياة الثقافية خلال العصر الأموي في بلاد الشام، واللواتي يقدرن بالمئات.

المختلفة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي العصر الراشدي وفي العصر العباسي، وعلى دورها في العصر الأموي في منطقة الحجاز، وعلى خلاف هذا فقد جاءت المصادر والمراجع على لمحات متناثرة هنا وهناك عن دورها في بلاد الشام خلال العصر الأموي. وانسياقًا مع المبررات السابقة، يهدف هذا البحث إلى الإسهام في رسم صورة واضحة متكاملة للجانب الثقافي الديني والعلمي والأدبي للمرأة في بلاد الشام خلال العصر الأموي.

وحتى نضع حدودًا لهذه الصورة نطمح إلى الإجابة على التساؤلات التالية:

من هُنَّ أشهر السيدات الأمويات في هذه الحقول؟ وكيف حصلت على تعليمها؟ وما هي المجالات التي برزت فيها؟ وما هو مدى مشاركتها في الحركة العلمية والثقافية في المجتمع الأموي؟ وأين تأتّى لها القيام بهذه الأنشطة؟ وإلى أي طبقة اجتماعية ينتمين؟

إن الخوض في دراسة الحياة العلمية والثقافية والأدبية للمرأة المسلمة أمر وعر شائك، تعز فيه المعلومات أحيانًا، ولا تأتي عليه المصادر التاريخية والأدبية أو كتب التراجم إلا لمامًا، وبمعلومات متناثرة في هذا المصدر أو ذاك. ومن هذا الوعي ندرك أن بعض الأسئلة لن تحظى بالجواب الكافي والشافي، ولكننا نحاول ما وسعنا الجهد، إضاءة جنبات بعض هذه الأسئلة إن شاء الله، ونشير إلى نقصان إجابات بعضها الآخر إن وُجِد.

منهج الدراسة:

يقوم هذا البحث بداية على المنهج التاريخي، وندرس من خلاله واقع حياة المرأة الثقافية في بلاد الشام خلال العصر الأموي اعتمادًا على المصادر الأولية والمراجع المختلفة. وفي المنحى الثاني سيكون المنهج التحليلي سبيلنا إلى إبراز العوامل المختلفة التي عززت دور المرأة الثقافي أو أعاقَتْهُ، معتمدين على التنويه إلى نماذج من النساء في مختلف المجالات الثقافية التي اشتهرت بها.

حدود الدراسة:

تبرز حدود البحث من خلال الضوابط الآتية:

الزمان: العصر الأموي من السنة ٤١ للهجرة إلى السنة ١٣٢ للهجرة.

مصادر الدراسة:

تعتبر كتب التراجم مرجعًا أساسيًا في دراسة النواحي الثقافية "الدينية والعلمية والأدبية" للمرأة في العصور الإسلامية عمومًا، وفي العصر الأموي المُحدِّد الزمني لهذه الدراسة. وقد أفادتنا كتب التاريخ، وكتب التراجم، وعلم الأنساب، وكتب الأدباء والشعراء وغيرها في دراسة هذا الدور. ويتضح من خلال البحث أن هذه المصنفات على تنوعها لا تمنحنا صورة واضحة ومعلومات كافية

عن المرأة وجهودها، حيث كانت العناية بالرجال وجهودهم أكثر منها عند المرأة. فالحديث عن المرأة في العصر الأموي حديث مقتضب ومتناثر في المصادر المختلفة، على العكس من الحديث عن بعض شؤونها الأدبية والفنية التي جاءت أكثر غنىً من غيرها، وقد عنيت مصادر التاريخ الإسلامي بشأن المرأة العام أكثر من الترجمة لها. وسوف يكون عوننا في البحث عن دور المرأة الثقافي، فوق ما ذكر أعلاه، الرجوع إلى كتب التاريخ الاجتماعي والموسوعات ومصادر أعلام النساء.

لقد جاءت بعض المصنفات على ذكر الراويات حول تابعيات العصر الأموي دون رتب، فمثلا ابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن منظور في مختصر تاريخ دمشق، يأتيان على ذكر أسماء النساء، ومن بينهن الراويات بعد الانتهاء من ذكر أسماء الرجال دون الإشارة إلى رتبهن.

وقد اجتهدت بعض جامعات المملكة العربية السعودية في توجيه طلبة الدراسات العليا للبحث في الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية خلال العصر الأموي في مكة المكرمة[١]، والمدينة المنورة[٢]، والحجاز[٣]، وأقليم الجزيرة العربية[٤].

أما حول المرأة في العصر الأموي فقد تناولت الدراساتُ حياتها بصورة عامة، دون أن تنفرد دراسة علمية تتناول حياتها الثقافية من النواحي العلمية والأدبية والدينية، فقد تناولت طامش[٥] في رسالة علمية ٢٠٠٤م المرأة في العصر الأموي في كل الأمصار والبلدان التي كانت تحت خلافة بني أمية في الجزيرة العربية، والعراق، وبلاد الشام، في مختلف مظاهر حياتها الدينية، والعلمية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والحياتية اليومية، وهي تختلف عن دراستنا من حيث التحديد المكاني، حيث تناول بحثنا (بلاد الشام)، واختلفت من حيث الموضوع ، حيث جاء بحثنا حول حياة المرأة الثقافية "الدينية والأدبية والعلمية" فقط.

وجاءت دراسة الوافي[٦] لتتناول التعليم بشكل عام في العصر الأموي في الشام، دون التمييز

---

(١) الرحيلي، عبد الودود، مكة المكرمة في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ٢٠٠٥م.

(٢) النوافلة، عبدالله موسى، المدينة المنورة في العصر الأموي، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ٢٠٠٢م.

(٣) أبو سرحان، عطية عودة، تاريخ الحجاز في العصر الأموي، رسالة دكتوراة غير منشورة، قسم التاريخ والحضارة، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٧٦م.

(٤) سرماني، حنيفة عمر فاروق، إقليم الجزيرة منذ الفتح حتى نهاية العصر السفياني (الأموي)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة دمشق، سوريا، ٢٠٠٦م.

(٥) طامش، مريم عبدالله، المرأة في العصر الأموي، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة صنعاء، اليمن، ٢٠٠٤م.

(٦) الوافي، سمية بنت محمد فرج، التعليم في الشام في العصر الأموي، رسالة ماجستير في التربية الإسلامية المقارنة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية بمكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ.

بين الرجال والناس في ذلك، فجاء جُلُّ الرسالة مركزًا على دور الرجل في التعليم والتعلم، وهو ما يميز دراستنا التي أفردت حيزًا للتعليم عند المرأة خلال هذا العصر بصفته مكونًا المكونات الثقافية الأخرى التي تناولها البحث ولم تتطرق إليها دراسة الوافي.

أما دراسة أبيض[1] فقد تناولت التربية والثقافة الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، هي دراسة مقيدة بكتاب تاريخ دمشق دون سواه من المصادر والمراجع من جهة، وتشمل القرون الهجرية الثلاثة الأولى "العصر النبوي، والراشدي، والأموي، والعباسي"، وهو ما يقلص حظوظ تناول الجانب الثقافي للمرأة في العصر الأموي في بلاد الشام من جهة أخرى. وهذه هي الميزات الثلاث التي تنفرد بها دراستنا عن هذه الدراسة، وعن سواها مما نعلم من دراسات العصر الأموي.

هيكلية البحث:

تناول المبحث الأول من هذا البحث الأنساق الثقافية التي شغلت بها المرأة في بلاد الشام خلال العصر الأموي، وقد قسمت إلى العلوم الدينية، والعلوم العقلية، والمجالات الأدبية. وجاء المبحث الثاني حول المؤسسات الراعية لجهود المرأة العلمية، وأهمها الكتاتيب، والمساجد، ومجالس العلم والأدب، ومجالس الخلفاء والأمراء، ومنازل العلماء ومجالس النساء. وحاولنا في المبحث الثالث تكريس مكانة المرأة في العصر الأموي في بلاد الشام، وتناول صورتها معلمة ومتعلمة، وأديبة وسيدة مجتمع، وجارية. جاءت كل أقسام البحث على الحديث عن بعض الشهيرات من النساء في العهد الأموي الحرائر منهن، وغير الحرائر.

المبحث الأول: الأنساق الثقافية الثقافية التي شغلت بها المرأة في بلاد الشام

عُرِّفَت الثقافة بأنها "ذلك الكل المركّب الذي يضم المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف وكل المقدسات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان في مجتمع معين"[2]. وقد اعتمد الباحثون في تناول الثقافة على كل ما له علاقة باللغة والدين والمعتقدات والقيم، وهي الأساسات التي تتشبث بها الأمة وتنكر تغييرها. وهنالك من الظواهر الثقافية ما تخص فئة أو مجموعة دون غيرها من المجتمع، مثل الأطباء والشعراء والزهاد والمعلمين، فهي خاصة تعنى بها كل فئة وتكون أقل مقاومة للتغيير، بل وتسعى إليه وفق مستجدات خصوصياتها الثقافية والعلمية، وقد تشبث المجتمع الأموي بهويته الدينية واللغوية والحضارية العربية، وفتح أبواب الانفتاح على الخصوصيات من حيث الفئات أو المواضيع التي نهلت من الثقافات التي تفاعل معها المجتمع الأموي في بلاد الشام.

(١) أبيض، التربية والثقافة العربية – الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

(٢) مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٧م، ص٩.

كان النصف الثاني من القرن الأول الهجري صورة تكميلية أوسع للمشهد الحضاري والفكري في الحضارة الإسلامية نتيجة الاختلاط والتلاقح الثقافي وتغيير في السلوك والعادات الاجتماعية التي اقتضتها طبيعة تنوع الشعوب والمذاهب والأفكار في المدن الكبرى من بلاد الشام، وتعددت أغراض وأسباب هجرة العلماء إلى بلاد الشام، وتجلت هذه الأغراض والأسباب في الغرض العلمي، والسياسي، والاقتصادي، وزيارة الأماكن المقدسة، وفي اهتمام خلفاء بني أمية بالعلوم المختلفة، ومساحة الحرية التي لا تتوافر في سواها من حيث تعدد المذاهب والأجناس والأفكار والمؤثرات الأجنبية، كما نشط فيها فقه الاجتهاد وكانت فيها مدارس فقهية وعلمية عديدة.

أولاً: العلوم الدينية:

تمركز العلماء والمحدثين والفقهاء في المدن الرئيسية، مثل دمشق العاصمة السياسية لدولة بني أمية، والقدس الشريف قبلة المسلمين الأولى، ومن مدن بلاد الشام الأخرى، التي شهدت حركة أدبية وعلمية ودينية أقل من دمشق والقدس، ظهرت كل من بعلبك وصور وحلب. وقد سمع الناس من فقهائها وارتحلوا اليهم، ومن الواضح أن مدن بلاد الشام كانت محجًا لأهل العلم، يتعلمون من علمائها، ويُعَلِّمون بما حباهم الله به من العلم، في مجالسه ومناهله المختلفة، وخصوصا العلماء الذي قدموا من مكة والمدينة وبغداد.

وفي علم المسائل الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية التي تواجه الفرد في حياته نهض في بلاد الشام عدد من الفقهاء على المذاهب الإسلامية المختلفة، حيث بلغت العلوم الدينية في بلاد الشام خلال القرنين الأول والثاني الهجريين مكانة عالية، وحظيت بعدد من مشاهير الفقهاء، موزعين على الأجناد في دمشق، وحمص، والرقة، وفلسطين، وجرش والبلقاء وحوران، بينما ندر وجود فقيهات في بلاد الشام خلال هذا العصر مقارنة بما وجد في مدينتي الإسلام الأعظم مكة والمدينة.

تشكلت في العصر الأموي فئة من النساء الراويات والمحدثات والمتعبدات والزاهدات، وحظي بعضهن بالتتلمذ والتعلم على يدي أمهات المؤمنين والصحابيات رضي الله عنهن المُقدَّمات، وقد أخذ عنهن كثير من العلماء والمحدثين وتناقلوا أقوالهن ورووا عنهن، فقد روى مالك ابن أنس عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، ولم يرو عن غيرها. وقد كن متقدمات مجليات في علوم دينهن، قال الشوكاني: "لم ينقل عن أحد من العلماء بأنه رد خبر امرأة لكونها امرأة، فكم من سُنَّة قد تلقتها الأمة بالقبول عن امرأة واحدة من الصحابة، هذا لا ينكره من له أدنى نصيب من علم السنة"[1]. وقال الذهبي: "وما علمت في النساء من اتهمت، ولا من تركوها"[2]. وقد زادهن قيمة ورفعة في علوم الدين رواية كبار الأئمة عنهن، ومنهم الشافعي، وأحمد بن حنبل وغيرهم.

(١) الشوكاني، محمد بن علي بن عبدالله، نيل الأوطار، تحقيق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ج٦ / ص٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق على محمد الجباوي، دار المعرفة، بيروت، المقدمة، ص٤ - ٥.

ثانيًا: العلوم العقلية:

نهلت العقلية العربية في العصر الأموي من مناهل ثلاثة: منهل جاهلي، أعاد فيه بعض شعراء وعلماء هذا العصر إحياء أخبار عصر ما قبل الإسلام، والعودة إلى تكريس العصبية القبلية، ومنهل أجنبي؛ يوناني في الشام، وفارسي في العراق، وقبطي في مصر، وسرياني في سوريا والعراق، وكان المنهل الثالث إسلامي[1].

وقد أسهم هذا التنوع في ازدهار العلوم الدنيوية ودراستها، ونالت اهتمامًا مجتمعيًّا ورسميًّا، ومن بين هذه العلوم الطب، فنال الأطباء الأعاجم حظوة في بلاط السلاطين، وقد تُرجِمت بعض المؤلفات الطبية والكيماوية عن اليونانية الى العربية[2]. وحرص خلفاء بني أمية على إدخال الأطباء الأعاجم إلى الشام، وأن يضمونهم إلى حاشيتهم، فكان ابن أثال النصراني طبيبًا لمعاوية بن أبي سفيان وخبيرًا في تركيب العقاقير والأدوية[3]. وبالإضافة إلى النشاط في حركة ترجمة كتب الطب إلى العربية، فقد كانوا سباقين في بناء البيمارستانات[4].

ثالثًا: المجالات الأدبية:

من البيّن أن الحياة الثقافية خلال العصر الأموي نالت اهتمامًا حقيقيًا، فتمت رعاية العلماء والأدباء، والفقهاء والشعراء والمتصوفة والزهاد، وجاء هذا الاهتمام تحقيقًا لغرضين: نشر هذه العلوم ورعايتها، واستخدام هذا الاهتمام وسيلة دعائية أمام الأمة لاستمالتها إلى صفوفهم، أمام المذاهب والأحزاب والثورات التي نشأت خلال العصر الأموي في بلاد الشام والأمصار الإسلامية.

وتكريسًا لضرورة التعليم بنيت المدارس والمساجد والزوايا والتكايا والأربطة، وأجري عليها الوقف. وقد وجّه الأمويون اهتمامهم إلى العلوم الإسلامية، وتأسست مدارس عديدة لهذ الغاية، إضافة إلى العلوم الدنيوية المختلفة.

وقد أسهمت المرأة في نهوض هذه العلوم جميعها. ففي ميدان الأدب أظهرت ثقافة واسعة، تمتلك ناصية اللغة، مع رقة في اللفظ، وعذوبة في المعنى، فاهتمت بالنثر والشعر، والخطابة والبيان، فجاء الأدب وسيلة لإثبات الذات، والتعبير عن النفس، والحفاظ على الشخصية[5] وقد برز

---

(١) ضيف، شوقي، العصر الإسلامي (تاريخ الأدب العربي)، ط ٩، دار المعارف، القاهرة، ص١٩٩ – ٢٠٧.

(٢) ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د ت، ص٣٥٤.

(٣) الصلابي، علي محمد، الدولة الأموية عوامل الأزدهار وتداعيات الانهيار، بيروت، دار المعرفة، ط٣، ٢٠٠٩م ، ج١ / ص٢٤٠: ، ابن الأثير، أسد الغابة، ج١ / ص١٧٢.

(٤) القلقشندي، أحمد بن عبدالله، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ج٣ / ص٣٤٦. عكاوي، رحاب خضر، الموجز في تاريخ الطب عند العرب، بيروت، دار المناهل للنشر، ط١، ١٩٩٥م، ص١٦١.

(٥) سنقر، صالحة، "المجالات الثقافية للمرأة العَربية في بلاد الشام في العصرين الأموي وَالعبّاسي"، مجلة التراث العربي،

منهن عدد من الفضليات والمبدعات، أمثال: عفراء بنت عقال[١]، وميسون الباهلية[٢]، وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب[٣]، وامرأة يزيد بن سنان[٤]، وخديجة بنت أحمد كلثوم المعافري[٥]، وحميدة بنت النعمان بن بشير[٦]، وعمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري[٧].

المبحث الثاني: مؤسسات راعية لجهود المرأة

أولاً: المساجد:

كانت المساجد في القرن الأول الهجري أهم المؤسسات الداعمة لجهود المرأة، "فقد كان المسجد الجامع مركزًا للحياة الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية والقضائية"[٨]. وتعتبر المساجد أهم المراكز التثقيفية والتوجيهية، فهي منتدى العلماء وخلوة المتعبدين، وأماكن الذكر، ورحابها حلقات تعلم وتعليم. وقد خصصت بعض الحلقات والمجالس للنساء يتعلمن ويسمعن ويسألن، أما معلمةً فلا نكاد نعرف منهن سوى أم الدرداء الصغرى. وقد نشطت الحركة العلمية في الجامع الأموي بدمشق التي وصلت إشعاعاته الدينية والعلمية كل بلاد الشام، ومختلف بقاع الدولة الأموية آنذاك، ومنها جامع حلب الذي بناه سليمان بن عبد الملك، والمسجد الأقصى. وتأسست في البلاد دور القرآن الكريم والحديث، وانتشرت المدارس الخيرية، والمكتبات في قصور الخلفاء. وشهد العصر الأموي نشوء علوم وازدهار أخرى مثل علم التفسير وعلم القراءات، وعلوم الحديث، وعلوم اللغة، والأدب.

وما من شك في أن مساجد بلاد الشام كانت حواضن للعلم وطلاب العلم، وقد شكّل المسجد الأقصى منارة لنشر العلم، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب عبادة بن الصامت رضي الله عنهما لتعليم أهل الشام، فَحلّ بالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وكان قدوم عبادة بأمر من أمير المؤمنين عاملًا أسهم في الإقبال على تلقي العلوم، وإنشاء المؤسسات الحاضنة لها. "وقد كان لما قام فيه، وفي ساحاته، ومن حوله من مؤسسات علمية: مدارس

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٣٠، السنة الثامنة، كانون الثاني "يناير" ١٩٨٨م / جمادى الأولى ١٤٠٨هـ، ص٢٠.

(١) كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، د ت، ٥ أجزاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٣ / ص٢٩٦.

(٢) كحالة، أعلام النساء، ج٥ / ص١٣٦.

(٣) كحالة، أعلام النساء، ج١ / ص٢٨ - ٣١.

(٤) كحالة، أعلام النساء، ج٥ / ص٢٩٧.

(٥) كحالة، أعلام النساء، ج١ / ص٣٢٢ - ٣٢٣.

(٦) كحالة، أعلام النساء، ج١ / ص٣٠٠ - ٣٠١.

(٧) كحالة، أعلام النساء، ج٣ / ص٣٦١.

(٨) مرسي، محمد منير، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢٠١.

ومكتبات، ودور قرآن، ودور حديث، وزوايا، وخوانق، ورباطات –فيما بعد، كان عبارة عن معاهد علمية، أو كليات أو جامعة تعقد فيها الحلقات العلمية، وتدرس العلوم الشريعة، وعلوم اللغة العربية، والتاريخ، والعلوم الرياضية، وغيرها"[1]. وعلاوة على تلقي علوم القرآن والقراءات والحديث والفقه وعلوم اللغة والنحو. وهنالك إشارات إلى تعليم الصبيان في المسجد، وكانت أم الدرداء ممّن علمهم في المسجد الأموي بدمشق. أما عن أبرز من تولى التعليم فيه في القرن الأول الهجري فمنهم: عبد الرحمن بن غنم الأشعري الفقيه أحد التابعين، شيخ أهل فلسطين، وفقيه الشام، توفي سنة ٧٩هـ[2]. وقبيصة بن ذؤيب" أبو سعيد الخزاعي المدني، كان على خاتم الخليفة عبد الملك، وكان من أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت رضي الله عنه"[3]، وعبد الله بن محيريز بن وهب القرشي الجمحي، أحد الأعلام سكن بيت المقدس، وحدّث عن عبادة بن الصامت، ومعاوية، وأبي سعيد رضي الله عنهم، وجماعة"[4]. ومن النساء أم الدرداء الصغرى، وقد كان لهم الفضل في شيوع العلم والتعليم في بلاد الشام دون تمييز بين ذكر وأنثى، وبين حُرَّةٍ وجارية.

أما المسجد الأموي في دمشق فكان مدرسةً تُعلِّم القرآن وعلوم الحديث، فكما أرسل عمر بن الخطاب عبادة بن الصامت رضي الله عنه إلى المسجد الأقصى، فقد جعل يزيد بن أبي سفيان على المسجد الأموي، وكان أفضل بنيّ أبي سفيان، استعمله أبو بكر الصديق رضي الله عنه[5]. وكان أشهر أصحاب حلقات العلم فيه أبو الدرداء من الرجال، وأم الدرداء من النساء، وكان يجلس عند كل عمود في المسجد شيخ يجتمع حوله الناس يكتبون العلم[6]. ومن الملاحظ تعدد وظائف المسجد حيث أشار إلى ذلك أحد الباحثين بقوله: "واتسعت وظيفة المسجد في جانب آخر هو التعليم، فأصبحت مساجد كثيرة مدارس للتعليم، بل لم يقتصر التعليم فيها على العلوم المتصلة بأمور الدين، كما كان الحال في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وإنما اتسعت دائرة العلوم التي تدرس في المسجد حتى تناولت كل المعارف الإنسانية تقريبًا"[7].

---

(١) غنيمة ، محمد عبد الرحيم، تاريخ الجامعة الإسلامية الكبرى، دار الطباعة المغربية ، تطوان ، ١٩٥٣م، ص٣٨.

(٢) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تذكرة الحفاظ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ٤ أجزاء، دار المعارف العثمانية، تصوير دار الكتب العلمية، ١٣٧٤هـ، ج١ / ص٥١.

(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ ، ج١ / ص٦٠.

(٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١ / ص٦٨.

(٥) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الفكر بيروت، ٢٠٠٦م، ج٤ / ص١٥٧٥.

(٦) أبيض ، ملكة ، "الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق من الفتح حتى عام ٨٦هـ"، مجلة دراسات تاريخية، لجنة كتاب تاريخ العرب، العدد السابع، دمشق، سوريا، ١٩٨٢م، ص:١٠٦.

(٧) محمود، علي عبدالحليم، المسجد وأثره في المجتمع، دار المعارف، ١٩٩٨م، ص٤٤.

وقد اشتهر الوعاظ في المسجد بقصصهم المؤثرة، ومن أشهرهم تميم الداري وأبي إدريس الخولاني والأوزاعي[١]. فكانت هذه الحلقات منتظمة وذات مناهج يجاز فيها طالبو العلم، وتعلّم فيها من خلفاء القرن الأول الهجري عمر بن عبد العزيز، حيث كان من تلاميذ المسجد النبوي، وحفظ القرآن في مصر، وبلغ في المسجد النبوي رتبة الاجتهاد[٢]. وكان عبد الملك بن مروان شابًا حين دخل المسجد النبوي الشريف متعلمًا، فعن نافع قال: "لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا، ولا أفقه، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان"[٣]. وقد أمر عمر بن عبد العزيز أهل العلم بمباشرة العلم في المساجد، ومارس نفسه التعليم فيها، ويشرف على سير التعليمية في حلقات المسجد[٤]. وكان معلمو المسجد على رتب، فمنهم قارئ جند، ومنهم قاص جند كعائذ الله الخولاني، ومهم هذا وذاك كأبي الدرداء وفضالة بن عبيد[٥].

ثانيًا: مجالس الخلفاء والولاة:

المجلس اسم مكان للفعل جلس، وهو القعود، والجِلسة بكسر فاء الفعل هي الهيئة التي يُجلَس عليها[٦]. وهو اصطلاحًا من مسميات القرن الأول الهجري، يشير إلى قاعة درس الحديث، أو إلى المحاضرة والدرس، أو وظيفة من جلس بعد شيخه على مقعده[٧]. وعرّفه عبد العزيز الدوري بأنه" الجلوس إلى فصل من الطلبة، أو عبارة عن مكان قريب من عمود، أو مقعد أو أي موقع في المبنى، وكان يعبر عن الهدف بعبارة، أو أشباه جمل من نوع" مجلس التدريس" أو "مجلس القضاء"، أو"مجلس الشورى "أو "مجلس الشعراء"[٨].

أنشأ الخلفاء والولاة الكتاتيب لتعليم الكتابة والقرآن لأبناء المسلمين، ودعوا أعلام الفكر والأدب من أنحاء العالم الإسلامي إلى قصورهم، ليتحدثوا في أخبار العرب والعجم والأمم

---

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١ / ص٥٦ - ١٧٨.

(٢) الذهبي، محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، دار التراث العربي، الكويت، ١٩٦٠م، ج١ / ص١٢١.

(٣) ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، ١١ مجلد، مكتبة الخانجي، ٢٠٠١م، ج٥ / ص٢٣٤.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج٢ / ص٣٦١، ج٥ / ص٣٣٥.

(٥) أبيض، ملكة، التربية العربية الإسلامية" المؤسسات والممارسات"، مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري، مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن، د. ت، ص١١٣.

(٦) الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهرالقاموس، تحقيق محمد الغرباوي، اللجنة الفنية بوزارة الاعلام، القاهرة، ١٩٧٥م، مادة جلس.

(٧) ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٣٥٧ه، ج٦ / ص٩٨، ١٣٣، ١٤٥.

(٨) الدوري، عبدالعزيز، التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات، مدخل تاريخي، مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن، ١٩٨٩م، ص٢٢ - ٢٣.

السالفة، علاوة على مجالس الشعر والأدب، ومناقشات اللغة والعلوم الدينية والعلوم المختلفة[١]. وقد أنشأ معاوية "بيت الحكمة"، وهي مكتبة خاصة في القصر تجمع فيها الكتب، وتؤلف فيها المصنفات[٢]. وعني باللغة العربية والأدب، وأبقى على المدارس السريانية في نصيبين وحران لتستمر في أعمال ترجمة المؤلفات اليونانية العلمية والفلسفية. وجمع أصحاب الاختصاص لتعليم المسلمين علوم الحروب البحرية، والإدارة والطب والعمارة[٣]. واهتم معاوية بالشعر، ورأى أن يعلمه أبناءه، وفيه يقول بحماسة "فوالله إن كان العاق ليرويه فيبرأ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل"[٤]، وعلم عبد الملك بن مروان أبناءه العلوم المختلفه من تعلم القرآن والشعر، والأخلاق[٥]، والنشاط وقلة النوم، والنحو[٦].

وقد كان للمرأة العربية حضورها في هذه المجالات الثقافية النظرية والعملية، ومنهن عائشة بنت طلحة بن عبيد الله (توفيت سنة ١٠١هـ/ ٧١٩م)، فهي عالمة بالشعر والأدب وأصحابه، ولها دراية بأخبار العرب وأيامها، ولها معرفة بعلم النجوم[٧]. ساعد في ذلك أن مجالس الخلفاء مفتوحة للمرأة كما هي مفتوحة للرجل، فها هي الثريا[٨] تقدم إلى مجلس الوليد بن عبد الملك في حاجة لها، فيسألها الوليد، وهي في حضرة زوجته أم البنين، وكانت ذات فصاحة وبلاغة وحجة، وذات رأي سديد[٩]، قائلا لها: أتروين من شعر عمر بن أبي ربيعة شيئًا؟ قالت: نعم، أما أنه كان عفيفًا، عفيف الشعر –وهذه لفتة نقدية في شخصه، وفي نقد شعره–، وقالت: أروي له، وذكرت أبياتًا ستة قالت إنها من شعره، والحقيقة أنها كانت من نظمها، لتحمل مغزى ولتلمح فيها إلى أنّ أم عبد الملك أعرابية[١٠]. فالأبيات أبياتها، وليست لعمر بن أبي ربيعة، وإنما أرادت التعريض.

ويعود ازدهار مجالس الشعر إلى حاجة الأمويين إلى الدفاع عن حقهم في الخلافة، فكان الشعراء وسيلتهم الإعلامية، لذلك أغدقوا على الشعراء والشاعرات الأموال، وقربوهم إلى

---

(١) أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية – الإسلامية، ص٩٢.

(٢) السابق، ص٩٣.

(٣) السابق، ص٩٤.

(٤) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، ١٩٤٠م، ج٦ / ص١٠٨.

(٥) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبعة مصر ـ ١٩٦٤م، ج٢ / ص١٦٧.

(٦) السابق نفسه.

(٧) الأصفهاني، ج١١ / ص١٨٩ – ١٩٠.

(٨) الثريا بنت علي بن عبدالله بن الحارث بن أمية الأصغر، الأصفهاني، ج٥ / ص٣٥٢.

(٩) حسن، ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ١٩٧٩م، ج١ / ص٥٦١.

(١٠) الأصفهاني، ج١ / ص٢٣٧.

مجالسهم السياسية رغبة في مدحهم، وإثبات ولائهم والترويج لهم، ورافقوهم إلى المجالس الاجتماعية لمنادمتهم، وكان الشعراء يغتنمون هذه الفرص للتكسب والعطايا.

ثالثًا: مجالس النساء:

المرأة العربية ذات مكانة عالية عند قومها عبر العصور، وإليها انتسبت بعض القبائل، كباهلة[١]، وبجيلة[٢]، وانتسب بعض الرجال إلى أمهاتهم[٣]، تعظيمًا وعلوّ مكانة، ولم تكن المرأة في العصر الأموي الوحيدة التي كان لها حضورها المجتمعي والثقافي، فقد ارتادت الشاعرات العربيات منذ العصر الجاهلي أسواق العرب الأدبية، كسوق عكاظ، تباري فحول الشعراء، ومنهن الصحابية المخضرمة الخنساء[٤]، وزوج أبي سفيان هند بنت عتبة[٥].

وفي عصر الدولة الأموية كان للنساء مجالسهن الفكرية والأدبية، وقد أظهرت المرأة فيها فصاحة وحسن بيان، فَأَمّ مجالسهن المثقفة والشاعرة والخطيبة والناقدة[٦]، متمتعة بالحرية التي أتاحها لها الإسلام وظروف البيئة الشامية[٧]. وبرز من بين الناقدات المطلعات سكينة بنت الحسين (توفيت سنة ١١٧هـ / ٧٣٥م)[٨]، وكان لها وقفات في نقد شعر كبار شعراء عصرها، أمثال كُثيّر عزة[٩]، والفرزدق[١٠]. وبرزت عزة صاحبة كثير التي فضلت شعرًا له فيها على غيرة في منحىً نقدي ذوقي[١١]. وممن انتقدن كثيّر في شعره عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب[١٢]، التي كان لها مجلسها الذي يؤمه الشعراء كالأحوص وكثير، فقد انتقدت الأول بقولها: فأنت أقل العرب وفاء،

(١) الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، عيسى البابي الحلبي وآخرون، عمان، وزارة التراث القومي الثقافي، ١٩٨٩م، ج١ / ص٣٧٨.

(٢) السابق، ج١ / ص٢٤٢.

(٣) الأصفهاني، ج٩ / ص٢٦٩، ج١٤ / ص ١٤٥.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق علي محمد البجاوي وآخرون، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، ١٩٧٠م، ج١١ / ص٦.

(٥) سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٠م، ص٢٩٧ – ٢٩٩.

(٦) العلوي، فضل ناصر حيدة مكوع، نقد النص الأدبي حتى نهاية العصر الأموي، رسالة دكتوراه قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٣م، ص٢٢١.

(٧) سلوم، داود، المرأة في أفق النقد الأدبي، دار السطور، بغداد، ٢٠٠٢م، ص٣١.

(٨) ابن خلكان، أبو عباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ب ت،، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج١ / ص٢١١.

(٩) المرزباني، أبو عبدالله، الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة، مصر،١٩٦٥م، ص٢٤٦ – ٢٤٧.

(١٠) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ط١، شرحه وعلق حواشيه سمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ج١٦ / ص١٨٠–١٨١، ج٢١ / ص٣٦٨ – ٣٦٩.

(١١) المرزباني، الموشح، ص١٨٢.

(١٢) السابق، ص٢٥٥ – ٢٥٦.

والثاني بألأم العرب عهدًا، وذلك في شعر قالاه[١]. وقد كان شعر مجالس النساء في جُلِّه عفيفًا وقورًا لا يخرج عما أحلّه الشرع.

وفي شعر المدح اشتهرت سارة الحلبية[٢]، وميسون بنت حميد بن بحدل الكلبية[٣]، وعائشة الباعونية الدمشقية[٤]، وحكيم بنت يحيى الأموية[٥]، وأم البراء بنت صفوان بن هلال[٦]، وليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد الأخيلية[٧]، وهي أشعر النساء، لا يقدّم عليها غير الخنساء[٨]، وهي شاعرة مخضرمة بين صدر الإسلام والعصر الأموي. وكانت قد هاجت النابغة الجعدي، اشتهرت بعلاقتها مع الشاعر اللص توبة بن الحُمَيِّر الخَفَاجِّي، حضرت مجالس الخلفاء والأمراء، ولها نوادر مع معاوية والحجاج أثناء استجوابهما لها بسبب علاقتها بالحمير الخفاجي، وقد أظهرت فيها بداهة وفصاحة وبلاغة وجمال أسلوب وحسن إنشاد[٩]، ويغلب على أن ولادتها كانت في زمن خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنها حوالي السنة ١٥هـ / ٦٣٦م، وعاشت أكثر حياتها في العصر الأموي إلى أن ماتت بخراسان سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م[١٠]. وكتبت شعرًا في رثاء الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان رثاءً صادق العاطفة، أبرزت فيه مكارم الأخلاق[١١]. وتعددت الأغراض التي قالت فيها أشعارها، فضمّ ديوانها المديح والهجاء والفخر والرثاء[١٢]. كما اشتهر من بين مجالس النساء مجلس غناء الثريا بنت علي، ومجلس جميلة المغنية[١٣]، ومجلس الأقحوانة، وأم جندب[١٤].

---

(١) السابق، ص٢٥٤ – ٢٥٥.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩م، ج٣ / ص٣٤٤.

(٣) كحالة، أعلام النساء، ج٥ / ص١٣٦.

(٤) السابق، ج٣ / ص١٩٧.

(٥) السابق، ج١ / ص٢٨٧.

(٦) السابق، ج١ / ص١٢٣.

(٧) السابق، ج٤ / ص٣٣٢.

(٨) ناتي، كريم ماهود، "المؤدبون والمعلمون في الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي"، مجلة الأستاذ، العدد ١٢٥، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية – جامعة بغداد، ٢٠١٠م، ص٩٣.

(٩) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١ / ص٣٥٩؛ الأصفهاني ، الأغاني، ج١١ / ص٢٠٤.

(١٠) بلاشير، د .ر، تاريخ الأدب العربي، ترجمة، إبراهيم الكيلاني، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٨م، ص٣٢٠ – ٣٢٣.

(١١) الأخيلية، ليلى، ديوان ليلى الأخيلية، عمر فاروق الطبّاع، ص٧٧ – ٧٨؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١ / ص٣٦١.

(12) Gabrieli, F: The Encyclopaedia Of Islam .Is V. Art "Layla Al- Akhyliyya", KHE – MAHI. Leiden, E. J. Brill, 1986, P. 710.

(١٣) الأصفهاني، ج١ / ص:٤٣، ج٢ / ص:٢٥٢، ج٩ / ص:٢٥٣، وغيرها في كتاب الأغاني.

(١٤) الأصفهاني، ج٨ / ص٢٠٢.

رابعًا: الكتاتيب:

كانت الكتاتيب أُولى مراحل التعليم للصبيان، يتلقون فيها الحفظ والإلقاء والإملاء والخط وقراءة القرآن الكريم والشعر. وهي وإن كان بعضها في المساجد، فقد كانت في أغلبها خارجه، في أماكن أهلية خاصة، وكان الصغار الذين يؤمونها صبية وفتيات[١]. وقد تعلمت نساء البيتين المرواني والسفياني القراءة والكتابة، فكانت منهن عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان[٢]، وأم حبيب بنت أبي هاشم زوج يزيد بن معاوية[٣]، ورملة بنت معاوية[٤]، وزينب بنت يوسف بن الحكم الثقافية[٥]، وآمنة بنت عمر بن عبد العزيز[٦]. واستمر البيت المرواني في خدمة الثقافة العربية الإسلامية في بلاد الشام، وعملوا على دمج الموالي بهذه الثقافة، واهتموا بالتعليم للعامة في الكتاتيب والمساجد، ولأبناء الخاصة في القصر عن طريق المؤدبين[٧].

إدارة الكتاتيب:

ومن حيث إدارة الكتاتيب فأشرف عليها أكثر من شخص، فمنهم من يُعلِّم الأطفال قراءة القرآن الكريم وحفظه ويعرف باسم الملقن، ثم من يُعلِّمَهم الكتابة ويسمى المُكتِّب، وفيهم المؤدب، والعريف، ثم المعلم. وعرف المدرس باسم الشيخ توقيرًا له، ولم تذكر لنا المصادر كثيرًا من النساء في العصر الأموي ممن شُغِلن بالتعليم، واللّاتي من أشهرهن أم الدرداء الصغرى.

المبحث الثالث: الأنشطة الثقافية للمرأة

أولاً: المرأة المعلمة:

اعترافًا من الإسلام بدور المرأة المهم في المجتمع، فقد منحها الحق لأن تكون متعلّمة ومعلِّمة، قارئة وكاتبة، فالمرأة المسلمة امرأة منتجة، وفاعلة في التعامل مع قضايا المجتمع، ولعل على رأس هذه الأولويات تَعَلُّمها، حتى تتبوأ مكانتها التي تستحق، وهي أن تربي النشء وتعلّمهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ يَلِيمِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنّ كُنّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النّارِ"[٨]. وقال أيضا: "مَنْ كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ إِلَيْهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا، وَتَزوَّجَهَا كَانَ لَهُ

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٠ / ص١٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٧ / ص١٢٤.

(٣) ابن عساكر، تاريخ، تراجم النساء، ص٤٨٥، ٥٤٠.

(٤) ابن عساكر، تاريخ، تراجم النساء، ص٩٥.

(٥) السابق، ص١٢٥.

(٦) الجوزية، ابن قيم، أخبار النساء، تحقيق نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، (د ت)، ص٣٢ - ٣٤.

(٧) أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص١٠٨.

(٨) البخاري: صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ص١٢٣٦. رقم الحديث: ٥٩٩٥.

أجْرَانِ"[1]. حرصت المرأة المسلمة في العهد الأموي على تربية أبنائها، فعملت واجتهدت لتوفر له تكاليف التعليم ولو بمغزلها، وتحرص على أن يكون ما يتعلمه ابنها نافعًا، يزيد في حلمه ووقاره ومسيرته فتقول قائلة منهن: "يا بني اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي، وتقول: يا بني إذا كتبت عشرة أحرف، فانظر هل ترى نفسك زيادة في مشيك وحلمك ووقارك، فإن لم يزدك فاعلم أنه لا يضرك ولا ينفعك"[2].

ومن أشهر المعلمات في الشام خلال العصر الأوي أم الدرداء الصغرى، واسمها هجيمة بنت حيي الأوصابية الدمشقية (توفيت بعد ٨١هـ / بعد ٧٠٠م)، من أوصاب حمير دمشق، وهي في الطبقة الثانية من تابعي بلاد الشام، من الفقيهات والزاهدات، وزوجها هو الصحابي الجليل أبي الدرداء صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمعت منه ومن أم المؤمنين عائشة ومن أبي هريرة رضي الله عنه[3].

عملت أم الدرداء الصغرى على تعليم الصبيان القراءة والكتابة بدمشق[4]. و"كانت أم الدرداء تستقبل في بيتها الطلاب والعلماء، فتعلم الطلاب القراءة والكتابة والقرآن والحديث، وتتذاكر الأحاديث مع العلماء. كما اجتمع عندها عدد من النسوة فيمضين الليل في الصلاة حتى تتورم أقدامهن. واجتماع النسوة هذا للعبادة يجعل من بيت أم الدرداء، أول رباط، أو أول خانقاه للنساء في الإسلام. وقد أمضت أم الدرداء السنوات الأخيرة من عمرها تنتقل بين دمشق وبيت المقدس، تقضي ستة أشهر هنا، وستة أشهر هناك، تعيش أثناءها مع النساء الفقيرات في قبة الصخرة على ما يبدو"[5].

واهتم عبد الملك بن مروان بأمّ الدرداء عالمة الشام، "فكان يستضيفها في قصره، ويذهب إلى مؤخرة المسجد لتحيتها والحديث معها، وعندما فقدت بصرها في شيخوختها، كان هناك مولى[6] يقودها خلال أسفارها بين دمشق وبيت المقدس. وفي الفترات التي تمضيها في بيت المقدس، كان عبدالملك يذهب لإحضارها من قبة الصخرة، ويرافقها إلى المسجد الأقصى وهي متكئة على ذراعه، ثم يوصلها إلى صفوف النساء في مؤخرة المسجد، ويعود إلى الصف الأول ليؤم الناس في الصلاة"[7].

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب: العتق، باب: فضل من أدب جارية وعلمها،ص٥١٧. رقم الحديث: ٢٥٤٤.

(٢) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ج٣ / ص١٨.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٧ / ص١٠٩ – ١٢٣. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، دار الفكر، ١٩٨٤م، ج١٢ / ص٤٩٣. الزركلي، الأعلام، الزركلي، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، أيار / مايو، ٢٠٠٢م، ج٨ / ص٧٧ – ٧٨.

(٤) السابق، ج١٩ / ص٤٠٨.

(٥) أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية – الإسلامية، ص٣١٧.

(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٧ / ص٢٥٠.

(٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٠ / ص٤٨٥، ج١٩ / ص٤٠٨. أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية – الإسلامية، ص١١٠ – ١١١.

ومن قصص الزهاد التي يرويها أحمد بن أبي الحواري قصته مع أبي سليمان الداراني وقاسم الجوعي، وتجوالهما في حواري الشام، حتى طرقا باب أحد البيوت، "ففتح باب بيت، ثم دخل وسلّم ودخل قاسم معه، وجلست أنا على يُمنة الباب فلم أر شيئا من الظلمة، فلما جلس ساعة تأملت فإذا بامرأة عليها جُبّة صوفٍ وخمار صوف وفي يدها سبحة، فلما دخل ضوء الشمس من كوة في البيت ردت علينا السلام. وقال لها أبو سليمان رحمة الله: يا أم هارون، كيف أصبحت؟ قالت: كيف أصبح من قلبه في يد غيره، يقول به هكذا وهكذا. وأشارت بيدها. قال أبو سليمان: يا أم هارون، ماذا تقولين في الرجل يحب لقاء الله؟ قالت: ويحك! ذاك رجل ثقلت عليه الطاعة وأحبّ الراحة منها. فقال لها: فإنه إذا أحب البقاء في الدنيا. قالت: بخ بخ! ذاك رجل أحب الطاعة وأحب أن يبقى لها وتبقى له، ثم سلّم وخرجنا، فسألنا أبا سليمان عنها، فقال: هذه أستاذتي"[1].

وقد سألها أبو سليمان الداراني المتصوف الزاهد، وأم هارون الخرسانية وتلميذها عبدالعزيز بن عمير في جمع من العلماء الزهاد، قال: يا أحمد! فقلنا: لبيك يا معلم. قال: قُلْ لها -لأم هارون- تريد الموت؟ فقالت: لا، والله لو عاديت آدميا لكرهت لقاه، فكيف أريد لقاء الله عز وجل وأنا عاصية له؟ فصاح أبو سليمان ووقع عن حماره"[2]. وقد كَثُر من يأتي إلى مجلسها من المتعلمين والعلماء ففي ذلك تقول: "لقد طلبت العبادة في كل شيء فما أصبت لنفسي شيئًا أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم، وكانت تقول: "أفضل العلم المعرفة"[3]. وقد ترجم ابن عساكر ترجمة لثلاث نسوة متعبدات غيرها، بدمشق وبجبل لبنان[4].

ثانيًا: المرأة الراوية:

كانت أم الدرداء الصغرى محدثة فقيهة زاهدة راوية للحديث، ولها مجلس يتحلق حوله القراء تعلم فيه القرآن، فعن عون بن عبدالله قال: "كنا نأتي أم الدرداء فنذكر الله عندها، فاتكأت ذات يوم، فقيل لها: لعلنا أن نكون قد أمللناك يا أم الدرداء، فجلست، فقالت: أزعمتم أنكم قد أمللتموني، وقد طلبت العبادة بكل شيء، فما وجدت شيئا أشفى لصدري ولا أحرى أن أدرك به ما أريد من مجالسة أهل الذكر"[5].

ومن أشهر النساء القارئات خيرة أم الحسن البصري[6]، ورابعة العدوية (٩٥ – ١٨٥هـ / ٧١٣ – ٨٠١م)[7] فهي من النساء المتعبدات الزاهدات، وذات فصاحة وبلاغة، ومن أقوالها: "إني

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٩ / ص٤٣٢.

(٢) ابن عساكر، ج١٠ / ص٤١٦.

(٣) المزي، جمال الدين يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، بيروت ط١، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م، ج٨ / ص٥٩٣.

(٤) ابن عساكر، ج١٩ / ص٤٣٧.

(٥) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١٢ / ص٤٤٥.

(٦) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج ١٢ / ص٤٤٥..

(٧) رابعة بنت إسماعيل بن الحسن، ولدت حوالي سنة ٩٠ أو ٩٥هـ، واختلف في سنة وفاتها، فقيل سنة ١٣٥هـ، ١٨٠هـ، ١٨٥هـ. وللمزيد انظر: =

لأرى الدنيا بترابيعها في قلوبكم إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء في قلوبكم فتكلمتم فيه"[١]، وهي من أشهر متعبدات عصرها[٢]، ومن أقوالها: "اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم".

ومنهن أليصا بنتُ المفضل[٣]، وأم هارون الخراسانية[٤]، وزجلة العابدة وكثيرة الصيام والصلاة والبكاء[٥]، وحمادة الصوفية[٦]، وزينب بنت أبي سلمة المخزومية رضي الله عنها، وهي من أفقه النساء في عصرها[٧]، وكانت من رواة الحديث، روت عن أم سلمة، وأم حبيبة، وروى عنها من الرجال أبو عبيدة بن عبدالله بن زمعة، ومحمد بن عطاء، وعراك بن مالك وغيرهم[٨]. ومن شهيرات الراويات عائشة بنت سعد بن أبي وقاص (٣٣ - ١١٧هـ / ٦٥٣ - ٧٣٥م)[٩]، وعائشة بنت طلحة التي كانت ذات فضل وأدب[١٠]، روت الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وروى عنها طلحة بن عبدالله، وطلحة بن يحيى، ومعاوية ابن إسحاق[١١]. قال يحيى بن معين: "الثقات من النساء عائشة بنت طلحة ثقة حجة"[١٢].

ومن الراويات عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية، وهي عالمة، محدثة، فقيهة، حفظت من أمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة رضوان الله عليهما الكثير، وروي عن عمر بن عبد العزيز قوله: "ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة من عمرة"[١٣].

=مرغريت سميث Margaret Smith، (مادة رابعة العدوية)، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير: م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، الأجزاء (أ) إلى (ع): إعداد وتحرير / إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، الأجزاء من (ع) إلى (ي): ترجمة / نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية، المراجعة والإشراف العلمي: أ. د. حسن حبشي، أ. د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، أ. د. محمد عناني، الناشر: مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ج١٦ / ص٥٠٤١ - ٥٠٤٥. الزركلي، الأعلام، ج٣ / ص١٠.

(١) كحالة، أعلام النساء، ج١ / ص٤٢١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ١٩٤٨م، ج٢ / ص٤٨.

(٣) كحالة، أعلام النساء، ج١ / ص٧٤.

(٤) السابق، ج٥ / ص٢٠١.

(٥) السابق، ج٢ / ص٣١.

(٦) السابق، ج١ / ص٢٩٢.

(٧) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤ / ص٣١٧، تهذيب التهذيب، ج١٢ / ص٤٥٠.

(٨) ابن حجر، الإصابة، ج٤ / ص٣١٧.

(٩) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦ / ص٦٠٦ - ٦٠٧. الزركلي، الأعلام، ج٣ / ص٢٤٠.

(١٠) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١٢ / ص٤٦٤.

(١١) ابن سعد، الطبقات، ج٨ / ص٤٨٠.

(١٢) المعافري، أبو الحسن علي بن محمد، الحدائق الغناء في أخبار النساء، تحقيق عائدة الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٧٨م، ص٥٨.

(١٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١٢ / ص٤٦٦.

وكما برز من المحدثات: فاطمة الجلية، وخديجة الدمشقية، وعائشة المقدسية، وفاطمة بنت سليمان بن عبد الكريم الأنصارية[١]. ومن راويات الحديث اللواتي سكنّ بيت المقدس خصيلة (فسيلة) بنت واثلة بن الأسقع، وقد قالت: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنّ من الكبائر أن تقول للرجل علي ما لم أقل". وعنها أنها قالت: دعاني أبي واثلة يوما فقال: يا خصيلة أدني مني، فدنوت منه فقال: أدني مني يدك اليمنى، فثنى إصبعي الخنصر ثم قال لي: عليك بالصبر، ثم ثنى التي تليها، ثم قال: عليك بالصبر، حتى ثنى الخمس ثم قال: ادني مني يدك الأخرى ففعل مثل ذلك ثم جمع يديّ جميعًا وقال: يا خصيلة فعلت بك كما فعل بي النبي صلى الله عليه وسلم، وقلت لك كما قال لي النبي صلى الله عليه وسلم[٢].

ونسب إلى فسيلة بنت واثلة بن الأسقع أنها روت أحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم، فحدثت فسيلة أنها سمعت أباها يقول: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: "لا ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم"[٣]. وحدّثت أسماء بنت واثلة الأسقع الليثية عن أبيها، وروى عنها محمد بن عبد الرحمن المقدسي[٤]. ومن الراويات التابعيات رواحة بنت أبي عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي البيروتية، روت عن أبيها بسنده عن أبي أمامه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل: "قل: اللهم إني أسألك نفسا بك مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك"[٥].

وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله[٦]، سيدة أديبة ذات قدر وجلال، وفدت على عبد الملك بن مروان وعلى ابنه هشام وأحسنوا وفادها. وهي حجة ثقة[٧]. قال الذهبي: "لم يكن من النساء أعلم من تلميذات عائشة أم المؤمنين، عمرة بنت عبد الرحمن، وحفصة بنت سيرين، وعائشة بنت طلحة"[٨]، روت عن خالتها عائشة أم المؤمنين، وروى عنها حبيب بن أبي عمرة وطلحة بن يحيى بن طلحة وسواهم[٩].

(١) سنقر، صالحة، "المجالات الثقافية للمرأة العَربية في بلاد الشام في العصرين الأموي وَالعبّاسي"، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٣٠، السنة الثامنة، كانون الثاني "يناير" ١٩٨٨م، ص١٧.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس وآخرون، ٢٩جزءا، دار الفكر، دمشق ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ج٨ / ص:١٠٢.

(٣) ابن منظور، مختصر، ج٢٠ / ص٣٦٧.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٩ / ص:٣٠.

(٥) ابن منظور، مختصر، ج٨ / ص٣٦٨.

(٦) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ابن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. أم عمران التيمية وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، انظر: ابن منظور، ج٢٠ / ص١٧٠. للمزيد انظر:
pellat, Ch: The Encyclopaedia Of Islam .Is I. Art " Ā'isha Bint Talha", A – B. Leiden, E. J. Brill, 1986, P. 308.

(٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٩ / ص٢٥١.

(٨) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١ / ص١١٤.

(٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٩ / ص٢٥١.

ومن محدثات الشام الصحابية أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع الأنصارية (توفيت سنة ٣٠هـ / ٦٥٠م)[١]، والمكناة بأم عامر أو بأم سلمة[٢]، كانت خطيبة شجاعة، بايعت الرسول صلى الله عليه وسلم، وروت بعض الأحاديث[٣]، وروى عنها إسحاق بن راشد وشهر بن حوشب وعبدالله بن عبدالرحمن بن ثابت بن الصامت، ومجاهد، ومحمود بن عمرو الأنصاري، ومولاها مهاجر بن أبي مسلم، وأبو سفيان مولى بن أبي أحمد، وتوفيت بمقبرة الباب الصغير بدمشق[٤].

ومن الموالي الراويات زجلة مولاة عاتكة بنت عبدالله بن معاوية، فقد روت عن أم الدرداء وكويسة[٥]، ومن الرجال روت عن عبدالله بن أبي زكريا، وسالم بن عبدالله، وعمر بن عبدالله، وروى عنها صدقة بن خالد، وكليب بن عيسى بن أبي حجير الثقفي[٦]، وقد ذكرت في المصادر بأنها ممن حدثن بالشام[٧].

أما فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (٤٠ - ١١٠هـ / ٦٦٠ - ٧٢٨م) فقد روت عن جدتها فاطمة وعن أبيها الحسين، وعن عمتها زينب بنت علي، عن أخيها الحسين وعبدالله بن عباس وأسماء بنت عميس وبلال الحبشي رضي الله عنه[٨]، وروى عنها كثيرون رجالا ونساء ومنهن عائشة بنت طلحة، وأم أبي المقدام هشام بن زياد، وأم الحسن بنت جعفر بن الحسن بن الحسين، وروى لها أبو داوود والترمذي وابن ماجة[٩].

ومن أهل الشام الثقاة كريمة بنت الحسحاس المزنية، روت عن أبي هريرة وروى لها البخاري، وروى عنها إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر[١٠]. وروت ميسون بنت بحدل (توفيت حوالي ٨٠هـ / ٧٠٠م) عن زوجها معاوية[١١]، وروى عنها محمد بن علي[١٢].

---

(١) السابق، ج٦٩ / ص٣٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٨ / ص٢١ - ٢٢، ٢٨٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٨ / ص ٣١٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق،ج٦٩ / ص٣٢، ٣٤.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق،ج٦٩ / ص٣٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ / ص٣٤٤. الزركلي، الأعلام، ج١ / ص٣٠٦.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٠ / ص ٢٢٨، ج ٦٩ / ص١٦٣.

(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٩ / ص٢٥١ .

(٧) السابق، ج٦٩ / ص:١٦٣ - ١٦٤.

(٨) ابن سعد، الطبقات، ج٨ / ص٤٦٧.

(٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٧ / ص٧٠. الزركلي، الأعلام، ج٥ / ص١٣٠.

(١٠) ابن السابق، ج٦٧ / ص٢٩٧ .

(١١) هندس Hends، (مادة معاوية بن أبي سفيان)، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج٣٠ / ص٩٣٨١.

(١٢) السابق، ج٧٠ / ص١٣٠ - ١٣٤.

ثالثًا: الزهد والتصوف:

الزهد ضد الرغبة[١]، وهو العزوف عن الدنيا طلبا للآخرة، (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى)[٢]. نشأ الزهد في بلاد الشام نتيجة التحولات الاجتماعية والاقتصادية، والإثراء والميل إلى الدعة والترف واللهو، والإقبال على متع الدنيا، فبعث ذلك إلى نشوء تيار مقابل يعرض عن الدنيا ويذهب إلى التنسك والثورة على واقع المجتمع، فنبذ أصحابه الدنيا وغاياتها، وانقطعوا للعبادة واعتزلوا الناس، وأكثروا من الذّكر استحضارًا للوجد ونيل الثواب، وعظمّوا الشعور بالخطيئة والذنب، واجتهدوا في التكفير عنه، وخصوصًا بعد فتن الإسلام الكبرى في النصف الثاني من الفترة الراشدة، زمن الخليفتين عثمان وعليّ رضوان الله عنهما.

جاء العامل الديني القائم على نبذ الرذائل والمثالية الروحية بما يحقق السعادة في الدنيا والآخرة، أول عوامل ظهور الزاهدين والنساك، وقد اشتدت حركة الزهد كتيار مضاد لمظاهر اللهو والمجون كما أشرنا.

وشكّل استشهاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه منعطفًا خطيرًا في الدولة الإسلامية، حيث طالب الأمويون بدمه، فظهرت إزاء ذلك فرقتا الخوارج والشيعة[٣]، فتحولت فئة من المجتمع إلى نبذ هذا الصراع واعتزاله، والزهد بالدنيا ومتاعها[٤]. ولعب العامل الاجتماعي دورًا مهما في ظهور الزهد، فقد اختلط المجتمع العربي الأموي بأجناس مختلفة أسهمت في الانفتاح المجتمعي وبروز مظاهر اللهو والترف وملذات الدنيا ومتعها، فترك كثيرون شأن المجتمع وانقطعوا للدين والعبادة، ومن أشهر هؤلاء الحسن البصري أشهر العباد والوعاظ في هذا العصر[٥]. ولم تكن المرأة المسلمة الشامية بمنأى عن التأثرات بهذه العوامل، فدخلت دائرة الزهد، فعرف في العصر الأموي من المتصوفات المتعبدات حولا بنت بهلول[٦]، وعبدة بنت أحمد بن عطية العنسية[٧]، وفاطمة ست العجم بنت سهل بن بشر بن أحمد الإسفراييني التي كانت تعظ النساء في بعض المساجد وفي الأعزية، فعرفت باسم العالمة الصغيرة[٨].

ومن الراويات الزاهدات فاطمة بنت عبد العزيز أبي الحسن القاضي ابن عبد الرحمن بن

---

(١) الرازي، أبو بكر، الصحاح، الكويت، مطبعة الرسالة، ١٩٧١م، ص٢٧٦.

(٢) سورة النساء، الآية ٧٧.

(٣) يوليوس فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ترجمة عبدالرحم بدوي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٥٨م، ص٤٣.

(٤) هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص١٧٥.

(٥) بهجت، مجاهد مصطفى، التيار الإسلامي في الشعر العباسي الأول، ص١٢.

(٦) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٧ / ص٣٢٠.

(٧) السابق، ج٢٠ / ص١٧٧.

(٨) السابق، ج٢٠ / ص٣٥٨.

أحمد بن إبراهيم القزويني، وكنيتها أم العز، روت عن أبي الحسين أحمد بن علي الجوهري الموصلي عن أنس بن مالك قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ بالباب فقال: "يا معاذ قال: لبيك يا رسول الله، قال: "من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة". فقال معاذ: يا رسول الله! ألا أخبر الناس؟ قال: لا، دعهم فلينافسوا في الأعمال، فإني أخاف أن يتكلوا عليها"[١]. ومن الصالحات فاطمة بنت مجلي[٢]. ورابعة بنت إسماعيل، قرضت الشعر، وكانت تشبه في أهل الشام برابعة العدوية في أهل البصرة[٣].

رابعًا: المرأة والأدب:

١ - قرض الشعر:

تنوعت مواضيع شعر المرأة في بلاد الشام خلال العصر الأموي، فقالت شعر المديح، والفخر، والهجاء، والحماسة، والرثاء، وهو أكثر أشعارها. وقالت شعرًا سياسيًا انتصرت فيه إلى مذهبها وفرقتها، وانحازت فيه إلى إحدى فرقتي الفتنة الكبرى. ولم تتحرج من قرض شعر الغزل، وهو شعرٌ عذريّ بكثرته الكاثرة.

فكانت ليلى بنت عبدالله بن كعب الأخيلية (توفيت نحو ٨٠هـ / ٧٠٠م) من النساء المتقدمات في الشعر، وفدت على عبدالملك بن مروان، ولها شعر في مدح الحجاج، وفي هجاء النابغة الجعدي[٤]. ومن الشواعر بكرة الهلالية[٥]، امرأة فصيحة وفدت على معاوية عجوزًا، فقال لها معاوية: "غيرك الدهر، قالت: كذلك هو ذو غير، من عاش كبر، ومن مات قبر"، ولها شعر تدعو فيه النصر على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٦].

وورد من شعر جعدة بنت الأشعث ما قالته في رثاء الحسن بن علي زوجها[٧]. وكانت حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري (توفيت نحو ٨٥هـ / ٧٠٤م)، شاعرة سليطة اللسان[٨]. ومن

---

(١) السابق نفسه.

(٢) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٠ / ص٢٨٥

(٣) السابق، ج٨ / ص٣٤٧.

(4) Gabrieli, F: Art "Layla Al- Akhyliyya",P. 710.

(٥) الضبي، العباس بن بكار، أخبار النساء الوفدات على معاوية، تحقيق سهيلة الشهابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٦٤م، ص٧١ - ٧٢.

(٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢ / ص٣٨٠.

(٧) أبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن شاهنشاه أيوب، المختصر في أخبار البشر، علق عليه محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص٩٦.

(٨) الزركلي، الأعلام، ج٢ / ص٢٨٤.

الشاعرات أيضا الجرباء بنت عقيل[١]، ووهب ابنة النعمان بن بشر الشاعر، وأمها ليلي بنت هانيء بن الأسود الجونية شاعرة[٢]، لها شعر في هجاء روح بن زنباع، وفي الفيض بن محمد بن الحكم، وفي الحجاج[٣].

وكان للدحداحة[٤] شعر في هجاء الفرزدق، وكان للرباب بنت امرئ القيس (توفيت سنة ٦٢هـ / ٦٨١م) شعر في رثاء زوجها الحسين بن علي[٥]. وذكر ابن خلكان شعرا لزينب الطَّثريَّة (توفيت نحو ١٣٥هـ / ٧٥٢م) أخت يزيد بن الطثرية في المديح، ولها شعر في الرثاء، وصِف بأنه من أجمل ما قيل في الرجل[٦]. ومن الشاعرات اللواتي وفدن على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وحاورنه سودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانية اليمانية، لها شعر في معركة صفين تنتصر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وترثيه بعد مقتله، وشعر تحرض فيه على معاوية رضي الله عنه[٧]. وقالت عميرة بنت حسان الكلبية شعرًا في الفخر[٨]. ومن الشاعرات الأمويات الملاءة بنت زرارة بن أوفى الجرشية، زوجة الفرات، لها شعر في الوصال والقطع[٩]. وقالت ميسون بنت بحدل الكلبية زوجة معاوية رضي الله عنه شعرًا تفضل فيه عيشة بيت الشعر على القصر تحن فيه إلى بيئتها البدوية[١٠].

وكانت بثينة بنت حبا بن ثعلبة العذرية (توفيت سنة ٨٢هـ / ٧٠١م)[١١] صاحبة جميل بن معمر شاعرة مُقلّة، ورغم قِلّة شعرها ذاع صيتها بما شَغَفَت به قلب جميل، فألهمته ما قال فيها من شعر. وفدت بثينة إلى عبد الملك بن مروان، ودخلت مجلسه، وقد حدث محمد بن يزيد المبرد من طرائف ما جرى بينها وبين عبد الملك، فقال: "دخلت بثينة على عبد الملك، فأحد النظر إليها ثم قال: يا بثينة ما رأى فيك جميل حين قال ما قال؟ قالت: ما رأى الناس فيك حين ولوك الخلافة يا أمير المؤمنين؟ قال: فضحك عبد الملك حتى بدت سن له كان يخفيها، فما ترك لها من حاجة

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢ / ص ٥٨ – ٥٩.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٩ / ص٩٨ – ١٠١.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٦ / ص١٢٣.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٢١ / ص٣٦٨ – ٣٦٩.

(٥) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٨ / ص٣٥٠ – ٣٥١. الزركلي، الأعلام، ج٣ / ص١٣.

(٦) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج٦ / ص٣٧٤ – ٣٧٥. الزركلي، الأعلام، ج٣ / ص٦٦.

(٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٩ / ص٢٢٤ – ٢٢٦.

(٨) الأصفهاني، الأغاني، ج١٩ / ص٢٠٦ – ٢٠٧.

(٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٦ / ص١٠٥ – ١٠٧.

(١٠) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ج٥ / ص٣٢٩.

(١١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٥ / ص٢٧٥.

ألاّ قضاها"[1]. ولبثينة مع عبد الملك قصص مماثلة، يُمازحها فيها فتحسن الرد والمحاججة فيعجب عبد الملك بفصاحتها وحسن التخلص عنها ويبرها ويقضي حوائجها[2]. ومما روي لها قولها:

تواعـدني قومـي بقتلـي وقتلـه فقلت اقتلوني وأخرجوه من الذنب

ولا تتبعـوه بعـد قتلـي أذيـة كفـى بالـذي يلقـاه من شـدة الحب

ولما مات جميل بن معمر رثته بثينة بهذين البيتين:

وإن سلوِي عن جميل لساعة من الدهر ما حانت ولا حان حينها

سواء علينا يا جميل بن معمر إذا مـت بأساء الحيـاة ولينها[3]

وكان لعزة بنت حميل (توفيت سنة ٨٥ه / ٧٠٤م)[4] صاحبة كثير حضورها في عالم الشعر؛ راوية، وناقدة، وملهمة لكثير، وكانت ممن يَردن مجالس الشعر، ذات حجة وبلاغة وفصاحة، نالت إعجاب عبد الملك بن مروان بما تمتلكه من بيان. وصفتها أم البنين ابنة عياض بن الحسن الأسلمية فقالت: امرأة حميراء حلوة لطيفة .. هي من أبرع الخلق، وأحلاه حديثًا ! .. وما نرى أن امرأة تفوقها حسنًا وجمالًا وحلاوة. ولكن لم يرد أنها روت الشعر قط[5].

ومن شاعرات العصر الأموي جرباء بنت عقيل[6] قرضت الشعر وأجازته. ومما قالت:

كأن الكرى يسقيهم صرخدية عقارًا تمشت في القرى والتوائم[7]

ومنهن ذوات الشعر الجريء الساخر، حميدة بنت النعمان بن بشير أم محمد الأنصارية، سكنت دمشق[8]. ومن شعرها تبكي أباها[9]:

ليـت ابن مزنـة وابنه كانـا لحتفـك واقيـه

وبنـو أميـة كلهـم لم تبـق منهـم باقيـة

جـاء البريـد برأسـه يـا للحلـوم الغاويـة

---

(١) السابق، ج٥ / ص٢٧٥ - ٢٧٦.

(٢) السابق، ج٥ / ص٢٧٦ - ٢٧٧.

(٣) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٥ / ص٢٧٨. وانظر، الزركلي، الأعلام، ج٢ / ص٤٣.

(٤) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٠ / ص١٨٦. الزركلي، الأعلام، ج٤ / ص٢٢٩.

(٥) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٠ / ص١٨٦ - ١٨٩.

(٦) السابق، ج٦ / ص١٣٥.

(٧) السابق، ج٦ / ص١٣٥.

(٨) السابق، ج٧ / ص٣٠٨.

(٩) السابق، ج٧ / ص٣٠٨.

يستفتحـون بقتلـه دارت عليهـم ثانيـة
فلأبكـين مـرة ولأبكـين علانيـة
ولأبكينـك مـا حييـ ـت مع الكلاب العاوية

ومن النساء الشاعرات ريّا حاضنة يزيد بن معاوية، فهي من أجمل النساء وأعقلهن وأجودهن، كان بنو أمية يكرمونها، وإذا جاءت إلى الخليفة هشام بن عبد الملك تجيء راكبة لعلو مكانتها في البلاط الأموي[١].

وقالت عفراء بنت عقال بن مهاصر العذرية شعر الرثاء، فقد قدمت الشام ونزلت البلقاء وكانت بنواحي بصرى. فقالت في رثاء عروة بن حزام[٢]:

ألا أيها الركب المجنون ويحكم أحـقـا نعيتم عـروة بـن حـزام؟
فإن كان حقا ما تقولون فاعلموا بـأن قـد نعيتم بـدر كـل ظـلام
نعيتم فتى يسقى الغمام بوجهه إذا هـي أمست غـير ذات غمام
فـلا نفع الفتيان بـعـدك لذة ولا مـا لـقـوا مـن صحة وسلام
ولا لبس الطيقان بعدك لابس ولا جممت بعد الحبيب جمام
وقـل للحبالى لا يرجين غائبا ولا فـرحـات بـعـده بـغـلام

وكانت عمرة بنت النعمان بن بشير بن الأسعد الأنصارية امرأة شاعرة من دمشق، وهي زوجة المختار الثقفي، ماتت مقتولة بين الحيرة والكوفة، سنة ٦٧ه / ٦٨٧م[٣].

وبرَّزَت النساء الأمويات في قول الشعر وروايته ونقده، وجعلن له مجالس أدب وشعر ونقد، ومن هؤلاء الشاعرات اللواتي لا يتسع المقام للتوسع في الترجمة لهن: أم خالد القسري[٤]، أم عقبة بنت عمر اليشكرية[٥]، حميدة بنت النعمان الأنصارية[٦]، زينب الطثرية[٧]، سارة بنت معاذ بن عفراء[٨].

(١) السابق، ج٨ / ص٣٦٨.
(٢) السابق، ج٢٠ / ص١٩١.
(٣) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٢٠ / ص١٩٥. الزركلي، الأعلام، ج٥ / ص٧٢.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥ / ص١٧٦.
(٥) القالي، الأمالي، ج٣ / ص٢٠٠ - ٢٠١.
(٦) ابن عساكر، تراجم النساء، ص٢٥٩.
(٧) البحتري، الحماسة، ص٢٧٥. جورج غريب، شاعرات العرب في الإسلام، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٧٠.
(٨) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص١٨١.

ومنهن عائشة بنت طلحة[١]، وعمرة بنت الحمارس[٢]، وفاطمة بنت الحسين بن علي[٣]، وميسون بنت بحدل الكلبية[٤]، وابنة بهدل بن قرفة، وقد رثت أباها بشعر مؤثر[٥]، وهي من شواعر العصر الأموي. قُتِل أباها على يد عثمان بن حيان أمير المدينة زمن عبد الملك بن مروان[٦]. وقد رثت سكينة بنت الحسين (توفيت سنة ١١٧ه / ٧٣٥م) أباها في شعر حزين مؤثر[٧]، واسمها آمنة تيمنا باسم أم الرسول صلى الله عليه وسلم، وسكينة لقبها[٨]. ومنهن حميدة بنت زياد بن مقاتل[٩]، ومليكة الشيبانية، "أكثرت من قول الرثاء، ولعل تلك لكثرة مشاركتها في ميادين القتال .. وقد أصيبت في معركة من المعارك بفقد عمها .. ثم إن العاطفة التي رثت بها الشاعرة هي نفس العاطفة في رثاء الآباء"[١٠]، خارجية لها شعر في معارك بني شيبان[١١]. ومن الشاعرات حميدة بنت عمر بن سعد بن أبي وقاص[١٢]، وقد قتل أبوها وأخوها على يد المختار بن أبي عبيد الثقفي[١٣]. ومنهن الحارثية بنت عبد المدان زوجة عبيدالله بن العباس بن عبد المطلب[١٤]، وأسماء بنت أبي بكر الصديق (توفيت سنة ٧٣ه / ٦٩٢م)[١٥]، وأم الكميت بن معروف وهي سعدة بنت مزيد بن خيثمة[١٦]، وفي رثاء الأزواج عرفت في العصر الأموي صفية بنت هشام المنقرية زوجة الأحنف بن قيس، وزوجة حنظلة بن الربيع، وجعدة بنت الأشعث، وعاتكة بنت زيد (توفيت نحو سنة ٤٠ه / ٦٦٠م)، والرباب بنت امرئ القيس[١٧]. واشتهر منهن في رثاء الإخوان زوجة الوليد بن عبد الملك، وميسون أخت المقصص

(١) القيرواني، أبو اسحق بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٢م، ج١ / ص٣٠١.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص١٩٠.

(٣) المعافري، الحدائق، ص١٣٦.

(٤) الخالديين، الأشباه، ج٢ / ص٢٣٧.

(٥) نعيمة محمد عبداللطيف بنون، فن الرثاء عند المرأة في الشعر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠٩ه / ١٩٨٩م، ص١٦.

(٦) ابن طيفور، بلاغات النساء،ص١٨٩ – ١٩٠.

(٧) بنون، فن الرثاء عند المرأة في الشعر الأموي، ص٢٢.

(٨) هنري ماسيه H.Masse، (مادة سكينة بنت الحسين)، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج١٨ / ص٥٧٠٢ – ٥٧٠٥.

(٩) السابق، ص٢٨.

(١٠) السابق، ص٣٣.

(١١) المرزباني، أشعار النساء، ص١٩٨ – ١٩٩.

(١٢) بنون، فن الرثاء عند المرأة في الشعر الأموي، ص٤٠.

(١٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٦ / ص٦١.

(١٤) المبرد، الكامل، ج٢ / ص٣٢٠.

(١٥) كحالة، أعلام النساء، ج١ / ص٤٧ – ٥٣.

(١٦) الزركلي، الأعلام، ج٦ / ص٩٣.

(١٧) بنون، فن الرثاء عند المرأة في الشعر الأموي، ص٦٥ – ٨٦.

الباهلية، وزينب بنت الطثرية[1].

ولقد كثر شعر الرثاء عند المرأة في العصر الأموي، فهو أقرب إلى عاطفتها الصادقة ومشاعرها الجياشة تجاه الموت والفقد، وقد وثّق شعر الرثاء للمواقف والأيام والأحداث في عصر الدولة الأموية، وتعيد بنا ظاهرة المقطعات الشعرية لدى شاعرات العصر الأموي فيما تعيده إلى تقصير الرواة، وقد تميز هذا الشعر بوحدة المعنى والموضوع، ووضوح الصورة الشعرية وبساطتها، ورقة المعاني وسهولة الأسلوب، والميل إلى الإيجاز وتداول المعنى الواحد، وندرة الحكمة والبعد عن التأمل العميق، والخلو من الصنعة، والبعد عن المبالغة والتهويل وغير ذلك[2].

وعلاوة على تنوع موضوعات شعر المرأة التي ذكرناها أعلاه في هذا العصر، ومن النسيب والفخر والمديح والهجاء والرثاء، والحماسة، قالت شعرًا في التحريض على الثأر، وقد تقبل الناس المرأة الشاعره، فتقبلها الأب أو الأخ أو الحبيب، وجالست الشعراء، والأدباء والخلفاء والحكام، فلم ينكر المجتمع الأموي عليها ذلك، وقد عكس شعرها وحضورها مساحة الحرية التي منحت للمرأة في العصر الأموي، فقالت شعرًا في الجمال والمجون، ولم تتحرج من ذكر صاحبها وشوقها له ولدياره، أو من تشبيبه بها. وقد هجت المرأة هجاءً مرًا لكل من الزوج والخليفة والأمير والشاعر، والأقوام والقبائل، وهي لا تقل عن الرجل حضورا من حيث قوة الشخصية إذا هجت، ومقابل ذلك فقد مدحت وتكسبت ونالت العطايا على مديحها.

٢- النثر:

برز من النساء في ميدان النثر خلال العصر الأموي من تميزت ببلاغتها النثرية، وفصاحة لسانها، وقوة حجاجها وجرأتها، ومن الأسماء التي وثقّت لها مصادر التراث آمنة بنت الشريد (توفيت سنة ٥٥٠ / ٦٧٠م)[3]، وأمّ البنين بنت عبدالعزيز بن مروان[4]، وأمّ عثمان من ولد المعارك بن عثمان[5]، وأمّ علقمة الخارجية[6]، وجروة بنت مرة التميمية[7]، والجمانة بنت المهاجر[8]،

(١) السابق، ص٨٨ - ١٠٨.

(٢) السابق، ص١٧٠ - ٢٣٢.

(٣) الضبي، أخبار النساء الوفدات على معاوية، ص٥٢ - ٥٣.

(٤) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبعة مصر، ١٩٦٤م، ج٤ / ص٧٨.

(٥) القالي، الأمالي، ج٣ / ص١٩٧ - ١٩٨.

(٦) كحالة، أعلام النساء، ج٣ / ص٣٢٨.

(٧) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص٧٧.

(٨) الآبي، أبو سعيد منصور، نثر الدر في المحاضرات، ٦ أجزاء، تحقيق محمد علي قرفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ج٤ / ص٨٤.

وسكينة بنت الحسين[١]، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة[٢]، وهند بنت النعمان بن المنذر ابن امرئ القيس اللخمية (توفيت نحو سنة ٧٤ه / ٦٩٣م)[٣]، وأسماء بنت يزيد بن السكن، وكانت تلقب بخطيبة النساء[٤].

لقد حضر النثر في أدب المرأة على شكل مقطوعات أبرزت فيها فصاحة وبلاغة عاليتين، ولكن ما كتبته من نثر لا يشكل فنًا سرديًا ذا نفس طويل. وقد جاء نثرها نثر مناسبات مثل مواقف المحاججة والطّلب. وقد عكس ما تمَّ وصوله إلينا من نثر المرأة في بلاد الشام خلال هذا العصر بحسن الخطاب وبلاغة التعبير وجزالة الألفاظ، ووشى ببيئة أدبية نثرية غنية، وهي بيئة لم يصل إلينا منها الكثير، إما تقصيرًا من مؤلفي المصنفات في ذلك العصر، أو أنّ نثر المرأة قام على المشافهة دون الالتفات إلى تدوينه ونشره.

٣- المرأة الناقدة:

من ناقدات الشعر في عصر بني أمية قطام المشهورة بمقولتها "تسمع بالمعيدي خير من أن تراه" مخاطبة كثير عزة[٥]، ومنهن غاضرة جارية بشار بن مروان[٦]. ومنهن عائشة بنت طلحة بن عبيد الله[٧]، والنوار[٨]، والشاعرة الناقدة ليلى الأخيلية التي كان يحتكم إليها الشعراء[٩]، وامرأة عمران الحرورية[١٠]، وسعدى بنت عبد الرحمن بن عوف[١١]، والثريا[١٢]، وكلثوم المخزومية[١٣]، وعزة بنت حميل[١٤].

---

(١) ابن الجوزي، أبو الفرج بن عبدالرحمن بن علي بن محمد، أحكام النساء، تحقيق علي بن محمد المحمدي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت،١٩٨١م، ص٤٤٤ – ٤٤٥.

(٢) كحالة، أعلام النساء، ج٥ / ص٢٥٥ – ٢٥٦.

(٣) السيوطي، تحفة المجالس ونزهة المجالس، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٨م، ص٢٨٩ – ٢٩٠. الزركلي، الأعلام، ج٨ / ص٩٨ – ٩٩.

(٤) ناتي، "المؤدبون والمعلمون في الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، ص٩٤.

(٥) المرزباني، الموشح، ص٢٤٢ – ٢٤٣.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، ج١١ / ص٢٨.

(٧) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٣، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م، ج١ / ص٥٠٩.

(٨) المرزباني، الموشح، ص١٦٩.

(٩) الجمحي، محد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ج٢ / ص٧٧٠.

(١٠) عباس، إحسان، شعر الخوارج، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م، ص٢١.

(١١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٧ / ص١٦٠.

(١٢) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ١٩٨٦م، ج١ / ص٩٨.

(١٣) السابق، ج١٨ / ص٤٠.

(١٤) كحالة، أعلام النساء، ج١ / ص٤١٩.

لم يُشكِّل نقد المرأة ظاهرة أدبية في عصور الإسلام خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، فقد جاء انطباعيًا ذوقيًا، وليس فنًا يتبع أصول المنهج النقدي، وهذا هو السبب في عدم تسجيل مصادر التراث علم النقد عِلمًا من العلوم التي برعت فيها المرأة الأموية في بلاد الشام. أما مَنْ ذُكر منهن في معرض النقد فلا يعدو تسجيل نقدهن لأشعار أو لنثر المجالس والمنتديات الأدبية التي شاعت في ذلك العصر.

خامسًا: المرأة طبيبة:

اهتم المسلمون بالطب، وحثّ الرسول صلى الله عليه وسلم على تعلُّمه، واستقطب الأمويون في بلاد الشام علماءَ الدولة البيزنطية واستجلبوهم، وأغدقوا عليهم من أجل ترجمة علوم اليونان المختلفة في حقول الفلسفة والموسيقى والرياضيات والكيمياء والفلك والطب[١]. وكان للأطباء طبقات يعرفون بها، وصُنِّفت فيهم التصانيف، مثل كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة[٢].

فقد داوت المرأة المرضى والجرحى في المساجد[٣] والبيمارستانات وساحات الحرب. وممن أشتهر من الطبيبات زينب من بني أود من قبيبلة كهلان القحطانية، ولعلها من باهلة العدنانية، ذكرها ابن أبي أصيبعة[٤]، اشتهرت في معالجة أمراض العيون والجراحة[٥]. وقال أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني: "أتيت امرأة من بني أود، كحلت شخصًا قد أصابه من رمد، فكحلته ثم قالت: اضطجع قليلًا حتى يدور الدواء في عينيك، فاضجع الشخص المصاب"[٦]. ومن النساء اللواتي ذكرن في هذا الحقل العلمي خرقاء العامرية التي اشتهرت بطب العيون، فقد عالجت عيون الشاعر ذي الرمة[٧]. وعرفت في مجالي الطب والكيمياء سارة الحلبية[٨]، وفي علم النجوم والفلك عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية[٩].

ونأخذ على مصادر التراث الإقلال من إبراز دور المرأة في العلوم العقلية خلال هذا العصر،

(١) إبراهيم، فاضل خليل، خالد بن يزيد، سيرته واهتماماته العلمية :دراسة في العلوم عند العرب"، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤م، ص١٨٧.

(٢) انظر قائمة المصادر والمراجع.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الخيمة في المسجد للمرضى وغيرهم، رقم الحديث ٤٦٠.

(٤) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، دار الثقافة، ط٤، ١٤٠٧ه / ١٩٨٧م، ج١ / ص٣٥.

(٥) السامرائي، كامل، مختصر تاريخ الطب العربي، جزءان، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، (د ت)، ج١ / ص٢٦٧.

(٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج١ / ص٣٥.

(٧) الديوه جي، سعيد، الموجز في الطب الإسلامي، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط ١، ١٤٠٩ه / ١٩٨٩م، ص٣.

(٨) كحالة، أعلام النساء، ج٤ / ص١٨٤.

(٩) السابق، ج٥ / ص٢٥٠.

فلم تفرد لها هذه المصادر ما يفيها حقّها مقارنة بحقول الثقافة الأخرى، ولعل السبب هو عزوف المرأة عن هذا الجانب، الذي يتطلب الانقطاع عن الحياة الأسرية، ولما يتطلبه من المكوث في المختبرات والبيمارستانات.

سادسًا: المرأة سيِّدة مجتمع:

كانت المرأة في العصر الأموي تُعرَّف باسمها لأبيها أو لأمها أو بلقبها أو بقبيلتها أو بزوجها أو بابنها أو بصفتها[1]، وهي لا تتفرد بهذا، فقد درجت مصادر التراث بتعريفهن على هذا النحو. "وما إن استقرّ العصر الأموي حتى شرعت المرأة تفيد من حقوقها وامتيازاتها التي كفلها لها الدين، فمضت تشارك في مختلف مجالات الحياة ولاسيما تلك المجالات التي تمسّ شؤونها الذاتية والخاصة"[2].

حظيت نساء المجتمع الأموي في بلاد الشام بمساحة عريضة من حرية المشاركة المجتمعية والفكرية والأدبية والدينية، فأَمنة بنت عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم سيدة من سادات البيت المرواني، لم يمنعها مقامها من طلب العلم، ورواية الحديث، وقرض الشعر، وقد كانت توقع باسمها واسم زوجها سفيان بن عاصم مفتوحين تحت مقطوعتها الشعرية، التي بثت فيها الصبابة، ووقفت فيها على منازل الهوى والشوق دونما حرج من إنكار المجتمع ذلك عليها، وهي على ما هي عليه من وقار الانتساب للبيت المرواني، ومن رواية الحديث، ومن شعرها:

كفي حزنا بالهائم الصب أن يرى ... منـازل مـن يـهـوى معطلة قفرا
بلى إن ذا الشوق الموكَل بالهوى ... يزيد اشتياقًا كلما حـاول الصبرا
مقيمًا بها يوما إلى الليل لا يرى ... أوانس قد كانت تكون بها عصرا[3]

وكان لأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك حضورًا مجتمعيًا متميزًا، فبلغت من الحكمة وقوة الشخصية ما دفع الوليد لاستشارتها في بعض شؤون الدولة. وقد صوِّرت المرأة سيدة في مجتمعها، فكانت زوجات الخلفاء والحكام والولاة أنموذج للمرأة التي تحتذي بها نساء العصر الأموي، من نقاء الصورة، والأخلاق الرفيعة، والتدين الذي يمنحها الحصانة والشرف والعفاف وكرم المحتد[4].

---

(١) تجور، فاطمة، المرأة في الشعر الأموي (دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م.، ص١١ – ١٤، النص، إحسان، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، منشورات دار اليقظة العربية بيروت، د.ت، ص١٥.

(٢) تجور، فاطمة، المرأة في الشعر الأموي، ص٢١.

(٣) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٥ / ص١٤٩.

(٤) الأصفهاني، الأغاني ج١ / ص١٣٥. والمحتد: الفعل: احتد: والفاعل مَحتِد، والجمع محاتد، والمحتد: الأصل، والطبع. انظر: الفراهيدي: الخليل: كتاب العين، طبعة جديدة فنية منقحة، ط٢، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٦ه / ٢٠٠٥م)، ص١٧٥. ابن منظور: محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه: عامر حيدر، راجعه: عبد المنعم إبراهيم، م٣، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ه / ٢٠٠٣م)، ص١٧١ – ١٧٣.

سابعًا: الجواري والموالي والمغنيات:

ساعد تخالط الأجناس وتفاعل الثقافات في العصر الأموي على منح المرأة مساحة من الحرية أهّلتها ارتياد مجالس الثقافة والأدب، وكانت في هذه المجالس شاعرةً وناقدةً ومغنيةً ذات حضور مُحبّب ومحترم. وقد أسهمت الجواري والمولّدات في تشابك وتفاعل العلاقة بين الرجل والمرأة، فاهتم المجتمع الأموي بهن، فكانت عندهم الشاعرة والمغنية والقينة والخليلة[١]. وقد عرف العرب ما تحسنه الجواري والمولَدات وما يبرعن فيه، فوضعوهن في درجات، فها هو عبد الملك بن مروان يصنفهن حسب طبيعة عملهن وصفاتهن وأصولهن، فجعل البربرية للمتعة، والفارسية أم ولد، والرومية خادمة[٢]. وكان من عمل الجواري الخضاب[٣]، والرعي وجلب الماء[٤]، والحراسة[٥]، والعناية بالأطفال وتربيتهم ورعايتهم[٦]، وكنَّ وصيفات لبنات الذوات[٧]، وكن سلعة للإهداء والبيع أيضًا[٨].

فرضت المرأة الجديدة الوافدة حضورًا في الحياة العامة، فجالست الرجال واختلطت بهم، وقالت الشعر وعزفت الموسيقى وبرعت في الغناء. وهو وإن كان معروفًا عند العرب من فترة ما قبل الإسلام، يبقى الأمر في أضيق نطاقه، مقتصرًا على سبايا الحروب والأسارى، وما أن جاء العصر الأموي حتى أصبح هذا الفن فعلًا ثقافيًا ومجتماعيًا واقتصاديًا، فقد أضحت تربية الجواري وسيلة إثراء عند بعضهم، وصارت الأشعار تكتب لتغنى[٩].

لقد تطور فن الغناء في الشام وبغداد خلال هذا العصر، وأقبل الناس بكافة أطيافهم عليه-إلاّ من رحم الله، ولم يخل الأمر من ظهور بعض القضاة والزهاد على النقيض الآخر[١٠]. وقد اشتهر من المغنيات جميلة وعزة الميلاء وسلاّمة وحبابة، اللواتي أسهمن في تنشيط الحياة الاقتصادية لما يمتلكنه من فنون الغناء والموسيقى وقول الشعر، وقد بيع بعضهن بأثمان باهضة متنقلات في الأمصار، وبين الشرفاء مثل حبابة وسلامة القس.

(١) فريح، سهام عبد الوهاب، الجواري والشعر في العصر العباسي الأول، ط١، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨١م، ص٢٧.

(٢) الجوزية، ابن قيم، أخبار النساء، ص١١.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧ / ص١٧.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٨ / ص١١٠.

(٥) الفرزدق، ديوان الفرزدق، تحقيق على فاعور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٤١.

(٦) السابق نفسه.

(٧) السابق، ص٦٧.

(٨) السابق، ص٥٥.

(٩) ضيف، شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط٨، د.ت، ص١٠٢.

(١٠) ضيف، العصر الإسلامي (تاريخ الأدب العربي)، ص١٤١.

وكانت المغنية حبابة (توفيت سنة ١٠٥ه / ٧٢٣م)[١] مولاةً ليزيد بن عبد الملك، واسمها العالية، وتكنى أم الوليد، أخذت الغناء عن ابن سريج ومعبد، وكانت حسنة الصوت جميلة المنظر. وهي شاعرة متأدبة، لها حضورها المتقدم في مجالس الغناء والشعر، ومجالس الخلفاء. وكان يزيد شديد الوجد بها، يتشاغل معها حتى أنها تتدخل في شؤون الدولة العامة . وعن قصة موتها روى الزبير بن بكار قال: قال يزيد بن عبد الملك: "زعموا أنه لا يصفو عيش يوم واحد، فإني أريد ألا تخبروني غدًا بشيء، فإني أريد أن أتخلى نظري ولذتي فلعلها تدوم لي، فلما كان من غدٍ جلس مع حبابة فأكلا وشربا وطربا وكان بين يدي حبابة رمان، فأكلت منه فشرقت بحبة فماتت، فمكث ثلاثًا لا يدفنها ثم غسلت بعد ثلاث وأخرجت"، وقيل: "إن يزيد بن عبد الملك نزل مكانًا بالأردن، يقال له بيت رأس ومعه حبابة فتوفيت". ووفاتها في رجب سنة خمس ومائة ولم يلبث بعدها يزيد إلا أربعين يومًا حتى هلك[٢].

وكانت سلامة القس (توفيت نحو سنة ١٣٠ه / ٧٤٨م) صاحبة الصوت الجميل جارية يزيد بن عبد الملك اشتراها، شُغِف بها قس وشغفت به[٣]. وهي من أشهر مغنيات العصر الأموي، مولدة من مولدات المدينة، تعلمت أصول الغناء من معبد وابن عائشة وجميلة، سميت بسلامة القس لشغف عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي بها، وقد كان يلقب بالقس لتقاه وورعه. وبعد أن اشتراها يزيد بن عبد الملك وفتن بها أصبحت من مغنيات البلاط الأموي[٤]، وقد ذكر صاحب كتاب الأغاني وداع أهل المدينة المؤثر لها عندما غادرتهم إلى دمشق[٥].

وكانت جميلة مغنية مشهورة، وتسمى ب "عزة الميلاء" (توفيت نحو سنة ١١٥ه / ٧٣٣م)، وكان لها دار تقام فيها الحفلات يشارك فيها المغنون والشعراء، وكانت جارية لعبدالله بن جعفر بن أبي طالب[٦]، وقد غنت شعر عمر بن أبي ربيعة[٧]. أما أنيسة بنت معبد المغنية[٨] فأطلق عليها عروس القيان، عاشت بين المدينة والشام، حيث قدمت الشام أيام يزيد بن عبد الملك، وأيام الوليد بن يزيد، ويذكر أنها غنت أمامه أغنية من أغاني لبابة، فطرب لها وأغدق عليها وزوجها لأحد ميسوري تنوخ.

---

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٧ / ص٢٩٨. الزركلي، الأعلام، ج٢ / ص١٦٣.

(٢) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٧ / ص٢٩٩ – ٣٠٠. وهذه القصة تحتاج إلى نقد من المؤرخين، ولكن يهمنا في هذا المقام أن نشير إلى مكانة الجواري دون تمحيص الرواية.

(٣) الزركلي، الأعلام، ج٣ / ص١٠٧. فواز، زينب بنت علي بن حسين، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: الأولى، ١٣١٢ه، ص٢٥٠.

(٤) النصولي، أنيس زكريا، الدولة الأموية في الشام، هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص٢١٧ – ٢١٨.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج٨ / ص١٠.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، ج٧ / ص١٢٩ – ١٤٣.

(٧) الأصفهاني، الأغاني، ج٧ / ص١٣١. الزركلي، الأعلام، ج٤ / ص٢٣٠.

(٨) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٥ / ص١٥٣.

ولما تولى الوليد بن يزيد الخلافة أمر أن تخرج إليه عتبة المدنية المغنية، فلما قدمت إليه ورأت تزاحم الندماء والمغنين في مجلسه، عزّ ذلك عليها، فغنته أغنية صرف بعدها من كان في مجلسه واكتفى بما سمع منها من عذب الكلام وجمال الصوت[1]. وكانت عمارة أخت العريض[2] من أحسن الناس وجهًا وغناءً، أهداها عبد الله بن جعفر إلى يزيد بن معاوية. وكانت المغنيات يُشترَين ويُبَعن بأعلى الأثمان، فقد اشتراها عبد الله بن جعفر بثلاثين ألف درهم، وردّ إليه يزيد مئة ألف درهم لقاء هديته[3].

لم يكن مجتمع الجواري والمغنيات مقصيًّا، بل دخلن كل مفاصل الحياة في العصر الأموي، وأَحبّ عشرتهن ومجالستهن والاستماع إلى أصواتهن رجالُ الحكم والأدباء والشعراء. وذكر المؤرّخون أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان يهوى سماع حكمة الشعر التي تصدر مع حكمة الألحان[4].

الخاتمة

وفي نهاية البحث تم التوصل إلى النتائج التالية:

- تأثر نتاج المرأة الثقافي بعدد من العوامل التي ظهرت خلال العصر الأموي في بلاد الشام، من تنوع في المذاهب ولأحزاب والأجناس، والمؤثرات الأجنبية من موال ذوي أصول مختلفة، تمركزت في المدن الرئيسية خصوصًا في دمشق والقدس، ولم تخل الحواضر الشامية الأخرى مثل حلب وصور وبعلبك وحوران والبلقاء وجرش من بعض الجهود وخصوصًا في مجال العلوم الدينية والأدبية.
- نالت المرأة في بلاد الشام مكانة عالية خلال العصر الأموي، وذلك استجابة لدعوة الإسلام، وبما أتاحته لها البيئة الاجتماعية من فرصة الاسهامات الثقافية الدينيّة والعلميّة والأدبية.
- أن من العناوين الكبرى في شأن المرأة خلال العصر الأموي في بلاد الشام شيوع أجواء الحرية في مجالات حياتية مختلفة، ولا نقصد تلك الحريّة التي منحها الإسلام لها وحسب، بل الحريّة في اتساع دوائر حضور المرأة، وخصوصًا الموالي والجواري والأجنبيات اللواتي تنوعت مشاربهن الثقافية والفكرية والإثنية، وأسهمت المجالس الدينية والأدبية والغنائية والعلمية المختلفة في عكس ملامح هذه الحرية الفكرية، فمن جرأة في الخوض

(١) السابق، ج٢٠ / ص١٨٠.

(٢) السابق، ج٢٠ / ص١٩٣.

(٣) السابق، ج٢٠ / ص١٩٤.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٤ / ص٩٨. النصولي، الدولة الأموية في الشام، ص٢١٧.

في موضوعات لم يعهدها العصرين النبوي والراشدي، إلى شيوع الشعر المغنى وبروز المغنيات اللواتي ذاعت شهرتهن في أرجاء الدولة الأموية، وفتِحت لهنّ مجالس بعض الخلفاء والأمراء والولاة. والملاحظ أن السمة العامة الغالبة على شعر الغناء هو ما تم قبوله فانتشر، أما الماجن منه فقد بقي حبيس مجالس اللهو والطرب والشراب، وتسربت نتفًا ومقطوعات قصيرة منه، كتبت في مصادر تراث ذلك العصر.

- نشاهد أن المجتمع كان رقيبًا رادعًا للمرأة في الخوض الصريح في بعض موضوعات الشعر فكبح من جماح الجرأة فحصرها في دوائرها الأدبية، وفي مجالس العشر والغناء والطرب، ولما كان العصر الأموي عصرًا تنوعت فيه المذاهب والأحزاب والفرق فقد تجرأت المرأة في الإنحياز إلى فريقها منتصرة له، أو مناكفة للفريق الآخر، وقد عكس هذا قوة شخصيتها ومناداتها للرجال شعرًا وخطابةً ومحاججة.

- نهضت المرأة الأموية في حمل رسالة دينها الحنيف، فكانت فيهن راويات الحديث، والفقيهات، والزاهدات، واللواتي كان لهن حظٌّ التتلمذ على أيدي بعض أمهات المؤمنين وبعض الصحابة والصحابيات رضي الله عنهن، وهو ما دفع كثير من العلماء والمؤرخين لتسمية فترة الجهود العلمية الدينية بعلوم القرن الأول الهجري، وذلك لتواصل الفترة الراشدية مع الأموية في تطور علوم الدين على يد كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي الدرداء، وأم المؤمنين عائشة، وكذلك أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها، وغيرهم الذين عايشوا الفترتين الراشدة والأموية.

- برعت المرأة الأموية في مجال الحياة الأدبية في بلاد الشام خلال العصر الأموي في عدة صنوف أدبية؛ أعلاها مكانًا قرض الشعر وروايته، الذي شاع في مجالسهن وفي مجالس الأدب. وقد حضر النثر في أدب المرأة في مقطوعات على درجة عالية من الفصاحة، ولكنها لا تشكل نثرًا سردياً ذا نفس طويل، فجاء نثرها في مواقف المحاججة والطلب، وبالمقارنة بين حجم المنشور نثرًا والمنشور شعرًا في كتب التراث المختلفة، نجد الغلبة للشعر، فهو سهل الحفظ والتناقل، ورسالته التي كتب من أجلها تندرج على الفعل الإنساني والشعوري الذي يمسُّ عاطفة وظرف الإنسان على مر العصور، ولأن الشعر ديوان العرب فقد كان إرث العرب القدماء الأدبي شعرًا بالمقام الأول يلوه النثر الأدبي فالنقد.

- أن الرثاء أغلب نصوص المرأة الشعرية التي أجادت به، وغلبت عليه العاطفة الجياشة، أكثر من بلاغة النص وشعريته. ولم يخل شعرها من الرقة والعفوية. ولعل عدم شيوع شعر النساء وإهمال دراسته ونقده يعود إلى ضعفه الفني، أو لقلته إذ لا يعدو شعر بعضهن مقطوعات قليلة، أو لزهدهن بنشر ما نظمن.

- غابت الرواية التاريخية عند المرأة، وبقي علم التاريخ والأخبار مقتصرًا على الرجال، يستثنى من ذلك الأخبار التي روتها المرأة وتناقلتها في الشأن الديني عن رجالات ونساء الإسلام في العهد النبوي والراشدي، والطابع عليه لم يكن هذا الجانب سردًا تاريخيًا يحقق شروط الكتابة التاريخية، وهو لا يعدو أخبارًا وروايات تأتي في سياق التراجم أو روايات الحديث أو جواب لسؤال.
- أولى العصر الأموي التعليم جلّ اهتمامه وتشجيعه، استجابة للأمر الرباني الحاث على ذلك واستمرارية للجهود التي بذلت في العهدين النبوي والراشدي، وقد توسعت دوائر التعليم من حيث الحقول والموضوعات، ومن حيث الانتشار في الأمصار، ومن حيث أعداد المعلمين والتلاميذ.
- أن المساجد مراكز إشعاع ديني وفكري وتعليمي، وإلى جانب المساجد انتشرت المدارس والكتاتيب، وقد كان للمرأة فيها حضورًا، معلمة ومتعلمة. فقد علّمت المعلمات الصبيان والنساء، وروى رجال ثقاة عنهن، وأخذ بعض الرجالُ العلمَ عن بعضهن، كأم الدرداء الصغرى.
- كل ما وصلنا من أخبار جهود المرأة في العلوم العقلية قليلًا، ولا يتجاوز عدد من خضن هذا الجانب أصابع اليد الواحدة، وفي حقول الطب والكيمياء والفلك فقط.
- رغم ما حظيت به المرأة ومساهمتها من اهتمام إلا أنها لم تنل من الاهتمام في توثيق إنتاجها مبلغ الرجال، ولم يلق إنتاج المرأة الأدبي من النقد والدراسة ما ينصفها من حيث عدد الدراسات، أو الأنواع الكتابية التي طرقتها المرأة في بلاد الشام خلال العهد الأموي.

التوصيات

وفيما يلي أهم التوصيات التي تقترحها الباحثة:

١- أن يكون هناك اهتمام أكثر بمصنفات وتراث العلوم العقلية من طب وكيمياء وفلك وغيرها.

٢- أن لا نكتفي عند تناول المرأة بالتراجم والموسوعات، بل لا بد من مصنفات تعنى بفكرها وعقلها وعلومها التطبيقية.

٣- أن تتوسع الدراسات حول المرأة في العصر الأموي للعلوم للمختلفة، وأن تنفرد هذه الدراسات لجهودها كدراسات مستقلة، دون ربطها -كالمعتاد- بذيل موضوعات الدراسات.

٤- استنطاق التراث وتحليله فيما يخص العلوم التي برزت فيها المرأة، والترجمة لها بشكل سردي مفصل يغني طالب العلم بالمعلومات الشافية.

٥- تحتاج دراسات المرأة إلى التخصيص، فتفرد مصنفات للأنواع الأدبية التي برعت بها والترجمة لصاحباتها، ليتسنى دراسة أدوار المرأة دراسة رأسية، وأن لا يكتفى بالدراسة الأفقية لمجموع جهودها.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- الآبي، أبو سعيد منصور، نثر الدر في المحاضرات، ٦ أجزاء، تحقيق محمد علي قرفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م.

٢- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، دار الثقافة، ط٤، ١٩٨٧م.

٣- ابن الجوزي، أبو الفرج بن عبدالرحمن بن علي بن محمد، أحكام النساء، تحقيق علي بن محمد المحمدي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت،١٩٨١م،.

٤- ابن الجوزي، أبو الفرج بن عبدالرحمن بن علي بن محمد، صفوة الصفوة، ٤ أجزاء، تحقيق محمود فاخوري، محمد دواس، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.

٥- ابن الجوزي، أبو الفرج بن عبدالرحمن بن علي بن محمد، صفة الصفوة، تحقيق وتعليق محمود فاخوري، ط٣، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٥م.

٦- ابن الجوزي، أبو الفرج بن عبدالرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٣٥٧ه.

٧- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٣٦٩ه.

٨- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ٤ أجزاء، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٢٨ه.

٩- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، دار الفكر، ١٩٨٤م.

١٠- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

١١- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ١٩٤٨م.

١٢- ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، ١١مجلد، مكتبة الخانجي، ٢٠٠١م.

١٣- ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ٨ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٥٨م.
١٤- ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء وظرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية والإسلام، صححه وشرحه أحمد الألفي، المكتبة المعتيقة، تونس، ١٩٨٥م.
١٥- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الفكر بيروت، ٢٠٠٦م.
١٦- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، ١٩٤٠م.
١٧- ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، حققه علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م.
١٨- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تاريخ مدينة دمشق "تراجم النساء"، تحقيق سكينة الشهابي، ط١، دمشق، ١٩٨٢م.
١٩- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين العموري، دار الفكر، دمشق، د.ت.
٢٠- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن عبد المجيد بن مسلم، الشعر والشعراء، ط٢، تحقيق دي غويه، ومراجعة إحسان عباس، ومحمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م.
٢١- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن عبد المجيد بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٣، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م.
٢٢- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن عبد المجيد بن مسلم، عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبعة مصر، ١٩٦٤م.
٢٣- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.
٢٤- ابن منظور: محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه: عامر حيدر، راجعه: عبد المنعم إبراهيم، م٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ه / ٢٠٠٣م.
٢٥- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس وآخرون، ٢٩ جزءا، دار الفكر، دمشق ط١، ١٩٨٤م.
٢٦- ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د ت.
٢٧- أبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن شاهنشاه أيوب، المختصر في أخبار البشر، علق عليه محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٢٨- الأخيلية، ليلى، ديوان ليلى الأخيلية، تحقيق: عمر فاروق الطبّاع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.
٢٩- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ط١، شرحه وعلق حواشيه سمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
٣٠- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تصحيح أحمد الشنقيطي، القاهرة، طبعة مصر، ١٩٧١م.
٣١- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩م.
٣٢- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، جدة: دار ابن الجوزي، ١٤٢٥ه / ٢٠٠٤م.
٣٣- الجمحي، محد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
٣٤- الجوزية، ابن قيم، أخبار النساء، تحقيق نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، د. ت.
٣٥- الخالديان، أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابني هاشم، الأشباه والنضائر من أشعار المتقدمين والمتخضرمين، جزءان، تحقيق محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨م.
٣٦- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، العبر في خبر من غبر، دار التراث العربي، الكويت، ١٩٦٠م.
٣٧- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تذكرة الحفاظ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ٤ أجزاء، دار المعارق العثمانية، تصوير دار الكتب العلمية، ١٣٧٤ه.
٣٨- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق على محمد الجباوي، دار المعرفة، بيروت.
٣٩- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق محمد الغرباوي، اللجنة الفنية بوزارة الاعلام، القاهرة، ١٩٧٥م.
٤٠- السيوطي، تحفة المجالس ونزهة المجالس، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٨م.
٤١- الشوكاني، محمد بن علي بن عبدالله، نيل الأوطار، تحقيق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ه / ١٩٩٣م.
٤٢- الصفدي، خليل الدين بن أيبك، الوافي بالوفيات، ٢٤ جزءا، د.ت.، دار النشر فرانز بفيسبادن، ١٩٧٩م.
٤٣- الضبي، المفضل، المفضليات، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٠م.
٤٤- الضبي، العباس بن بكار، أخبار النساء الوفدات على معاوية، تحقيق سهيلة الشهابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٦٤م.

٤٥- الطبري، محمد ابن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ١٩٨٥م.
٤٦- الفراهيدي: الخليل: كتاب العين، طبعة جديدة فنية منقحة، ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٦ه / ٢٠٠٥م.
٤٧- الفرزدق، ديوان الفرزدق، تحقيق على فاعور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
٤٨- القالي، أبو علي اسماعيل، الأمالي ويليه الذيل والنوادر لأبي عبيد البكري، ٣ أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
٤٩- القلقشندي، أحمد بن عبدالله، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، الكويت، طبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٩٨٥م.
٥٠- القيرواني، أبو اسحق بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٢م.
٥١- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة، مصر، ١٩٦٥م.
٥٢- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، الموشح، ط٢، ١٣٨٥ه.
٥٣- المزي، جمال الدين يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، بيروت، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م.
٥٤- المعافري، أبو الحسن علي بن محمد، الدائق الغنّاء في تراجم شهيرات النساء في صدر الإسلام، تحقيق عائدة الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، ١٩٧٨م.
٥٥- الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، قرأه وعلق عليه يحيى مراد، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، د.ت.

ثانيًا: المراجع:

١- أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية - الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.
٢- أبيض، ملكة، التربية العربية الإسلامية "المؤسسات والممارسات"، مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري، مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن، د.ت.
٣- أحمد، مصطفى أبو نصيف، دراسات في تاريخ الدولة العربية عصور الجاهلية والنبوة والراشدين والأمويين، ط٤، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ١٩٨٦م.
٤- تجور، فاطمة، المرأة في الشعر الأموي (دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م.

٥- الجرجاوي، زياد علي، التربية في صدر الإسلام خلال المرحلتين المكية والمدنية (السرية والجهرية)، ط٤، دار النشر والمكان (غير معروف)، ٢٠٠٨م.
٦- جورج غريب، شاعرات العرب في الإسلام، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥م.
٧- حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ١٩٧٩م.
٨- الحميري، نشوان، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، عيسى البابي الحلبي وآخرون، عمان، وزارة التراث القومي الثقافي، ١٩٨٩م.
٩- -الدوري، عبدالعزيز، التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات، مدخل تاريخي، مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن، ١٩٨٩م.
١٠- الديوه جي، سعيد، الموجز في الطب الإسلامي، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط ١، ١٩٨٩م.
١١- الزركلي: الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، أيار / مايو، ٢٠٠٢م.
١٢- زعرور، إبراهيم، علي أحمد، تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، منشورات جامعة دمشق. دمشق، سوريا، ١٩٩٦م.
١٣- السامرائي، كامل، مختصر تاريخ الطب العربي، جزءان، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
١٤- سلوم، داود، المرأة في أفق النقد الأدبي، دار السطور، بغداد، ٢٠٠٢م.
١٥- الصلابي، علي محمد، الدولة الأموية عوامل الأزدهار وتداعيات الأنهيار، بيروت، دار المعرفة، ط٣، ٢٠٠٩م.
١٦- ضيف، شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط٨، د.ت.
١٧- ضيف، شوقي، العصر الإسلامي (تاريخ الأدب العربي)، ط١١، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٦٣م.
١٨- عباس، إحسان، شعر الخوارج، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م.
١٩- عبد الله السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، بدون دار نشر، بيروت، ١٩٨٣م.
٢٠- عبد الحميد بهجت فايد، المرأة وأثرها في الحياة العربية، بيروت، ١٩٨٣م.
٢١- عبدالرحمن، عائشة، سكينة بنت الحسين، دار الهلال، د. ت.
٢٢- العجم، رفيق، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.
٢٣- عفيفي، عبدالله، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، جزآن، ط٢، دار مصر للطباعة، المكتبة الثقافية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٩٣٢م، ١٩٣٣م.

٢٤- عكاوي، رحاب خضر، الموجز في تاريخ الطب عند العرب، بيروت، دار المناهل للنشر، ط١، ١٩٩٥م.
٢٥- علي، أحمد إسماعيل، تاريخ بلاد الشام، ط٣، جوهرة الشام، دار دمشق، دمشق، سوريا، ١٩٩٤م.
٢٦- غريب، جورج، شاعرات العرب في الإسلام، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥م.
٢٧- غنيمة، محمد عبد الرحيم، تاريخ الجامعة الإسلامية الكبرى، دار الطباعة المغربية، تطوان، ١٩٥٣م.
٢٨- فريح، سهام عبد الوهاب، الجواري والشعر في العصر العباسي الأول، ط١، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨١م.
٢٩- فواز، زينب بنت علي بن حسين، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: الأولى، ١٣١٢ه.
٣٠- الكتاني، عبدالحي، التراتيب الإدارية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م.
٣١- كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ٥ أجزاء، ط٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.
٣٢- محمود، علي عبدالحليم، المسجد وأثره في المجتمع، دار المعارف، مصر، ١٩٩٨م.
٣٣- مرسي، محمد منير، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٢م.
٣٤- مصطفى، نادية، "حول أصول وقواعد دور نهضوي للمرأة" ورقة علمية مقدمة لمؤتمر المرأة ونهضة الأمة، الكويت، وزارة الأوقاف الإسلامية، ٢٩-٣٠/٣/٢٠١٠م.
٣٥- النص، إحسان، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، منشورات دار اليقظة العربية بيروت، د.ت.
٣٦- النصولي، أنيس زكريا، الدولة الأموية في الشام، هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
٣٧- هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

1- Gabrieli, F: The Encyclopaedia Of Islam .Is V. Art "Layla Al- Akhyliyya", KHE – MAHI. Leiden, E. J. Brill, 1986.

2- pellat, Ch: The Encyclopaedia Of Islam .Is I. Art " Ā'isha Bint Talha", A – B. Leiden, E. J. Brill, 1986..

رابعًا: المراجع الأجنبية المعربة:

١- بلاشير، د .ر.، تاريخ الأدب العربي، ترجمة، إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.

٢- لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ٢٠١٢م.

٣- مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٧م.

٤- مرغريت سميث Margaret Smith، (مادة رابعة العدوية)، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير: م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، الأجزاء (أ) إلى (ع): إعداد وتحرير / إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، الأجزاء من (ع) إلى (ي): ترجمة / نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية، المراجعة والإشراف العلمي: أ. د. حسن حبشي، أ. د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، أ. د. محمد عناني، الناشر: مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ه / ١٩٩٨م.

٥- هندس Hends، (مادة معاوية بن أبي سفيان)، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير: م. ت. هوتسما، وآخرون.

٦- هنري ماسيه H.Masse، (مادة سكينة بنت الحسين)، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير: م. ت. هوتسما، وآخرون.

٧- يوليوس فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ترجمة عبدالرحم بدوي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٥٨م.

خامسًا: الرسائل العلمية:

أ- الماجستير:

١- بنون، نعيمة محمد عبداللطيف، "فن الرثاء عند المرأة في الشعر الأموي"، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٨٩م.

٢- الجدي، أحمد محمود، "دور المرأة الجهادي في الإسلام "من البعثة النبوية حتى نهاية الدولة الأموية"، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٥م.

٣- الرحيلي، عبد الودود، "مكة المكرمة في العصر الأموي (٤١-١٣٢ه/٦٦١-٧٥٠م)"، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن، ٢٠٠٥م.

٤- سرماني، حنيفة عمر فاروق، "إقليم الجزيرة منذ الفتح حتى نهاية العصر السفياني (الأموي)"، رسالة ماجستير جامعة دمشق، سوريا، ٢٠٠٦م.

٥- طامش، مريم عبدالله، "المرأة في العصر الأموي"، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، اليمن، ٢٠٠٤م.

٦- العزايزة، وجدان حسن، "المرأة في العصر العباسي (٤٤٧هـ-٦٥٦هـ/ ١٠٥٥م-١٢٥٨م)"، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الاردن، ٢٠٠٤م.
٧- المسعود، غادة بنت عبدالرحمن بن جلوي، "المرأة في مجتمع الحجاز في العصر الأموي"، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩هـ.
٨- المعلمي، نجلاء بنت زين العابدين بن محمد، ١٤٢٨هـ، "الدور التربوي للمرأة المسلمة في العهد النبوي المكي"، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى.
٩- النوافلة، عبدالله موسى، "المدينة المنورة في العصر الأموي"، رسالة ماجستير، الجامعة الاردنية، عمان، الأردن، ٢٠٠٢م.
١٠- الوافي، سمية بنت محمد فرج، "التعليم في الشام في العصر الأموي"، رسالة ماجستير، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ.

ب- الدكتوراه:

١- أبو سرحان، عطية عودة، "تاريخ الحجاز في العصر الأموي"، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٧٦م.
٢- رواقة، إنعام موسى ابراهيم، "الحياة الاقتصادية وأثرها في الشعر الأموي"، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م.
٣- العلوي، فضل ناصر حيدة مكوع، "نقد النص الأدبي حتى نهاية العصر الأموي"، رسالة دكتوراه، جامعة الكوفة، ٢٠٠٣م.

سادسًا: المجلات والدوريات:

١- أبيض، ملكة، "الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق من الفتح حتى عام ٨٦هـ"، مجلة دراسات تاريخية، لجنة كتاب تاريخ العرب، دمشق، سوريا، عدد ٧، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
٢- حميد، عفاف عبد الغفور حميد، "جهود المرأة في نشر الحديث وعلومه"، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة الربية وآدابها، م١٩، ع ٤٢، ص ٢٣١-٢٧٠، ١٤٢٨هـ.
٣- الخالدي، خالد يونس، ٢٠١٣م، "التربية الجهادية عند المرأة المسلمة في صدر الإسلام"، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، جامعة غزة الإسلامية، م ٢١، ع١، ص ٤٨٥-٥٠٨، ٢٠١٣م.
٤- سنقر، صالحة، "المجالات الثقافية للمرأة العَربية في بلاد الشام في العصرين الأموي وَالعبّاسي"، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٣٠، السنة الثامنة، كانون الثاني "يناير"، ١٩٨٨م / جمادى الأولى ١٤٠٨هـ.
٥- مناتي، كريم ماهود، "المؤدبون والمعلمون في الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي"، مجلة الأستاذ، العدد ١٢٥، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية - جامعة بغداد، ٢٠١٠م.

سقوط أنطاكية في أيدي الفرس عام ٥٤٠م
في ضوء كتاب "تاريخ الحروب"
للمؤرخ بروكوبيوس القيساري

The fall of Antioch in the hands of Persians in 540 A.D.
In light of the book "History of Wars"
Of the historian Procopius of Caesarea

دكتور

سونيا عبد الوهاب غازي

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة كفر الشيخ

الملخص العربي

يتناول البحث حدث اجتياح الفرس مدينة أنطاكية عام ٥٤٠م، وهو الحدث الأهم الذي ميز الحرب البيزنطية–الفارسية الثانية التي اندلعت خلال القرن السادس الميلادي. وتناول البحث هذا الحدث في ضوء الرواية التي قدمها المؤرخ بروكوبيوس، التي أوردها في كتابه "تاريخ الحروب"؛ لأنه فاق غيره من المؤرخين في تسجيل الحدث. ويناقش البحث المكانة القدسية للمدينة، والأسباب المختلفة التي دفعت الملك الفارسي كسرى الأول للهجوم على أنطاكية، وتفاصيل حصار الفرس للمدينة، وفرار قادتها. ثم رد الفعل البيزنطي لصد الجيش الفارسي، وأخيرًا يرصد البحث أسباب فشل البيزنطيين في الدفاع عن المدينة والنتائج المترتبة على ذلك .

Abstract

The research deals with the invasion of Persia of Antioch in 540 A.D.,The most important event that characterized the Second Byzantine-Persian War that broke out during the Sixth Century A.D., The research dealt with this event in the light of the novel presented by the historian Procopius, which he wrote in his book "History of Wars"; because he exceeded other historians in recording the event. the research discusses the Holy place of Antioch, and the different reasons that motivated The Persian king Chosroes I to invade the city, and the details of the Persians' siege of the city, and the escape of its leaders. Then the Byzantine reaction to repel the Persian army, finally, the research examines the reasons why the Byzantines failed to defend the city and the Results..

حظيت مدينة أنطاكية Antioch في شمال سوريا Syria باهتمام كبير، واحتلت مكانة متميزة عبر العصور التاريخية المختلفة، فقد أُطلق عليها في العصور القديمة "ملكة الشرق"، وكانت المدينة المفضلة للأباطرة الرومان[١]. وظلت أنطاكية خلال العصر البيزنطي تحتل نفس المكانة، فاتخذتها الإمبراطورية البيزنطية عاصمة لها في الشرق، فكانت من بين أكثر المدن البيزنطية تميزًا، وأهم المدن مكانة؛ نظرًا لتمتعها بعدة مقومات: فقد تميزت بموقع استراتيجي هام، وبحصانة قوية؛ بفضل مجموعة كبيرة من الأبراج المحصنة، والأسوار المنيعة المقامة على الجبال التي تمتد من الناحية الجنوبية، والجنوبية الشرقية للمدينة. كما زاد نهر العاصي Orontes، الذي يحد المدينة من ناحية الغرب، من مناعتها الطبيعية[٢].

ومن الناحية التجارية تميزت مدينة أنطاكية بموقع حيوي، فكانت مركزًا تجاريًا هامًا في شرق البحر المتوسط، ونقطة التقاء طرق التجارة التي تربط بين البحر المتوسط وشمال العراق، كما لعبت دورًا بارزًا كحلقة اتصال تجاري بين آسيا الصغرى في الشمال والمناطق الواقعة في الجنوب[٣].

أمَّا من الناحية الدينية فتحتل أنطاكية مكانة القداسة عند المسيحيين الشرقيين؛ حيث إنها العاصمة الدينية للمنطقة الشرقية ككل، فقد كانت أول مدينة يظهر فيها اسم "المسيحيين" على كل من يؤمن بالسيد المسيح عليه السلام، ومنها ذاع هذا الاسم بين سكان المناطق الأخرى. إضافة إلى ذلك، كانت أنطاكية أول مدينة تقام بها كنيسة نصرانية فأصبحت مركزًا لنشر الرسالة عالميًا، ونقطة الانطلاق للتبشير بين الأمم[٤].

ونظراً لوجود قوتين متجاورتين، وهما الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية، ومحاولة كل قوة منهما توسيع نفوذها وأراضيها، وفرض سيطرتها على المناطق الحدودية المشتركة، فقد كانت هذه المناطق مسرحًا للكثير من الاشتباكات العسكرية بينهما. وعلى الرغم من أن مدينة أنطاكية لا تقع ضمن منطقة الحدود البيزنطية– الفارسية، إلا أنها لم تكن آمنة من الهجمات الفارسية؛ فقد شهد القرن السادس الميلادي صراعًا متعاظمًا، وعداءً مستحكمًا بين الإمبراطوريتيْن المتجاورتين، وتبادل الطرفان خلاله الانتصارات والهزائم، وتغيرت الحدود بينهما أكثر من مرة. فقد اندلع خلال هذا القرن ثلاثة حروب بين البيزنطيين والفرس، وذلك على مدى أربعة عقود، وكانت الأراضي الشرقية للإمبراطورية البيزنطية وخاصة سوريا مسرحًا لتلك الحروب الثلاثة: الحرب الأولى (٥٢٧–٥٣٢م)، والحرب الثانية (٥٤٠–٥٤٥م)، والحرب الثالثة (٥٤٩–٥٦٢م)، وانتهت كل حرب من هذه الحروب بتوقيع معاهدة سلام بين الطرفين .

وتجلت الحرب البيزنطية – الفارسية الثانية في اجتياح كسرى الأول Chosroes I (٥٣١–٥٧٩م)– الملقب بكسرى أنوشروان Nushirvan– الأراضي الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، وهدمه كثيرًا من المدن في شمال سوريا عام ٥٤٠م، وانتهى الأمر بسقوط مدينة أنطاكية .

ونظرًا للموقع الاستراتيجي لمدينة أنطاكية، وأهميتها العسكرية والاقتصادية والدينية للإمبراطورية البيزنطية فإن سقوطها في أيدي الفرس يمثل ضربةً قاصمةً للهيبة العسكرية للإمبراطورية، ويشكل الحدث الأهم خلال تلك المرحلة من مراحل الصراع بين بيزنطة وفارس. كما يعد من بين الكوارث الكبرى التي تعرضت لها بيزنطة في تاريخها الطويل، خاصة أنها حدثت خلال عهد أحد أهم أباطرة بيزنطة، وهو الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧–٥٦٥م)، الذي شهد عهده العديد من الإنجازات والانتصارات؛ لذا بدت كارثة سقوط أنطاكية كأنها أمرٌ غير قابل للتصديق، لا يلائم طبيعة العصر الذي وقعت فيه.

وعلى الرغم من أن الكارثة التي حلت بمدينة أنطاكية لم تكن من الأحداث الهامة في تاريخ العلاقات البيزنطية – الفارسية فحسب، بل في تاريخ الدولة البيزنطية ككل، إلا أن بعض المصادر البيزنطية تجاهلت الحدث وكأنه لم يكن[٥]، في حين جاءت أغلب المصادر بروايات مقتضبة لا تسمن ولا تغني من جوع. فكل ما قدمه المؤرخ البيزنطي يوحنا مالالاس John Mala-las (٤٩١–٥٧٨م) بضعة أسطر عامة وموجزة، أشبه بالإشارات الخاطفة[٦]. في حين أن المؤرخ

إيفاجريوس Evagrius (٥٣٥-٥٩٤م) يصفه في فقرةٍ قصيرة؛ ربما لأن كتابه كان يهتم بشكل أساسي بالتأريخ للأوضاع الكنسية[٧]. ونهجت المصادر السريانية نهج نظيرتها البيزنطية، فشكل الاختصار مظهرًا عامًا، واحتل موقعًا رئيسًا في تلك المصادر! لكن نجد لمحات من النظرة الفارسية للأحداث في المصادر العربيَّة، وإن كانت خالية من تواريخ محددة يمكن الاعتماد عليها. ويأتي الطبري في مقدمة المصادر العربية التي تناولت هذا الحدث، حيث يسرد جوانب محدودة عن اجتياح الفرس لمدينة أنطاكية.

وعلى النقيض من ذلك، نجد المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس القيساري Procopius of Caesarea (٥٠٠– ٥٦٥م)، قد أولى هذا الحدث اهتمامًا كبيرًا، حيث سطر كافة تفاصيله بدقة بالغة لم يشهدها غيره من المؤرخين، فخصص له في كتابه المهم "تاريخ الحروب" شرحًا وافيًا، وسجلاً تاريخيًا موثقًا، وتفصيلاً مسهبًا للأحداث، جاعلاً القارئ وكأنه يُعَاين الحدث، بل يشاهده لحظة بلحظة، والبرهان على ذلك أن روايته للمدن الأخرى التي حاصرها الفرس خلال الحملة مثل مدينة سوراSure ، وهيرابوليس Hierapolis ، وحلب Beroea، جاءت تمهيداً مختصراً لتلك الواقعة .

أمَّاعن الأسباب التي دفعت كسرى أنوشروان لشن حملته على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، واجتياح مدينة أنطاكية عام ٥٤٠م؛ فيمكن تقسيمها إلى أسباب عدائية أزلية وأسباب توسعية : وفيما يتعلق بالأسباب العدائية الأزلية فتتمثل في الصراع القائم بين الإمبراطوريتين الكبيرتين المتجاورتين؛ وكونه لم يحسم رغم محاولة الإمبراطور جستنيان تهدئة الأوضاع على الجبهة الشرقية، وعقده معاهدة مع الفرس في عام ٥٣٢م، والتي وصفت – وقتئذٍ – بأنَّها معاهدة "السلام الدائم"[٨]. ولكن رغم هذه المعاهدة، فإنَّ الفترة التي تلتها لم تكن فترة هدوء وسلام حقيقي؛ لأن كلتا القوتين كانتا تراقب الأخرى بعين الشك، حيث أثارت الانتصارات التي حققتها بيزنطة في الشمال الإفريقي والغرب الأوروبي قلق ومخاوف السلطات الحاكمة في بلاد فارس[٩]. وسرعان ما ندم الملك الفارسي على توقيع اتفاقية السلام الدائم مع البيزنطيين؛ لأنها ساعدت على زيادة قوة ونفوذ الإمبراطور البيزنطي[١٠] .

أمَّا الأسباب التوسعية فتتمثل في الغارة المفاجئة التي شنها خالد بن جبلة Khalid bin Jabala ملك الغساسنة (٥٢٩-٥٦٩م) الموالي للإمبراطور البيزنطي، في العام السابق لسقوط المدينة، على أراضي وممتلكات المنذر الثالثAlamoundaras III ملك الحيرة(٥١٤–٥٥٤م) الموالي للفرس[١١]، وقيامه بقتل عدد كبير من رجاله، وأخذ الكثير من ثروته كغنيمة، وقد اشتكى المنذر لكسرى أنوشروان الذي قام بمراسلة الإمبراطور جستنيان مشيرًا لمعاهدة السلام التي بينهما، وطالبه بضرورة قيام خالد بن جبلة بإعادة الغنائم ودفع دية القتلى من أتباع المنذر، لكن الإمبراطور البيزنطي تجاهل الأمر[١٢]. بل أنه حاول استقطاب ملك الحيرة بالأموال والهدايا،

وتحريضه للتحالف معه ضد الفرس، إلا أن ملك الحيرة سلم الرسائل التي تدين الإمبراطور البيزنطي للملك الفارسي، الأمر الذي اعتبره الأخير خرقًا لاتفاقية السلام الدائم المبرمة بين البلدين، ومن ثم صارت لديه الحجة للإغارة على الأراضي الشرقية للإمبراطورية البيزنطية [١٣].

ومما زاد من دوافع كسرى أنوشروان لشن حملته العسكرية وجود تحريض من أطراف أوربية على سرعة قيام الحرب بين الطرفين، حيث وصلت سفارة إلى بلاد فارس في العام السابق لسقوط المدينة من وتجز Vitiges (٥٣٦–٥٤٠م) ملك القوط الشرقيين Ostrogoths؛ لحثِّ كسرى على بدء الحرب ضد بيزنطة، والضغط على الجبهة البيزنطية الشرقية[١٤]، وتحدث السفراء القوط حديثًا مطولاً عن هدف الإمبراطور جستنيان لتوحيد العالم تحت الحكم البيزنطي، وأقنعوا كسرى أنه إذ لم يتحرك في وقت قريب ضد بيزنطة سوف تصبح بلاد فارس أحد ضحايا العدوان البيزنطي، وأكد السفراء في حديثهم انشغال الإمبراطور البيزنطي بالحملات العسكرية في الشمال الإفريقي وإيطاليا، وأنها فرصة لا تعوض لشن حملة عسكرية على الأراضي التابعة للإمبراطورية البيزنطية في الشرق[١٥]. وقد لاقى حديث السفراء القوط قبولاً لدى الملك الفارسي، دون أن يضع في اعتباره أن الحديث جاء على ألسنة رجال هم أشد أعداء الإمبراطور البيزنطي. ويقدم بروكوبيوس تبريرًا للأمر بأن كسرى كان منذ البداية حاقدًا على الإمبراطور البيزنطي، حاسدًا لانتصاراته في الغرب الأوروبي، ومن ثم كان على استعداد كافٍ للاستجابة لتحريض القوط، فوافق على مطلبهم عن طيب خاطر[١٦]. ولا شك أن وصول هذه السفارة القوطية إلى بلاد فارس يعكسُ الأبعاد التاريخيَّة للصراع بين الشرق والغرب، وفي الوقت ذاته يوضح دور القوى الإقليميَّة في المواجهات البيزنطية– الفارسية، ويوضح الأسباب المباشرة لتجدد الصراع في بعض الأحيان[١٧].

كما يقدم المؤرخون السريان أسبابًا أخرى دفعت كسرى أنوشروان لشن حملته على أنطاكية، فيذكر يوحنا الأسيوي (الأفسوسي) John of Ephesus (٥٠٥–٥٨٦م) أن كسرى استغل فرصة انشغال الإمبراطور جستنيان بحروبه في ايطاليا، وحرض المنذر ملك الحيرة على التحرش بخالد بن جبلة، فادعى المنذر دخول بعض الأراضي البيزنطية الحدودية في حوزته، الأمر الذي قابله خالد بن جبلة بالرفض، فاستغل كسرى هذا الخلاف وأبطل معاهدة السلام المبرمة بين بلاده وبيزنطة[١٨]. كذلك يذكر زكريا الميتيليني Zachariah of Mytilene (٤٦٥–٥٣٦م) أن تدهور الدفاعات البيزنطية في المقاطعات الشرقية حفز كسرى أنوشروان على خرق السلام مع بيزنطة، وأتاح له فرصة مثالية للاستيلاء على كميات كبيرة من الأموال من مدينة أنطاكية[١٩] .

بالإضافة إلى الدوافع السابقة، يقدم عدد من الباحثين المحدثين تفسيرات لهذه الجولة من جولات الصراع البيزنطي– الفارسي؛ فقد أشار أحدهم إلى أن الاحتياجات المستمرة للخزينة الفارسية الفارغة هي التي دفعت كسرى أنوشروان للقيام بتلك الحملة على مدينة أنطاكية[٢٠]. ومن ناحية أخرى يرى باحث آخر أن الهدف الرئيس لتلك الحملة الفارسية كان استغلال تواجد

زهرة الجيش البيزنطي في الغرب الأوروبي، وتوجيه ضربة قوية لمدينة أنطاكية عاصمة الشرق، تلك المدينة الغنية التي ظلت لفترة طويلة بعيدة عن هجمات الفرس[٢١].

وترى الباحثة أنَّ منطق القوة والقوة المضادة كان أحد دوافع قيام كسرى أنوشروان بحملته، فكان من الصعب عليه أن يقف مكتوف الأيدي وهو يرى نجاح غريمه الإمبراطور جستنيان في الشمال الإفريقي والغرب الأوروبي، ومن ثم رأى ضرورة إحراز انتصار يضاهي انتصارات عدوه الأزلي، وأن يضع في نفس الوقت حدًّا لحقده على نجاحاته. ولعل كسرى وجد أن قيامه بحملة عسكرية على عاصمة الإمبراطورية في الشرق خير وسيلة لتحقيق هدفه، وذلك قبل انتهاء الجيش البيزنطي من حروبه في الغرب الأوروبي والتحول إلى الجبهة الشرقية لمحاربة الفرس.

وجدير بالذكر، أن فكرة الاستيلاء على مدينة أنطاكية لم تكن وليدة عصر كسرى أنوشروان، فقبل هذه الحملة ببضع سنوات، قام المنذر ملك الحيرة بنصح الملك الفارسي قباذ الأول Cabades I(٤٨٨-٤٩٦ ، ٤٩٨-٥٣١م) والد كسرى، بضرورة شن غارة مفاجئة على مدينة أنطاكية. وبرر المنذر فكرتَه بأنها المدينة الأولى بين كل مدن الإمبراطورية الرومانية الشرقية من حيث الثروة وحجم السكان، وأنها بدون حراسة وتفتقر إلى الجنود، لذا من السهل الاستيلاء عليها في هجوم مفاجئ، والعودة إلى بلاد فارس دون مواجهة جيش بيزنطي منظم[٢٢].

وقد لاقت فكرة المنذر رواجًا لدى كسرى أنوشروان وتبريراً لأطماعه، فبعث برسالة إلى الإمبراطور البيزنطي جستنيان يحطُّ فيها من قدره ومن مكانة سلطته، ويدعوه إلى الاستيقاظ من الغرور الذي أصابه، ويحثه على تقدير عواقب الأمور[٢٣]. ورغم ذلك كان الإمبراطور جستنيان يعتقد أن حاجة كسرى أنوشروان إلى توطيد وتثبيت دعائم دولته، وهو السبب الذي جعل الأخير يوافق على إبرام اتفاقية السلام المبرمة بين الطرفين، سيجعلُه أيضًا يحافظ على استمرارها لبعض الوقت[٢٤]. لكنَّه عندما تأكد أن غريمه عازمٌ على شن الحرب ضد بيزنطة، بعث إليه بسفارة في أواخر عام ٥٣٩م برئاسة أنستاسيوس من دارا Anastasius of Dara ؛ في محاولة لثنيه عن هدفه[٢٥]. لكن لم تحققِ السفارة هدفها؛ لأن كسرى بدأ في شهر مايو عام ٥٤٠م غزو الممتلكات البيزنطية في سوريا، منتهكًا بشكل علني ما يسمى باتفاق السلام الدائم[٢٦].

وهكذا عقب فترة بسيطة من بداية حكم كسرى أنوشروان، وبعدما استتب له الأمر، وأحكم سيطرته على كل الأراضي التابعة له، زحف نحو الأراضي البيزنطية الشرقية[٢٧]. وكان كسرى على دراية بقوة الدفاعات البيزنطية في بلاد ما بين النهرين Mesopotamia ، لذا عبر نهر الفرات Euphrates بشكل سريع متجنبًا حصون تلك البلاد القوية، ومندفعًا نحو شمال سوريا حيث الدفاعات البيزنطية الأقل تحصنًا[٢٨]. وقد تميزت القوات الفارسية المحتشدة للقتال تحت قيادة كسرى بكثرة عددها وشدة عدتها[٢٩]. ورغم أن بروكوبيوس يعد مصدرنا الرئيس في تناول حدث سقوط أنطاكية في أيدي القوات الفارسية، نجده يغض النظر عن تفاصيل قوة الفريقين البيزنطي

والفارسي، وهو ما ينير الطريق لمعرفة السبب الرئيس للنصر من جهة، والهزيمة من جهة أخرى.

وإذا كان بروكوبيوس قد أحجم قلمه عن ذكر عدد قوات الطرفين، نجد الطبري يذكر أنَّ قوات كسرى أنوشروان خلال حملته على أنطاكية تألفت من بضع وتسعين ألف مقاتل[٣٠]. وعلى الرغم من أن هذا الرقم يبدو مبالغًا فيه، إلا أنه يشير إلى تفوق الجيش الفارسي على نظيره البيزنطي خلال هذه الحملة، وهو ما تؤكده أحداث السقوط السريع للمدينة أمام القوات الفارسية.

وفيما يتعلق بالقيادة العسكرية للقوات البيزنطية في الشرق فإنَّها كانت مقسمة آنذاك بين القائدين بوزيس Buzes وبليزاريوس Belisarius، حيث كانت المقاطعات فيما وراء نهر الفرات تحت قيادة الأول، بينما كانت سوريا وآسيا الصغرى تابعة للأخير. ولما كان القائد بليزاريوس خلال تلك الفترة منشغلاً بقتال القوط الشرقيين في إيطاليا فإنَّ الجيش البيزنطي المنوط به مهمة الدفاع عن الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية بأكملها كان تحت قيادة بوزيس لحين عودة بليزاريوس من الغرب الأوروبي[٣١]. وقد وجد القائد بوزيس، الذي كان –حينئذٍ– مرابطًا في مدينة هيرابوليس في شمال سوريا، أنه إذا ما ظلت قواته مرابطة داخل أسوار المدينة، فإنه سيتعرض لخطر الحصار والمجاعة، لذا قاده تفكيره أن يترك قسمًا منها داخل مدينة هيرابوليس، وأن يتجه بالجزء الأكبر من القوات خارج التحصينات الدفاعية، بحيث يكون قادرًا على الانقضاض على القوات الفارسية قبل وصولها إلى مدينة أنطاكية[٣٢]. لكن لم تدخل هذه الخطة حيز التنفيذ؛ حيث كان الضعف والتخاذل الذي انتاب بوزيس سببًا في هروبه قبل الاصطدام بالقوات الفارسية في ساحة القتال[٣٣].

وعندما وصلت أخبار اجتياح الفرس عدد من المدن التابعة للإمبراطورية إلى العاصمة البيزنطة، أرسل الإمبراطور جستنيان ابن أخيه، ويدعى جيرمانوس Germanus مع ابنه جستين Justin إلى مدينة أنطاكية للتصدي للقوات الفارسية[٣٤]. و قُدرت القوة التي خرجت من بيزنطة لنجدة مدينة أنطاكية بثلاثمائة من الجنود، وتعهد الإمبراطور أن جيشًا كبيرًا سوف يتجه للمدينة خلال فترة قصيرة[٣٥]. وعندما وصل جيرمانوس إلى أنطاكية قام بمعاينة تحصينات المدينة لتقييم قدراتها الدفاعية، وكانت النتائج العامة مطمئنة؛ حيث كان جزء كبير من السور الدفاعي المطل على نهر العاصي يمتلك من القوة ما يجعله قادرًا على الصمود ضد القوات المعادية، كما أن التحصينات الموجودة بطول المنحدرات الجنوبية كانت كافية للغرض، باستثناء موضع واحد برزت به صخرة ضخمة ارتفاعها يناهز ارتفاع الأسوار الدفاعية المحصنة[٣٦]. وقد لعبت هذه الصخرة دورًا هامًا في سقوط المدينة؛ لكونها شغلت جانبًا كبيرًا من مسرح الأحداث، ولعل فشل البيزنطيين في إحكام سيطرتهم على هذه الصخرة كان سببًا مباشرًا من أسباب سقوط المدينة في أيدي القوات الفارسية، التي تمكنت من استغلالها لخدمة أغراضها الهجومية والاستيلاء على المدينة.

كيفما كان الأمر، فإنَّ جيرمانوس وجد أنه من الأحرى عزل تلك الصخرة من خلال حفر

خندق بينها وبين السور الدفاعي، أو تقديم مكان السور بهذا الجزء بحيث يتم احتواء الصخرة داخل التحصينات الدفاعية، ولكن لم يلق اقتراح جيرمانوس القبول؛ فقد زعم القائمون على الأمر أنّهم لن يستطيعوا إتمام العمل قبل وصول القوات الفارسية للمدينة، وأنه إذا ما باغتهم الفرس أثناء العمل فسوف يجذبون انتباههم إلى هذا المكان، ويكون ثغرة لاقتحام المدينة من خلاله[٣٧]. وانتاب جيرمانوس القلق من جراء هذا الاعتراض، ولم يكن أمامه سوى انتظار وصول تعزيزات من بيزنطة كما وعده الإمبراطور، لكن مع نفاذ الوقت وعدم وفاء الإمبراطور بوعده ازدادت مخاوف جيرمانوس من احتمال فشله في صد هجوم الفرس على أنطاكية وسقوطها في أيديهم[٣٨].

وعندما بات الأمرُ مرئيًا للعيان أن الدفاع عن المدينة أصبح صعبًا إن لم يكن مستحيلاً قرر الأنطاكيون ضرورة عقد اجتماع لمناقشة الموقف، والسعي لمنع الكارثة المحتملة. وخلال الاجتماع تبين أنه من الأفضل تقديم الأموال للفرس لتجنب الخطر الذي يهددهم، ووقع اختيارهم على ميجاس Megas أسقف مدينة حلب كمبعوث للتفاوض مع كسرى أنوشروان الذي كان – حينئذٍ– بالقرب من مدينة هيرابوليس[٣٩]. وعلى الرغم من توسل الأسقف ميجاس بشدة للملك الفارسي للموافقة على قبول الفدية عن الأنطاكيين، إلا أنه رفض العرض في بادئ الأمر، وأعلن أن رغبته في إخضاع المدينة حتمية وغير قابلة للتغير، كما هدد بالقضاء على كافة أهالي سوريا[٤٠].

ويُظهر حديث الأسقف ميجاس مع كسرى أنوشروان، مدى قوة الجيش الفارسي خلال هذه الحملة، إضافةً إلى الخوف الشديد الذي أصاب الأنطاكيين من احتمالية دخول القوات الفارسية مدينتهم من جهة، ومن جهة أخرى يوضح إدراك الأنطاكيين بمدى ضعف تحصيناتهم الدفاعية، وكذلك يأسهم من وصول تعزيزات من العاصمة البيزنطية تحميهم من الجيش الفارسي في الوقت المناسب.

كيفما كان الأمر، لم يتوقف الأسقف ميجاس عن توسلاته حتى تغير موقف كسرى أنوشروان، ووافق على مغادرة أراضي الإمبراطورية البيزنطية مقابل مبلغ قدره عشرة سنتناريا من الذهب Centenaria[٤١]. ويستنتج عدد من الباحثين المحدثين من تغير موقف كسرى وموافقته على أخذ الفدية؛ أنه لم يكن شغوفًا خلال هذه الحملة بخوض معارك ضارية، ولا راغبًا في ضم أراضٍ بيزنطية، بل كان هدفه الرئيس مجرد انتهاك السلام وجمع أكبر قدر من الغنائم والأموال[٤٢].

وبمجرد موافقة كسرى أنوشروان على أخذ فدية أنطاكية، توجه الأسقف ميجاس على وجه السرعة بتلك الأخبار إلى الأنطاكيين، لكن عندما وصل إلى أنطاكية وجد الأمر قد تغير رأسًا على عقب؛ ففي الوقت الذي كان يتفاوض فيه مع الفرس لقبول الفدية وصل مبعوثان من بيزنطة إلي المدينة، هما يوحنا روفينوس John Rufinus وجوليان Julian السكرتير الخاص للإمبراطور جستنيان، وقد أعلن المبعوثان رفض الإمبراطور مسألة دفع الأموال للفرس، وأكدا على ضرورة

الصمود والتصدي للقوات الفارسية[٤٣]. وتبرير ذلك أن الإمبراطور كان مهتمًا بمنع عقد الاتفاقات المنفصلة مع العدو؛ لأنها ستصبح عملية أكثر تكلفة، وستعيق في المستقبل المساعي الدبلوماسية لإقامة تفاوض على مستوى أعلى[٤٤].

وكانت النتيجة المباشرة لرفض تقديم الفدية للفرس هي قيام القائد جيرمانوس بمغادرة أنطاكية إلى قليقية Cilicia، الواقعة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، تاركًا الجزء الأكبر من جنوده للدفاع عن المدينة[٤٥]. ولابد من التوقف قليلاً عند دور جيرمانوس ابن شقيق الإمبراطور البيزنطي في سقوط أنطاكية، فرغم أن جيرمانوس خلال الفترة التي قضاها في المدينة كان بمثابة القائد العام للقوات البيزنطية، لكنه لم يقم بالدور الذي كان يجب أن يقوم به، ورغم ذلك يغض بروكوبيوس النظر عن هذا التصرف الذي يسئ إلى جيرمانوس؛ لكونه من أقارب الإمبراطور. بل أنه طمس أي مشاركة لجيرمانوس في قرار عدم التصدي للقوات الفارسية ودفع فدية عن المدينة، رغم أنه كان متواجدًا في المدينة عندما قرر أهلها دفع الفدية. كما يظهر تحيز بروكوبيوس للقائد جيرمانوس في موضع آخر عندما يغض الطرف عن مسلكه المخزي حينما غادر أنطاكية وهي على وشك السقوط في أيدي الفرس، بدلاً من البقاء والصمود للدفاع عن أهم مدن الإمبراطورية وعاصمتها في الشرق.

وعلى الجانب الآخر يصرح المؤرخ البيزنطي يوحنا مالالاس بفشل القائد جيرمانوس في الدفاع عن أنطاكية، حينما يذكر أنه غادر المدينة دون أن يتمكن من تحقيق شيء يحميها من الفرس[٤٦]. ولم يكتف مالالاس بتسجيل فشل مهمة جيرمانوس في الدفاع عن أنطاكية، لكنه رصد أمرًا لم يورد بروكوبيوس أي إشارة له، فيذكر أنه خلال الفترة الوجيزة التي قضاها جيرمانوس في أنطاكية حاول التربح مستغلاً الأزمة التي تتعرض لها المدينة؛ فكان يشتري الفضة من الأنطاكيين بأقل من قيمتها الفعلية[٤٧]. ويفسر أحد الباحثين المحدثين تصرف القائد جيرمانوس وقيامه بشراء الفضة من الأنطاكيين بأنَّه كان لأغراض شرعية؛ والمتمثلة في منع وصول الفضة للفرس الذين يفضلونها عن الذهب، حيث غالبية العملات الفارسية —حينئذ– من الفضة[٤٨].

ولم يكن جيرمانوس الشخصية الوحيدة التي غادرت مدينة أنطاكية قبيل الهجوم الفارسي عليها، فقد كانت الأوضاع داخل المدينة تزداد سوءاً مما دفع بعض الشخصيات التي تحتل مكانة كبيرة للفرار منها، وكان في مقدمة من غادر المدينة إفرايميوس من آمد Ephraemius of Amida أسقف أنطاكية (٥٢٦–٥٤٦م)، الذي اتهمه بروكوبيوس بالخيانة؛ لرغبته الشديدة في دفع الفدية للملك الفارسي؛ ولكونه أيضًا غادر المدينة إلى قليقية خوفًا على نفسه من القوات الفارسية بدلاً من الصمود، ودعم الأنطاكيين في الدفاع عن مدينتهم[٤٩]. بينما يذكر إيفاجريوس، رداً على بروكوبيوس ودفاعًا عن الأسقف إفرايميوس؛ أنه لم يغادر المدينة إلا بعدما فشلت كل خططه في إنقاذها، وكانت إحداها دفع الفدية، وبعدما أصبح على يقين أنه لا جدوى من المقاومة[٥٠].

كيفما كان الأمر، بعد مغادرة القائد جيرمانوس والأسقف إفرايميوس المدينة، وبعدما أصر السفراء البيزنطيون على عدم دفع الفدية للفرس توجه الأسقف ميجاس مرة أخري لمقابلة كسرى أنوشروان الذي كان –حينئذٍ– يحاصر مدينة حلب، وأخبره برفض الإمبراطور جستنيان دفع الفدية، وهو ما دفع كسرى للزحف بكامل جيشه نحو أنطاكية بهدف الاستيلاء عليها[٥١]. ومع اقتراب الجيش الفارسي من المدينة، هرب العديد من الأنطاكيين بما استطاعوا حمله من أموال، وكان الباقون على وشك القيام بالشئ ذاته قبل أن يصل إلى المدينة اثنان من القادة البيزنطيين يُدعيان ثيوكتيستاس Theoctistus ومولاتزيس Molatzes، بصحبة قوة قوامها ستة آلاف جندي من الحاميات البيزنطية المرابطة بسوريا، وهو ما ساعد على بث روح الحماسة داخل الأنطاكيين، وشجعهم على الصمود، وحال بينهم وبين مغادرة المدينة[٥٢]. هذا إلى جانب مشاركة مجموعات من شباب المدينة الذين تجمعوا وصمموا على حمل السلاح لمساعدة القوات النظامية في التصدي للفرس[٥٣].

ولم يمر وقت طويل على دخول هذه القوة البيزنطية مدينة أنطاكية حتى وصلت إليها القوات الفارسية، وأقامت معسكرًا لها خارج أسوار المدينة في مواجهة نهر العاصي، وعلى الفور أرسل كل طرف مندوبيه للتحدث إلى الطرف الآخر، فتم إيفاد مندوب من قبل كسرى يدعى باولوس Paulus؛ لمطالبة الأنطاكيين بدفع الفدية مقابل الانسحاب من أمام أبواب مدينتهم. كما تم إيفاد عدد من الأنطاكيين لمقابلة كسرى أنوشروان للتفاوض معه، ورغم أنهم تحدثوا حديثًا مطولاً بشأن قيامه بخرق الهدنة، لم يتوصلوا إلى سبيل لحل الأزمة، حيث كان إصرارهم على تنفيذ رغبة الإمبراطور جستنيان بعدم دفع الفدية، هو العائق للوصول إلى أية تسوية[٥٤].

ولم يكتف الأنطاكيون بتنفيذ أوامر الإمبراطور البيزنطي برفض دفع الفدية للفرس، لكنهم ازدحموا أمام الأسوار الدفاعية المواجهة للمعسكر الفارسي، وتطاولوا بالسباب والألفاظ غير اللائقة على كسرى أنوشروان، وأوشكوا على قتل المندوب الفارسي بقذائف من أقواسهم عندما حثهم على شراء حرية مدينتهم مقابل دفع الفدية، لكن الأنطاكيين دفعوا ثمن هذا التهور والاندفاع غاليًا، فما أقدموا عليه من إهانة للملك الفارسي قد أثار غضبه فقرر مهاجمة المدينة بكامل قواته، فهاجم قسم من جيشه المدينة من خلال نقاط مختلفة على طول نهر العاصي، بينما قاد بنفسه القسم الأخر الأكبر ملتفًا به حول المرتفعات الجنوبية؛ استعدادًا لاقتحام المدينة. وهكذا لم يعد أمام القوات الأنطاكية والبيزنطية داخل المدينة سوى المواجهة، وباتت النتيجة محتومة، فقد أدركت هذه القوات أن السور الدفاعي كان من الضعف بحيث لا يسمح بتواجد عدد كافٍ من المدافعين، لذا قاموا بربط ألواح خشبية طويلة ببعضها البعض لتكوين منصة خشبية، وعلقوها بالحبال بين البرجيْن الدفاعيين عند سور المدينة، وبهذه الكيفية تتسع رقعة المقاومة، وتزداد المساحات عرضًا، فيتمكن عدد أكبر من الرجال أن يصدوا هجوم الفرس[٥٥].

وقد بدأ الهجوم الفارسي على مدينة أنطاكية من النقطة غير الحصينة عند الصخرة الكبرى- سالفة الذكر-، ومن خلالها أرسل الفرس سهامهم بكثافة، لكن أظهر الجنود البيزنطيون بسالة واضحة في المقاومة، ونظرًا لسعة عرض الصخرة، وتساوي ارتفاعها بارتفاع التحصينات، صار القتال يجري كما لو كان على أرض مستوية، لكن بينما كان البيزنطيون يدافعون عن المدينة بأعداد كبيرة، خانت الحبال عهودها، فلم تتمكن من تحمل ثقل وزن الجنود فانقطعت فجأة، وسقطت المنصة الخشبية المقامة ما بين البرجيْن الدفاعيين بمن عليها على الأرض، مما أدى إلى نشر الرعب بين المدافعين البيزنطيين، فسارعوا بالفرار تاركين مواقعهم، مما تسبب في زيادة الارتباك والفوضى[٥٦].

ومع اللحظات الأولى لدخول الفرس أنطاكية، اندفعت حشود كبيرة من الأنطاكيين وبرفقتهم نسائهم وأطفالهم باتجاه بوابات المدينة؛ بسبب شائعة كاذبة راجت المدينة، وهي أن القائد بوزيس قادم على رأس قوة بيزنطية لإنقاذ المدينة، وأن على الجميع التوجه سريعًا لملاقاته، ومحاربة الفرس معه. وقد أدى التزاحم والاندفاع الشديد إلى تساقط أعداد كبيرة من الأنطاكيين تارة تحت أقدام الجنود البيزنطيين أثناء فرارهم من المدينة، وتارة أخرى تحت أقدام جنود الفرس الذين اتخذوا جثثهم معبراً يسيرون عليه، وهكذا لم يدخل الفرس أنطاكية إلا بعد خسائر كبيرة في الأرواح خاصة حول بوابات المدينة[٥٧].

وكانت خطة كسرى أنوشروان أن تكون المدينة خالصة للفرس، خالية من الأنطاكيين والبيزنطيين؛ لذا ترك عمدًا البوابة المؤدية إلى الضاحية الجنوبية الغربية للمدينة، والمعروفة بضاحية دافني Daphne، مفتوحة ودون حراسة؛ للتخلص من البقية الباقية داخل المدينة. كما أمر جنوده بإعطاء إشارات بأيديهم للهاربين من المدينة لتشجيعهم على الفرار بأسرع ما يمكنهم[٥٨]. لا شك أن كسرى أنوشروان يتمتع بحنكة القائد عندما أراد سحب القوات المعادية حتى تتألق شمس قواته، وينعم بسماء خالية من الأنطاكيين الذين كان من الممكن أن يتراجعوا عن قرار الفرار ويصبحون عائقًا أمامه، وهو ما كان يمكن أن يحدث أمام اجتياح الفرس لمدينة مثل أنطاكية.

وهكذا خلت المدينة ممن كان فيها من الأهالي والجنود البيزنطيين، بيد أن جنود الفرس لم تصف روحهم لهذا الهدوء، فظلوا داخل التحصينات الدفاعية؛ خوفًا من كمين ربما يكون قد أُعِدَّ لهم، وعندما أدركوا أن هذا الخوف لا مبرر له اتجهوا إلى مركز المدينة، وهنالك كان عليهم مواجهة جماعات من شباب أنطاكية، ممن كان بعضهم مسلحًا تسليحًا خفيفًا، بينما كان البعض الآخر لا يحمل سوى العصي التي ربطت في مقدماتها بعض الأحجار. ولكن هيهات هيهات، فكيف يقارن هذا بذاك، لكنها روح الوطنية التي دفعتهم للدفاع عن مدينتهم، وعلى الصعيد الآخر قتل جنود الفرس أعدادًا كبيرة من الأنطاكيين، ثم أمرهم كسرى بالقبض على من تبقى من أهالي المدينة[٥٩]. وقد حدد بروكوبيوس عدد من تم قتلهم وأسرهم من الأنطاكيين على يد القوات الفارسية بثلاثمائة ألف شخص[٦٠]. ورغم أن هذا الرقم قد يكون مبالغًا فيه، لكنه يشير إلى ثقل الكارثة، وضخامة الهزيمة والخسائر التي حلت بمدينة أنطاكية وأهلها على يد القوات الفارسية.

ظل كسرى أنوشروان يحاصر ويحارب الأنطاكيين لمدة ثلاثة أيام[٦١]، ونجح بعدها في الاستيلاء على أنطاكية في شهر يونيو عام ٥٤٠م[٦٢]. وعقب اقتحام القوات الفارسية للمدينة تم تدمير كل شيء بها، كما تم نهب جميع ثرواتها[٦٣]. وسرعان ما نقُلت الثروات والمشغولات الذهبية والفضية والأحجار الكريمة إلى البلاط الفارسي[٦٤]. ويؤكد ميخائيل السرياني Michael the Syrian(١١٢٦– ١١٩٩م) أن جند الفرس نهبوا أنطاكية نهبًا ذريعًا، حتى أنهم انتزعوا قطع البلاط والرخام التي زُينت بها بعض الجدران، وأخذوها إلى بلادهم[٦٥]. وعندما انتهى الجيش الفارسي من نهب ممتلكات وثروات المدينة، أعطى كسرى أوامره إلى جنوده بحرق المدينة بأكملها باستثناء كنيستها؛ بعدما توسل له السفراء البيزنطيون لمنع يد جنوده عنها[٦٦].

واتفق المؤرخ إيفاجريوس مع بروكوبيوس على أن كسرى أنوشروان استثنى كنيسة المدينة من التدمير بناءً على وساطة السفراء البيزنطيين، إلا أن إيفاجريوس ينسب الفضل في تحقيق ذلك إلى إفراييوس أسقف المدينة الذي ترك متعمدًا الكنوز داخل الكنيسة؛ لتكون بمثابة فدية وحافزًا للغزاة للإبقاء على المبني[٦٧]. ولم يحدد المؤرخان اسم الكنيسة التي رفع الفرس أيديهم عنها، لكنها كانت أهم الكنائس في أنطاكية آنذاك، وربما أنَّها كنيسة العذراء The Church of the Virgin، التي شيدها الإمبراطور جستنيان بعد الزلزال الذي أصاب المدينة عام ٥٢٦م[٦٨].

وقد ترك سقوط مدينة أنطاكية في أيدي الفرس أثرًا عميقًا في نفوس المعاصرين، واهتزت بيزنطة لهذا الحدث، ونتيجة لهذا أسرعت بعقد الصلح مع الفرس، فأرسل الإمبراطور جستنيان سفراء إلى كسرى أنوشروان؛ لحثه على إنهاء هجماته على مدن الإمبراطورية[٦٩]. وأعرب كسرى عن استعداده لقبول السلام، والرحيل بجيشه إلى بلاده، لكنه اشترط حصوله على خمسين سنتناريا من الذهب تُدفع فوريًا، ومبلغ سنوي قدره خمسة سنتناريا من الذهب، وبهذه الشروط توجه السفراء إلى بيزنطة لعرضها على الإمبراطور البيزنطي[٧٠]. تقدم كسرى بعد تدمير أنطاكية نحو سلوقية Seleucia ، الميناء الرئيسي للمدينة؛ للاستحمام بمفرده في مياه البحر المتوسط، وتقديم القرابين للشمس، ثم عاد لمعسكره بالقرب من أنطاكية[٧١]. وربما كان تبرير هذا التصرف من كسرى أنوشروان هو رغبته في تجديد الذكريات مع البحر الذي كان في فترة من الفترات يمثل الحد الغربي للإمبراطورية الفارسية، وهذا يؤكد تقسيم الأسباب التي دفعته لغزو أنطاكية، وهي أسباب عدائية أزلية محلها الصراع، وأسباب توسعية بغيتها الأطماع.

ولا شك أن كسرى أنوشروان أدرك أهمية الانتصار الذي حققه باجتياحه مدينة أنطاكية العريقة[٧٢]، لذا بعد دخوله المدينة أصدر أوامره إلى قادة العجلات الحربية بالتوجه نحو ساحة السباق لممارسة مسابقاتهم المعتادة[٧٣]. وقد شجع كسرى فريق الخضر كإعلان للنصر الذي حققه؛ لأن الإمبراطور جستنيان كان يساند فريق الزرق لفترة طويلة قبل أن يصبح إمبراطورًا، ولكن تمكن فريق الزرق من إحراز الفوز على فريق الخضر، مما أثار غضب كسرى فقام على الفور

بإرجاع الخيول المنتصرة إلى المؤخرة، بينما تقدم وبصحبته فريق الخضر إلى المقدمة، معلناً النصر لهذا الفريق[٧٤]. ولعل كسرى أراد بهذا التصرف أن يعلن للجميع أن النصر للأقوى، وأن الهزيمة ليس لها عنوانٌ في قاموسه.

جدير بالذكر، أنه كانت هناك فرصة لإطلاق سراح الأسرى الأنطاكيين قبل مغادرتهم الأراضي البيزنطية؛ فقد تقابل السفراء البيزنطيون مع كسرى بينما كان يحاصر مدينة الرها Edessa، وأخبروه أن الإمبراطور جستنيان وافق على الشروط الفارسية التي سبق أن اقترحها بشأن اتفاق السلام، وعليه تم رفع الحصار عن الرها. وكان كسرى مولعاً بحب المال، فإذا كانت الرهينة مقابل الدفع فلا مانع، ومن ثم شرع في إطلاق سراح الرهائن قبل الرحيل، فأعلن عن رغبته في بيع الأسرى الأنطاكيين مقابل مبلغ من المال[٧٥]. وعندما علم أهالي مدينة الرها بالأمر، سارعوا بالاشتراك في جمع المبلغ المطلوب، حتى المزارعين الذين ليس لديهم الكثير من المال قدموا بعضًا من محاصيلهم، كما تجردت بعض النساء من الحلي، ولكن رغم تجميع مبلغ كبير من الذهب والفضة، إلا أن قطعة واحدة منه لم تصل للملك الفارسي؛ نظرًا لقيام القائد بوزيس، الذي كان متواجدًا في الرها آنذاك، بمنع سكانها من دفع الأموال إلى الفرس؛ إيمانًا بأن مسعاه سيعود عليه بالنفع وسيعيد له جزءًا من كرامته المهدرة[٧٦].

وبذلك يتضح أن الهدف الرئيس من حملة كسرى أنوشروان على مدينة أنطاكية هو جمع المال والأسرى، وربما إذا وافق القائد بوزيس على تسليم الأموال التي جمعها أهالي مدينة الرها لكسرى لكان من الممكن تحرير الأسرى الأنطاكيين من الأسر، وحال دون ترحيلهم لبلاد فارس، لكن لم يتخذ بوزيس قرارًا سديدًا، ولم ير مستقبل أنطاكية وشبابها رؤية قائدٍ حريص على مواطنيه، فتسرب الأمر من بين يديه –عن عمد– ورحل من رحل إلى بلاد الفرس، وأي كرامة تمتع بها القائد في ذلك !.

وكيفما كان الأمر، عاد كسرى أنوشروان عقب هذه الأحداث إلى بلاده محملاً بثروة هائلة، بعدما أفرغ مدينة أنطاكية من كنوزها وخزائنها[٧٧]. كما ساق جنوده أعدادًا كبيرة من الأسرى الأنطاكيين إلى بلادهم[٧٨]. وتتفق الروايات الفارسية والعربية والسريانية مع رواية بروكوبيوس فيما يتعلق ببناء مدينة أنطاكية الجديدة، حيث تذكر هذه الروايات أن أسرى أنطاكية تم توطينهم في مدينة تشبه أنطاكية بناها كسرى أنوشروان خصيصاً لهم بالقرب من العاصمة الفارسية المدائن Al-Mada'in[٧٩]. وإن كان الطبري يبالغ بعض الشيء حين يذكر أنَّها كانت نسخة مطابقة لمدينة أنطاكية السورية، وأنَّها حملت نفس تفاصيل بنائها وعدد منازلها وشوارعها وكل شيء، لذا بمجرد دخول الأسرى الأنطاكيين من باب المدينة الجديدة توجهت كل جماعة منهم إلى المنزل الموازي له في مدينتهم التي عاشوا فيها من قبل كأنهم لم يغادروها مطلقاً[٨٠]. وأطلق كسرى أنوشروان على هذه المدينة الجديدة "أنطاكية كسرى"، ومنح الأسرى الأنطاكيين مزايا خاصة كالإنفاق عليهم

من ميزانية الإمبراطورية[٨١]. ولعل قيام كسرى أنوشروان ببناء مدينة تحمل نفس اسم وصفات مدينة أنطاكية السورية، وكذلك اهتمامه بمن فيها له مغزى قوي وهو التنافس والتحدي للإمبراطور البيزنطي جستنيان من جهة؛ ومن جهة أخرى إشعار الأسرى الأنطاكيين بأنهم سيعيشون حياة أفضل تحت مظلة الحكم الفارسي.

ومثلما تعددت الروايات في عرض الأسباب التي دفعت كسرى أنوشروان لشن حملته على مدينة أنطاكية، فقد تعددت أيضًا في رصد الأسباب التي أدت إلى سقوطها في أيدي القوات الفارسية. فيذكر بروكوبيوس أن الخطأ التكتيكي الذي وقعت فيه القوات البيزنطية، والمتمثل في عدم إحكام سيطرتها على الصخرة المجاورة للسور الدفاعي كان سببًا رئيسًا في سقوط المدينة، ويؤكد أنها ما كانت لتتعرض لأي خطر على يد الجيش الفارسي في حالة إحكام القوات البيزنطية سيطرتها على الصخرة؛ حيث كانت قادرة عندئذٍ على تصويب سيل من القذائف من أعلى الصخرة والسور الدفاعي في نفس الوقت؛ لكن نظرًا لأن هذه الفكرة لم تخطر ببال أحد من البيزنطيين، فقد أصبح من السهل على المدينة أن تسقط في يد الجيش الفارسي[٨٢].

ورغم أن بروكوبيوس يقرُّ بفشل البيزنطيين وسوء تخطيطهم في الدفاع عن أنطاكية، نجده يُرجع سقوط المدينة في النهاية إلى القدر والإرادة الإلهية، وذلك عندما يقول: "إنني ارتعد عندما أصف هذه الكارثة الكبيرة، وأنقلها إلى الأجيال القادمة، كما أنني لا استطيع أن أفهم السبب في أن إرادة الإله تقتضي أن يصل إنسان أو مكان إلى قمة المجد، ثم أن يَحُطَّ من شأنهما ويدمرهما دونما سبب واضح لنا". ومما يدل على تغلغل هذه الفكرة لدى بروكوبيوس حينما نجده يكررها مرةً أخرى عندما يقول: "لأنه من الخطأ أن نقول إن كافة الأمور لا تتم دائمًا بمنطق مع الإله، على الرغم من أنه شاء أن يرى أنطاكية وقد تساوت بالأرض على يد أكثر الناس إلحاداً، وهي مدينة لا يمكن على الإطلاق إخفاء جمالها وعظمتها في كافة المجالات!"[٨٣].

ويختلف المؤرخ البيزنطي إيفاجريوس مع ما ذكره بروكوبيوس في أن الإرادة الإلهية كانت سببًا في سقوط مدينة أنطاكية، ويرد عليه بأنَّ الإله هو الذي قدم الدعم للبيزنطيين، وساعدهم على إحراز الانتصارات التي تمت في الشمال الأفريقي والغرب الأوروبي، والتي سجلها بروكوبيوس نفسه[٨٤]. ومن ناحية أخرى يذكر المؤرخ السرياني زكريا الميتيليني أن سقوط مدينة أنطاكية في أيدي الفرس كان عقابًا من الرب على رفض كنيسة أنطاكية المذهب المونوفيزيتي، والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية، وهو ما حدث قبل عامين من سقوط المدينة، وللأسف لم يُحفظ لنا الفصل الذي قام زكريا الميتيليني بتدوينه عن زحف الفرس على مدينة أنطاكية[٨٥].

ويذكر عدد من الباحثين المحدثين أراءً تؤكد أن السبب الرئيس لسقوط أنطاكية يتمثل في ضعف التحصينات البيزنطية، وقلة أعداد الحامية المدافعة عن المدينة. فيرى أحدهم أن انشغال الجزء الأكبر من الجيش البيزنطي بالقتال في الغرب الأوروبي، جعل الحاميات العسكرية المتواجدة

في الشرق غير كافية لمقاومة تقدم الجيش الفارسي[٨٦]. في حين يرى باحثٌ آخر، أن عدم وجود نظام دفاعي قوي في سوريا ككل كان سببًا رئيسًا في تسهيل مهمة الجيش الفارسي بشكل عام، وساعده على دخول أنطاكية، وابتزاز كميات كبيرة من الذهب والفضة من أهلها[٨٧]. وعلى الرغم من أنه كثيرًا ما يستشهد بالنجاح الذي حققه كسرى أنوشروان باجتياحه مدينة أنطاكية كدليل على إهمال الإمبراطور جستنيان للأوضاع العسكرية في المقاطعات الشرقية للإمبراطورية، يتخذ أحد الباحثين المحدثين وجهة نظر مختلفة، فيرى أن الدفاعات البيزنطية في الشرق كانت في حالة معقولة، لكن الحاميات المنتشرة هناك لم تحصل على فرصة كافية لمقاومة الجيش الفارسي، ومن ثم لم يكن أمامها إلا الصمود في المدن المحصنة حتى وصول الدعم المنتظر من القسطنطينية[٨٨].

وترى الباحثة أن هناك أسبابًا أخرى ساعدت على سقوط مدينة أنطاكية، فعلى الجانب البيزنطي تمثلت الأسباب في عدم الإجماع على ضرورة دفع الفدية التي قدرها الفرس، وربما لو اقتنع السفراء البيزنطيون – منذ البداية – بضرورة دفع الأموال إلى الفرس، لنجت المدينة من البلاء العظيم الذي حل بها وبأهلها. إضافة إلى استهانة الإمبراطور جستنيان الواضحة بقوة الجيش الفارسي الذي كان في طريقه لمهاجمة المدينة، والذي قدره الطبري ببضع وتسعين ألف مقاتل، فنجده يرسل قوة من العاصمة البيزنطية تقدر بثلاثمائة مقاتل، وهو عدد متدني لا يتناسب مع ضخامة الجيش الفارسي، مع الاكتفاء بمجرد تقديم الوعود بإرسال قوات أكبر فيما بعد لصد الهجوم الفارسي، وهو الوعد الذي لم يلتزم به حتى سقطت المدينة في أيدي الفرس.

إضافة إلى استهانة الإمبراطور البيزنطي جستنيان بقوة الجيش الفارسي، كان هناك عوامل أخرى من الجانب البيزنطي ساعدت الفرس على دخول المدينة، ومنها الرفض التام للاقتراح الذي أشار به القائد جيرمانوس، حينما اقترح عزل الصخرة من خلال حفر خندق بينها وبين السور الدفاعي، أو ضمها إلى التحصينات الدفاعية. كذلك كان هروب القادة بوزيس وجيرمانوس، وعدم تحملهما المسئولية، سببًا مباشرًا في الهزيمة.

أمَّا على الجانب الفارسي فقد قدر كسرى أنوشروان كلام المنذر، وأولى نصيحته اهتمامًا كبيرًا، فصارت أنطاكية بثرواتها الضخمة هدفه الذي سعى لتحقيقه، فحشد جيشًا ضخمًا فاق القوات البيزنطية المتواجدة في شمال سوريا. إضافة إلى أمور حربية تكتيكية أخرى ساعدت الفرس على إحراز النصر، كان أهمها إحكام سيطرتهم على الصخرة، واتخاذها ركيزة لمهاجمة المدينة، كذلك إتاحة الفرصة لمن داخل المدينة للفرار منها .

لكن إذ وقعت الواقعة فكانت آثارها واضحة، فقد بدا الحزن ظاهرًا، واغتم الإمبراطور جستنيان غمًا شديدًا، ولبس الحداد لتلك الكارثة الرهيبة التي تعرضت لها مدينة أنطاكية على أيدي القوات الفارسية[٨٩]. ولعل ذلك ما جعله يصدر أوامره بضرورة إعادة بناء المدينة وإصلاحها، خاصة بعدما عاد إليها الأنطاكيون الذين غادروها أثناء اجتياح القوات الفارسية لها، فتم إيفاد الكثير من العمال

والمختصين من مناطق أخرى؛ لإعادة تعمير المدينة وبناء الأسوار والشوارع والمباني العامة، كما تم بناء كنيسة جديدة[٩٠]. وهكذا نهضت مدينة أنطاكية من بين الخرائب والركام مدينة جديدة أكثر بهاءً، وأبعد شهرة من الأولى، واستعادت زهرة ازدهارها، وصارت مركزًا للحياة الفكرية، ومنهلاً للحياة العلمية في الشرق[٩١].

وكان سقوط مدينة أنطاكية في أيدي القوات الفارسية عام ٥٤٠م بداية لسلسلة جديدة من الحروب بين بيزنطة وفارس؛ فقد سحب الإمبراطور جستنيان موافقته على الهدنة، بعدما هاجم الفرس مدينة دارا، وهم في طريق العودة لبلادهم[٩٢]. وفي العام التالي أرسل كل قواته الممكنة إلى المقاطعات الشرقية للإمبراطورية لمحاربة الفرس، وعيَّن قائده الشهير بليزاريوس قائدًا عامًا للقوات البيزنطية في الشرق[٩٣]. حيث استمرت الحروب قائمة بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية لأكثر من عشرين عامًا، حتى اتفقا على الصلح النهائي عام ٥٦٢م، لمدة خمسين عامًا[٩٤].

هوامش البحث

1- Balciogullari, A., Historical Geography of Antioch, The Queen of the East : Through Arab Travelers, in International Journal of Culture and History, Vol. I, No. I, September, 2015, p.46.

2- Bouchier, M., A short History of Antioch, B.C.300-A.D.1268, Oxford, 1921, pp.1-8.

3- Charlesworth, M., Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge,1926, pp.37-40; Downey,G., A History of Antioch in Syria, Princeton, 1961, p.15.

٤- أسد رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، المكتبة البولسية ، بيروت، ١٩٨٨، ج ١ ، ص٢٤-٢٥.

5- Agathias, The Histories, translated with an introduction and short explanatory notes by Frendo, J., Berlin, 1975;Theophanes,The Chronicle of Theophanes Confessor: Byzantine and Near Eastern History A. D. 284-813, trans. Mango, C., & Scott, R., Oxford, 1997; Chronicon Paschale, translated with noted and introduction by Whitby, M., and Whitby, M., Liverpool,1989.

6- The chronicle of John Malalas, trans. by Jeffreys, E., Jeffreys, M. and Scott, R., with others, Australian Association for Byzantine Studies, Melbourne, 1986, p.285.

7- The Ecclesiastical History of Evagrius Scholasticus, Trans. Whitby, M., Liverpool,2000, p.223.

8- Procopius, History of the Wars, English translation by Dewing, H., 6 vols., 1914, London, vol.I., book I. xxii.17-19, pp.208-209. CF also : Evans, A., Justinian and Historian Procopius, in Greece and Rome, Vol. 17, No. 2 ,Oct., 1970, p.220.

اشتملت اتفاقية عام ٥٣٢م بين بيزنطة وفارس على العديد من البنود، كان أهمها قيام بيزنطة بدفع مبالغ كبيرة للفرس، كذلك تخلى الفرس عن مناطق هامة في إقليم لازيقا Lazika . لمزيد من التفاصيل حول هذه الاتفاقية. راجع :

Zachariah Rhetor, The chronicle of pseudo- Zachariah Rhetor, Church and War in late Antiquity, ed. Greatrex, G., trans. Phenix, R. and Horn, C., Liverpool, 2011, pp.71-72; Procopius, History of the Wars, vol. I., book I. xxii.1-19, pp.202-209; John Malalas, The chronicle of John Malalas, p.282.CF.also: Greatrex,G., Procopius and Persian Wars, Ph. D. thesis,Oxford,1994,pp.218-219.

9- Winter, E., and Dignas, B., Rome and Persia in Late antiquity : Neightbours and Rivals, New York, 2007, p.39; Holmes, W., The age of Justinian and Theodora, A history of the Sixth Century, London,1907, 2 vols., vol. II, p.584.

10- Evagrius Scholasticus, The Ecclesiastical History, p.222;Procopius, History of the Wars, vol. I, book I. xxvi.1-2, pp.252-253.CF also: Winter, and Dignas, Rome and Persia, p.39.

عندما وصلت أخبار انتصارات القائد البيزنطي بليزاريوس في الشمال الإفريقي إلى الفرس، انتاب كسرى غضبٌ شديدٌ، ورغم ذلك أرسل مبعوثين إلى بيزنطة لتهنئة الإمبراطور جستنيان، وتسأل كسرى مازحًا عن نصيبه من الغنائم؛ معللاً أن الإمبراطور البيزنطي لم يكن ليتمكن من قهر الوندال لو لم يكن في سلام مع الفرس. وقد أخذ جستنيان المزاح على محمل الجد، وأرسل مبلغًا من المال إلى كسرى على سبيل الهدية، لكن الأخير طرد السفراء، مما يؤكد عزمه على التحرك العسكري ضد بيزنطة. راجع:

Procopius, History of the Wars, vol. I, book I. xxvi.1-2, pp.252-253.

١١- الفردوسي: الشاهنامة ملحمة الفرس الكبرى، ترجمة سمير مالطي، دار العلم، بيروت،١٩٧٧،ص ١٧١؛ يوحنا الأسيوي: تاريخ الكنيسة (الكتاب الثالث) ، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٢.

١٢- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، دار المعارف، (د ت)، ج ٢، ص ١٤٨-١٤٩. راجع أيضًا :

Greatrex, G., and Lieu, S. (ed.) The Roman eastern frontier and Persian Wars, A narrative Sourcebook, London, 2005, Part II AD 363–630, pp.102-103.

13- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. i.1-15,pp.262-365 .

امتد الصراع بين الفرس والبيزنطيين إلى قيام كل طرف منهما بمحاولة لفرض السيادة على العرب المتواجدين في المناطق الحدودية بين البلدين، فعهدت بيزنطة وفارس منذ النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي بمهمة الدفاع عن حدودها إلى بعض القادة العرب الذين لعبوا دورًا حاسمًا في المواجهات العسكرية بين القوتين، فكان الفرس يدعمون عرب الحيرة اللخميين Lahmids، بينما كان البيزنطيون يدعمون عرب الغساسنةGhassanids . راجع :

Winter, and Dignas, Rome and Persia, p.169;Evans, Justinian and Historian Procopius, p.221.

14- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. ii.1-2, pp.264-265. CF also: Winter, and Dignas, Rome and Persia, p.106; Whitby, M., Rome at War AD 293-696, Oxford, 2002, p.56; Bury, J., History of the later Roman Empire, London, 1923, vol. II, p.92.

15- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. ii.3-11, pp.266-269. CF also; Daryaee, T., Sasanian Persia, The rise and fall an Empire, London, 2009, pp.30-31.

16- History of the Wars, vol.I., book II. ii.12, pp.268-269.

17- Winter and Dignas, Rome and Persia, pp.106-107.

١٨- تاريخ الكنيسة، ص ١٢ .

19- The chronicle, p.72.

20- Greatrex, G., Byzantium and the east in the Six Century, in The Cambridge Companion to the Age of Justinian, ed., Maas, M., Cambridge, 2005, p.488.

21- Oman, Ch., The story of the Byzantine Empire, New York,1992, pp.98-99.

22- Procopius, History of the Wars, vol.I., book I. xvii.37-39, pp.154-157.

٢٣- الفردوسي: الشاهنامة، ص ١٧١ .

24- Treadgold, W., A History of Byzantine State and Society, California, 1997, p.193.

25- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. iv.17-26, pp.290-293. CF also: Stein, E, Histoire du Bas - Empire: De la disparition de l'Empire d'Occident à la mort de Justinien (476-565), Paris,1949, tome II, p.486.

26- The Chronicle of Edessa, ed., by Cowper, B., in the journal of SacredLiterature and Biblical Record, London,1864,vol.5,p.39; Evagrius Scholasticus, The Ecclesiastical History, pp.222-223;Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. vi, pp.294-295. CF also: Greatrex, Byzantium and the east in the Six Century, p.488.

٢٧- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص١٠٢ .

راجع أيضًا :

Greatrex, and Lieu , The Roman eastern frontier, p.107; Winter, and Dignas, Rome and Persia, p.262.

28- Oman, Ch., The dark Ages,476-918, London,1898, p.92; Greatrex, Byzantium and the east in the Six Century, pp.488-489.

29- The Chronicle of Zuqnin, parts III- IV A.D. 488-775, translated from Syriac with noted and introduction by Harrak,A.,Toronto,1999,p.86.

٣٠- تاريخ الرسل والملوك ، ص ١٤٩.

31- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II.vi.1-2,pp.304-305. CF also: Bury, History of the later Roman Empire, p.95; Stein, Histoire du Bas – Empire, p.487.

32- Procopius, History of the Wars, vol. I, book II, vi.3-8, pp.304-307 .CF also: Downey, G., The Persian Campaign in Syria in A.D. 540, in Speculum, vol. 28, No. 2, Apr.,1953, p.340 .

٣٣- خريسوستمس بابادو بولس: تاريخ كنيسة أنطاكية، تعريب الأسقف استفانس حداد،١٩٨٤،ص٣٥٣.

34- Marcellinus Comes, The Chronicle of Marcellinus, Trans. Croke, B., Australian Association for Byzantine Studies, Sydney,1995,p.133; John Malalas, The chronicle of John Malalas, p.285.CF also:

Downey, The Persian Campaign, p.346; Greatrex, and Lieu, The Roman eastern frontier, pp.103-104 .

35- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II.vi.9,pp.308-309. CF also: Downey, G., Ephraemius, Patriarch of Antioch, in Church History, Vol.7, No.4, Dec., 1938, p.367; Bury, History of the later Roman Empire, p.96; Stein, Histoire du Bas – Empire, p.487.

كان جيرمانوس من بين أقارب الإمبراطور البيزنطي جستين الأول (518– Justin I م)،527الذين استدعاهم من موطنه الأصلي في مقدونيا إلى القسطنطينية عقب وصوله للعرش البيزنطي. وقد انخرط جيرمانوس في سلك العسكرية، وسرعان ما حقق سمعة طيبة بإحرازه النصر عام ٥١٧م على حشد من البرابرة الذين عبروا نهر الدانوب Danube، وتوغلوا جنوب بلاد اليونان، ونظرًا لأن زواج الإمبراطور جستنيان من الإمبراطورة ثيودورا Theodora كان بلا ذرية فقد أصبح جيرمانوس الوريث الفعلي للعرش البيزنطي؛ وربما كان ذلك السبب في كونه من الشخصيات غير المحببة لدى الإمبراطورة ثيودورا، وكذلك السبب في عدم توليه أية مناصب عليا في الدولة. وبعد وفاة ثيودورا كلفه الإمبراطور جستنيان بقيادة الجيش البيزنطي المتجه لمحاربة القوط الشرقيين في إيطاليا، ولكنه سقط مريضًا قبل الذهاب للجبهة الإيطالية ومات في القسطنطينية عام ٥٥٠م. لمزيد من التفاصيل حول جيرمانوس. راجع:

Evans, J., The emperor Justinian and the Byzantine empire, London, 2005, p.39.

36- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II.vi.11, pp.308-309. CF also: Bury, History of the later Roman Empire, p.96; Bouchier, A short History of Antioch,p.187; Downey, A History of Antioch in Syria, p.536.

37- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II.vi.12-13,pp.308-309. CF also: Downey, The Persian Campaign in Syria, p.341;Bouchier, A short History of Antioch, p.187; Bury, History of the later Roman Empire, p.96.

38- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II.vi.14-15,pp.308-311. CF also: Downey, A History of Antioch in Syria,p.536.

39- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II.vi.16-17, pp.310-311.CF also: Greatrex, and Lieu, The Roman eastern frontier,p.103; Downey, Ephraemius, Patriarch of Antioch, p.367.

كان الأسقف ميجاس متواجدًا في أنطاكية لطلب الدعم من أهالي المدينة للدفاع عن مدينة حلب.

40- History of the Wars, vol.I., book II. vi.18-21, pp.310-313

راجع أيضًا : خريسوستمس : تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٣.

أورد بروكوبيوس النص الكامل لحديث الأسقف ميجاس مع كسرى أنوشروان.

41- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. vi.24-25, pp.312-313.CF also: Downey, Ephraemius, Patriarch of Antioch, p.367; Bouchier, A short History of Antioch, p.187; Greatrex, and Lieu, The Roman eastern frontier, p.103.

السنتناريا: وزن روماني الأصل، واستخدم التعبير تالانتون Talanton كمرادف له في بعض النصوص الكلاسيكية. وفي القرن السادس الميلادي تم استخدام مصطلح السنتناريا للدلالة على كمية تقدر بمائة رطل من الذهب . راجع:

Schilbach, E., Kentenarion, in Oxford Dictionary of Byzantium, ed. Kazhdan, A., and Talbot, A., Oxford, 1991, II., p.1121.

ويشير أحد الباحثين المحدثين أن لفظ قنطار في اللغة العربية مستمد من الكلمة اليونانية سنتناريا أو قنطاريون. راجع:

بيغوليفسكيا، ن: العرب على حدود بيزنطة وإيران: من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ١٩٨٥، ص ١٢٠.

42- Greatrex, Byzantium and the east in the Six Century, p.488; Downey, A History of Antioch in Syria, p.535.

43- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. vii.14-16,pp.316-317.CF also: Downey, Ephraemius, Patriarch of Antioch, p.368;Greatrex, and Lieu, The Roman eastern frontier, p.103; Stein, Histoire du Bas – Empire, p.488.

راجع أيضًا : خريسوستمس : تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٣- ٣٥٤.

45- Downey, A History of Antioch in Syria, p.537.

45- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. vii.17-18, pp.316-319. CF also: Downey, The Persian Campaign, p.342; Bouchier, A short History of Antioch, p.188; Greatrex, and Lieu, The Roman eastern frontier, p.103.

46- The chronicle of John Malalas, p.285.

47- Idem. CF also: Greatrex, and Lieu, The Roman eastern frontier, pp.103-104.

كانت قيمة قطعة العملة المحلية الواحدة المعروفة باسم الصوليدي Solidus تقدر بنسبة واحد : اثنان وسبعون جزءً من الجنيه الذهبي، كما كانت قيمتها واحد : اثنا عشر جزءً من الجنيه الفضي، وكان من المفترض أن يباع الجنيه الفضي باثني عشر عملة محلية، أما جيرمانوس فكان يأخذ الجنيه الفضي مقابل عملتين أو ثلاث . راجع : Downey, The Persian Campaign, p.346.

48- Greatrex, and Lieu , The Roman eastern frontier, p.269.

49- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. vii.16, pp.316-317. CF also: Downey, The Persian Campaign, p.342; Bouchier, A short History of Antioch, p.188; Greatrex, and Lieu , The Roman eastern frontier, p.103.

كان إفرايميوس من آمد أحد الأساقفة الذين شغلوا مناصب إدارية وعسكرية قبل توليه رئاسة أسقفية أنطاكية، حيث شهدت بيزنطة خلال القرن السادس الميلادي تعيين العديد من قادة الجيش في المناصب الكنسية العليا. وقد تولى إفرايميوس منصبه كبطريرك لكنيسة أنطاكية عام ٥٢٧م، كما تولى عدة مناصب إدارية قبل هذا المنصب الديني كرئيس الخزانةِ المركزيةِ للإمبراطوريةِ، وفي عام ٥٢٢م تولى منصب كونت الشرق. لمزيد من التفاصيل حول البطريرك إفرايميوس . راجع:

Downey, Ephraemius, Patriarch of Antioch, pp. 364-370.

50- The Ecclesiastical History,p.222.

51- Procopius, History of the Wars, vol.I. ,book II. viii.I, pp.324-325 .CF also: Downey, The Persian Campaign, p.342.

راجع أيضًا : خريسوستمس: تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٤.

52- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. viii.2,pp.324-325. CF also: Bury, History of the later Roman Empire, pp.96-97; Greatrex, and Lieu, The Roman eastern frontier, p.103; Frendo, D., The religious Factor in Byzantine – Iranian relations, in Bulletin of the Asia institute ,New Series ,vol.II,1997, p.108.

53- Mitchell, S., A history of the later Roman Empire, 284-641 A.D., Oxford, 2015, p.434; Oman, The story of the Byzantine Empire, p.99.

54- Procopius, History of the Wars, vol. I., book II. viii. 3-5,pp.324-

325.CF also: Downey, The Persian Campaign, p.343; Bury, History of the later Roman Empire, p.97; Bouchier, A short History of Antioch, p.188.

راجع أيضًا : خريسوستمس: تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٥.

55- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II.viii.6-9, pp.324-326 .CF also: Downey, The Persian Campaign, p.343; Bouchier, A short History of Antioch, pp.188-189.

56- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. viii.10-17, pp.326-329.CF also: Downey, A History of Antioch in Syria, p.543; Bury, History of the later Roman Empire, p.97.

راجع أيضًا : خريسوستمس : تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٥ .

57- Procopius, History of the Wars, vol.I, book II. viii.17-19, pp. 328-331.CF also: Bury, History of the later Roman Empire, p.97;Cameron, Procopius and the Sixth Century, p.165.

58- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. viii.24-25, pp.332-333 . CF also: Bury, History of the later Roman Empire, p.97.

دافني : ضاحية هامة تقع على مسافة خمسة أميال جنوب غرب أنطاكية، وتشتهر بجمالها الطبيعي ومناظرها الخلابة، كما توجد بها الكثير من وسائل الترفيه كالمسارح وساحة الألعاب . لمزيد من التفاصيل حول الضاحية . راجع: Bouchier, A short History of Antioch, pp.42-58.

59- Procopius, History of the Wars, vol.I, book II. viii.28-29, pp.332-333 . CF also: Bouchier, A short History of Antioch, pp.189-190.

راجع أيضًا : خريسوستمس: تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٥- ٣٥٦.

60- History of the Wars, vol.I, book II.xiv.6, pp.382 -383.CF also: Mitchell, A history of the later Roman Empire, p.434.

٦١- الفردوسي: الشاهنامة، ص ١٧١ .

62- Marcellinus Comes, The Chronicle of Marcellinus, p.133; John Malalas, The chronicle of John Malalas, p.285.

يشير عدد من المصادر أن القوات الفارسية اجتاحت مدينة أنطاكية عام ٥٣٩م وليس عام ٥٤٠م . راجع:

The Chronicle of Zuqnin, p.86; Theophanes, The Chronicle of Theophanes, p.317.

63- Evagrius Scholasticus, The Ecclesiastical History,p.223; The Chronicle of Zuqnin,p.86;Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. ix.15, pp.340-341; CF also: Frye, R., The history of Ancient Iran, Munchen, 1983, p.326; Whitby, Rome at War, p.56;Greatrex, Byzantium and the east in the Six Century, p.489.

64- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. ix.16, pp.340-341. CF also: Bouchier, A short History of Antioch, p.190; Downey, A History of Antioch in Syria, p.544.

راجع أيضًا : خريسوستمس: تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٦.

(٦٥) تاريخ ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٩٢.

66- Evagrius Scholasticus, The Ecclesiastical History,p.223;Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. ix.17, pp.340-343. CF also : Downey, Ephraemius, Patriarch of Antioch, p.368; Frendo, The religious Factor, p.108.

67- The Ecclesiastical History, p.223.

68- Downey, Ephraemius, Patriarch of Antioch, p.369 .

(٦٩) بيغوليفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص ١٢٠؛ خريسوستمس : تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٦ .

70- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. x.24, pp.350 -351. CF also: Bury, History of the later Roman Empire, p.98; Treadgold, A History of Byzantine State, p.194; Stein, Histoire du Bas – Empire, pp.490-491; Greatrex and Lieu , The Roman eastern frontier, p.106.

71- Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. xi.2, pp.350 -351.

راجع أيضًا : خريسوستمس: تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٧ .

72- Oman, The story of the Byzantine Empire, p.99.

دفع هذا الانتصار كسرى على سبيل الغيرة أن يتبنى نفس السياسة التي تبناها الإمبراطور جستنيان عندما قام بتصوير انتصارات قائده الشهير بليزاريوس في الغرب الأوروبي بالفسيفساء، فقام هو بنقش أحداث سقوط مدينة أنطاكية على جدران قصره في مدينة المدائن. راجع:

Shahîd, I., Byzantium and the Arabs in the Sixth Century, Washington, 1995, vol. I., pp.235-236; Greatrex, and Lieu , The Roman tern frontier, p.107.

وقد أشار البحتري إلى حدث سقوط مدينة أنطاكية في أيدي الفرس في قصيدته "وصف إيوان كسرى"، عندما قال:

وإذا ما رأيت صورة أنطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل و أنوشروان يزجي الصفوف تحت الدرفس

Evagrius Scholasticus, The Ecclesiastical History, p.223; Procopius, History (73) of the Wars, vol.I., book II. xi.31-32,pp.358-361.

Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. xi.32, pp.360-361. CF also: (74) Mitchell, A history of the later Roman Empire, p.527.

Procopius, History of the Wars, vol.I., book II, xiii.1-2, pp.372-373 .CF also: (75) Treadgold, A History of Byzantine State, p.194; Downey, A History of Antioch in Syria, p.545.

Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. xiii.3-6, pp.372-375. CF also: (76) Bury, History of the later Roman Empire, p.98.

راجع أيضًا : خريسوستمس : تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٥٨.

(٧٧) الفردوسي: الشاهنامة، ص ١٧١ .

(٧٨) ميخائيل السرياني الكبير: تاريخ ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٩٣.

The Chronicle of Zuqnin, p.86;Procopius, History of the Wars, vol.I., (79) book II. xiv.1-4, pp.380-383.

الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، ص ١٠٢؛ الفردوسي: الشاهنامة، ص ١٧١ .

راجع أيضًا: Huart،C.،AncientPersiaandIranianCivilization،London، ١٩٢٧، p.١٨٣

(٨٠) تاريخ الرسل والملوك ، ص ١٠٢.

Winter, and Dignas, Rome and Persia, p.262; Bouchier, A short History of Antioch, p.192; Greatrex, and Lieu, The Roman eastern frontier, p.108.

راجع أيضًا : آرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص ٣٧٠.

Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. xiv.1-4, pp.380-383. (81)

الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، ص ١٠٢.

History of the Wars, vol.I., book II. viii.12-14, pp.328-329. (82)

Ibid, x.4-5, pp.342-345. CF also: Cameron, Procopius and the Sixth Century، (٨٣) p.١١٧; Mitchell، A history of the later Roman Empire، pp.-٥٢٦

٥٢٧.

يذكر بروكوبيوس أنَّ سقوط مدينة أنطاكية في أيدي القوات الفارسية كان أمرًا محتومًا، ويوضح ذلك بالإشارة إلى حدثٍ وقع قبل سنوات قليلة مؤدَّاها أنَّه ظهرت بعض الإشارات التي تنذر بالحدث وبالخراب القادم على يد الفرس، فقد فوجئت سرية صغيرة من الجنود كانت تحمي حدود المدينة الخارجية بأن الرايات الخاصة بها التي كانت تواجه ناحية الغرب قد حولت اتجاهها وتوجهت نحو الشرق على حين غرة ومن تلقاء نفسها، لتعود مرة أخرى إلى وضعها الأصلي دون أن يلمسها أحد. وفسر بروكوبيوس ذلك بأنه نذيرًا بأن تبعية أنطاكية كانت على وشك الانتقال إلى حاكم شرقي وأنها ستعود مرة أخرى إلى وضعها الأصلي . راجع :

History of the Wars, vol.I., book II. x.1,pp.342-343. CF also: Bouchier, A short History of Antioch, p.186.

كما يشير بروكوبيوس إلى علامة أخرى حدثت قبل ظهور الفرس في الأراضي البيزنطية، وفسرها على أنها نذير بحلول كارثة سقوط مدينة أنطاكية، وقد تمثلت في هبوب عاصفة مفاجأة نتج عنها اقتلاع أشجار السرو والغار الموجودة بضاحية دافني، التي يحميها القانون ويشدد في عقوبة قطعها. راجع :

History of the Wars, vol.I., book II.xiv.5,pp.382-383 .CF also: Bouchier, A short History of Antioch, p.187.

The Ecclesiastical History, p. xxxi. (84)

The chronicle, p.413. (85)

Downey, Ephraemius, Patriarch of Antioch, p.367. (86)

Cameron, A., The Mediterranean World in late Antiquity 395-600, London, (87) 2001,p.110.

Whitby, Rome at War, p.56. (88)

(٨٩) ميخائيل السرياني الكبير: تاريخ ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٩٢-٩٣.

Procopius, The Buildings of Justinian, trans. by Stewart, A., London, 1888, (90) pp.68-71.CF.also: Mitchell, A history of the later Roman Empire, p.434; Bury, History of the later Roman Empire, p.100.

(٩١) خريسوستمس: تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٣٦٠ .

Procopius, History of the Wars, vol.I., book II. xiii.29, pp.380 -381. CF

also: (92) Bury, History of the later Roman Empire, p.98; Treadgold, A History of Byzantine State, p.194; Greatrex, and Lieu , The Roman eastern frontier, p.107.

Marcellinus Comes, The Chronicle of Marcellinus, p.134; Procopius, (93) History of the Wars, vol.I., book II. xiv.9-13, pp.384-385. CF also: Oman, The story of the Byzantine Empire, p.99; Greatrex, Byzantium and the east in the Six Century, p.489; Evans, Justinian and Historian Procopius, p.221.

Menander, The history of Menander the guardsman, trans., by Blockley, R., (94) Liverpool,1985,pp.70-75.CF also: Greatrex, and Lieu, The Roman eastern frontier, pp.131-133; Evans, The emperor Justinian,p.13.

يوحنا الأسيوي : تاريخ الكنيسة، ص ١٢. راجع أيضًا: آرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص ٣٥٧.

قائمة المصادر والمراجع

١ - المصادر الأجنبية :

- Agathias,

  The Histories, translated with an introduction and short explanatory notes by Frendo, J., Berlin, 1975.

- Evagrius Scholasticus,

  The Ecclesiastical History of Evagrius Scholasticus, trans. Whitby, M., Liverpool, 2000.

- Chronicon Paschale, translated with noted and introduction by Whitby, M., and Whitby, M., Liverpool,1989.

- John Malalas,

  The chronicle of John Malalas, trans. by Elizabeth, J., Michael, J., and Roger, S., with others, Australian Association for Byzantine Studies, Melbourne, 1986.

- Marcellinus Comes,

  The Chronicle of Marcellinus, trans. by Croke, B., Australian Association for Byzantine Studies, Sydney,1995.

- Menander,

  The history of Menander the guardsman, trans. by Blockley, R., Liverpool,1985.

- Procopius,
- The Buildings of Justinian, trans. by Stewart, A., London, 1888.
- History of the Wars, English translation by Dewing, H., 6 vols.,vol. I, 1914.
- The Chronicle of Edessa, ed. by Cowper, B., in the journal of Sacred Literature and Biblical Record, vol.5, London,1864,pp.28-45.
- The Chronicle of Zuqnin, parts III-IV A.D. 488-775, translated from Syriac with noted and introduction by Harrak,A.,Toronto,1999.
- Theophanes,

The Chronicle of Theophanes The Confessor: Byzantine and Near Eastern History A.D. 284-813, trans. Mango, C., & Scott, R., Oxford, 1997.

- Zachariah Rhetor,

The chronicle of pseudo- Zachariah Rhetor, Church and War in late Antiquity, ed. Greatrex, G., trans. Phenix, R. and Horn, C., Liverpool, 2011.

٢- المصادر العربية والمعربة :

- الطبري (ت ٣١٠ هـ- ٩٢٣ م) أبي جعفر محمد بن جرير :

تاريخ الرسل والملوك، ج ٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف ، د ت .

- الفردوسي:

الشاهنامة ملحمة الفرس الكبرى، ترجمة سمير مالطي، دار العلم، بيروت ، ١٩٧٧ .

- ميخائيل السرياني الكبير:

تاريخ ميخائيل السرياني، عربه عن السريانية مار غريغوريوس صليبا شمعون، دار ماردين، حلب ، ط ١، ١٩٩٦ .

- يوحنا الأسيوي:

تاريخ الكنيسة (الكتاب الثالث)، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠ .

٣- المراجع والدوريات الأجنبية :

- Balciogullari, A.,

Historical Geography of Antioch, The Queen of the East : Through Arab Travelers, in International Journal of Culture and History,vol. I, No.1, September 2015, pp.44-46.

- Bouchier, M.,
A short History of Antioch, B.C. 300-A.D.1268, Oxford, 1921.
- Bury, J.,
History of the later Roman Empire, London, 1923.
- Cameron, A.,
The Mediterranean World in late Antiquity 395-600, London, 2001 .
- Charlesworth, M.,
Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge, 1926.
- Daryaee, T.,
Sasanian Persia, The rise and fall an Empire, London, 2009 .
- Downey, G.,
- Ephraemius, Patriarch of Antioch, in Church History, vol.7, No. 4, Dec., 1938, pp.364-370.
- The Persian Campaign in Syria in A.D. 540, in Speculum, vol. 28, No. 2, Apr.,1953, pp.340-348.
- A History of Antioch in Syria , Princeton,1961.
- Evans, J.,
- The emperor Justinian and the Byzantine empire, London,2005.
- Justinian and Historian Procopius, in Greece & Rome, vol. 17, No. 2, Oct., 1970, pp.218-223.
- Frendo, D.,
The religious Factor in Byzantine – Iranian relations, in Bulletin of the Asia institute, New Series, vol. 11,1997,pp.105-122.
- Frye, R.,
The history of Ancient Iran, Munchen, 1983.
- Greatrex, G.,
- Procopius and Persian Wars, Ph. D. thesis, Oxford,1994.
- Byzantium and the East in the Six Century, in The Cambridge companion to the age of Justinian, ed., Maas, M.,Cambridge, 2005,pp.477-509.

- Greatrex, G., and Lieu S., (ed.)
The Roman eastern frontier and Persian Wars, A narrative Source-book, part II A.D., 363–630, London, 2005.
- Holmes, W.,
The age of Justinian and Theodora, A history of the Sixth Century, London, 1907.
- Huart, C.,
Ancient Persia and Iranian Civilization, London, 1927.
- Mitchell, S.,
A history of the later Roman Empire, 284-641 A.D., Oxford, 2015.
- Oman, Ch.,
- The dark Ages, 476-918, London, 1898.
- The story of the Byzantine Empire, New York,1892.
- Schilbach, E.,
Kentenarion, in Oxford Dictionary of Byzantium, ed. Kazhdan, A., and Talbot, A., Oxford, 1991.
- Shahîd, I.,
Byzantium and the Arabs in the Sixth Century, vol. I., Washington,1995.
- Stein, E,
Histoire du Bas - Empire: De la disparition de l'Empire d'Occident à la mort de Justinien (476-565), tome II, Paris, 1949.
- Treadgold, W.,
A History of Byzantine State and Society, California, 1997.
- Winter, E. and Dignas, B.,
Rome and Persia in Late antiquity: Neightbours and Rivals, New York, 2007.
- Whitby, M.,
Rome at War A.D. 293-696, Oxford, 2002.

٤- المراجع العربية والمعربة :

- آرثر كريستنسن :
إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحي الخشاب ، دار النهضة العربية ، بيروت، د.ت .

- أسد رستم :
كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى ، المكتبة البولسية ، بيروت، ١٩٨٨ .
- بيغوليفسكيا، ن:
العرب على حدود بيزنطة وإيران: من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت ، ١٩٨٥ .
- خريسوستمس بابادو بولس:
تاريخ كنيسة أنطاكية، تعريب الأسقف استفانس حداد، ١٩٨٤ .

الغزالـــــــة
في نقوش شبه الجزيرة العربية

Al-Ghazala in the inscriptions of the Arabian Peninsula

دكتورة

أمل مهران

كلية الآداب - جامعة دمنهور

الملخص العربي

تشغل جزيرة العرب الجزء الجنوب الغربي لآسيا ، وقد سماها أهلها جزيرة لأن الماء يدور بها من ثلاث جهات في جنوبيها وغربيها وشرقيها فهي شبة جزيرة وليس في الأرض شبه جزيرة تضاهيها في المساحة ، وقد قسم جغرافيو اليونان والرومان صحاري الجزيري العربية إلي ثلاثة أقسام العربية الصحراوية ، والعربية الصخرية أو الحجرية ، والعربية السعيدة ، وعُثر في منطقة نجران بشبه الجزيرة العربية علي عدد كبير من النقوش المدونة بالقلم المسند ، والتي جاءت مصحوبة برسوم حيوانية جنباً إلي جنب مع النقوش ، والتي كان من بينها الغزال العربي ، فيعد الغزال "العفري" هو النوع الأكثر إنتشاراً من بين أنواع الغزلان الذي يقطن في الجزء الشمالي والجنوبي لشبة الجزيرة العربية ، ويعيش غزال "الريم" في المناطق الصحراوية ، وشبه الصحراوية من شبه الجزيرة العربية ، وينتشر الغزال السعودي في المنطقة الواقعة بين الكويت والأردن عبر شمال ووسط شبه الجزيرة العربية ، وكذلك علي طول الشريط الغربي حول صحراء الربع الخالي إلي اليمن ، يبلغ ارتفاع الغزال الأدمي / الصخري ما بين ٦١-١١٠ سم ، بينما يبلغ وزنها ما بين ١٧-٣٠ كجم لذكورها ، و١٦-٢٥ كجم لإناثها ، وهي ذات حجم وسطي بين انواع الغزلان الثلاثة ، كما تتميز بقرونها الطويل وذيلها القصير ، بينما يتشابه ذكورها مع إناثها من حيث الشكل والهيئة ، بينما بلغ ارتفاع الغزال العفري / السعودي ما بين ٥٥-٦٥ سم ، بينما يبلغ وزنها ما بين ١٥-٢٠ كجم لكل من ذكورها واناثها ، وهي تتميز عن الغزال الجبلي بغطائها ذو الزخارف الحمراء ، وهي ذات قرون أكثر طولاً واستقامة من أي نوع من الأنواع الأخرى ، كما يتميز قرونها القصيرة باستدارة طرفه ؛ كما تتميز بأنوف ذات بقع سوداء ، وأذان طويلة ، وأرجل قصيرة ، وركب بارزة ، وذيل قصير أسود ، يبلغ ارتفاع الغزال الصحراوي / الريم ما بين ٩٠-١٢٦ سم ، بينما يبلغ وزنها ما بين ٢٢-٤٠ كجم لذكورها ، ١٨-٣٣ كجم لإناثها ، وهي أكثر حجماً من الغزال الجبلي ، وأكثر قوة من حيث البنية الجسدية ، وهي تتميز بألوانها الباهتة ، وأنوفها ذات البقع البيضاء ، كما تتميز قرون ذكورها بأنها أكثر طولاً واستقامة حتي أطرافها ؛ بينما إناثها قد تخلو رؤوسها من القرون في بعض الأحيان ، ولهذا النوع ذيول سوداء تتميز بالطول أو الوسطية في أغلب الأحيان ، تنتشر آثار نقوش الغزلان وصيدها علي طول الشريط الجبلي لساحل البحر الأحمر ، وعلي صفحات جبال الأثير ، وكذا جزيرة فرسان ، وعلي طول الشريط الحدودي والجبلي لسلطنة عمان ، ودولة الأمارات ، تعد جزيرة فرسان من أكثر الأماكن التي حظيت علي نقوش وحفائر للغزال العربي ، حيث عُثر بها عام ١٨٢٥ م علي حفائر لغزال عربي لم يتمكن العلماء من تحديد نوعه ، وذلك لتشابه جمجمته من حيث الشكل والحجم مع الأنواع الأخرى ، تعد أغلب مناظر الغزال البري في نقوش "يدمه" تمثل عملية صيده في البراري والصحاري بواسطة الخيول وبمساعدة كلاب الصيد التي تتميز بسرعتها وشراستها ، كثيراً ما يظهر الغزال البري في نقوش "يدمه" بصحبة الخيول وكلاب الصيد

وطائر النعام ، أما أغلب المناظر الخاصة بالغزال البري في نقوش "الباحة" فتتمثل فيها الاحتفالات النسائية بالرقص ابتهاجاً بالصيد ، أو أسراب الغزال البري وهي تسير في مجموعات.

Abstract

The Arabian Peninsula occupies the southwestern part of Asia. Its inhabitants have called it an island because the water flows from three sides in its south, west and east. It is an island, not a peninsula on the land. The geographies of Greece and Romans divided the Arabian desert desert into three parts: Rocky or stone, and happy Arab, and found in the Najran region of the Arabian Peninsula on a large number of inscriptions written pen Almsnad, which came accompanied by animal drawings along with the inscriptions, which included the Arab Ghazal, is Ghazal "Afri" is the most volatile The Ghazal is located in the desert and semi-desert regions of the Arabian Peninsula. The Saudi Gazelle is located in the area between Kuwait and Jordan across the north and center of the Arabian Peninsula, as well as along the strip West of the desert of the Empty Quarter to Yemen, the height of the human / rocky deer is between 61-110 cm, while the weight of between 17-30 kg for her memory, and 16-25 kg for females, the size of the middle among the three deer, And their short tail, while their males are similar to their females In terms of form and body.

It is distinguished from the mountain gazelle with its red decoration, with longer and straighter horns of any other species. Its short horns also have a rounded edge; black-spotted noses, long ears, short legs, prominent knees, The desert deer / Reem has a height of 90-126 cm, while its weight is between 22-40 kg for its males. It is larger than the mountain deer and is more physically strong. It is characterized by its pale colors and noses With white spots, and the horns of males are longer and straight to the edges; These are sometimes black tails that are usually tall or medium. The effects of deer inscriptions are spread along the mountainous strip of the Red Sea coast, along the mountains of Atheer, as well as the island of Farsan, along the border and the border of the Sultanate of Oman Oman, and the United Arab Emirates, Farsan Island is one of the most famous places for engravings and fossils of the Arabian gazelle. In 1825, it found fossils of an Arab gazelle that scientists could not determine. The similarity of its skull in terms of shape and size with other species Wild gazelle in the inscriptions "Ydmh" represents work Hunting in the wild and deserts by horses and with the help of hunting dogs that are characterized .

نُبذة

الغزالة من الحيوانات القديمة الظهور والانتشار في شبه الجزيرة العربية من العصور الهلينيستية وحتي الآن ، والتي كان لها أبلغ الأثر في ترك تراث ضخم من النقوش والرسوم الصخرية في مناطق عدة في شرق وغرب وجنوب وشمال شبه الجزيرة

أولاً: الغزالة (Gazelle) في نقوش شبه الجزيرة العربية :

الغزال: هو ولد الظبية ، والجمع: غزلان ، ومؤنثه : غزالة[١]، والغزال Gazelle هو ظبي من جنس الغزال Genus Gazelle ، وفصيلة البقريات Family Bovidae[٢]، ويتبعه سبعة عشر نوعاً ، تعد ثلاثة منها منقرضة ، وبقية الأنواع مهددة بالانقراض ويعد انتشارها الجغرافي واسع جداً ، إذ تمتد عالمياً من جنوبي إفريقيا إلي شماليها ، وفي معظم قارة آسيا ، وشرقي الصين.[٣]

أما في العصور البدائية ، فقد كانت الغزالة مصدراً للغذاء والدفء ، مما دفع القاطنين القدامي علي صيدها في كل من الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية، مما جعلها من أكثر المناظر تصويراً في الرسوم الصخرية في شبه الجزيرة العربية، منذ العصور الحجرية، في نقوش ومناظر متميزة، وهي تُصطاد بكلاب الصيد أو بواسطة رماة السهام.[٤]

وفيما يلي دراسة عن الغزال العربي من حيث البيئة والموطن ، والفصائل والأنواع ، وتصويره في الرسوم والنقوش.

١- بيئة الغزال العربي ومواطنه:

وقد عُرف الغزال عند العرب منذ قديم الزمان ، إذ مارسوا صيدها في البوادي والصحاري العربية[٥] ، وتظهر نقوش قديمة كثيرة وجود الغزلان والأيائل في المنطقة العربية. ويعد الغزال "العفري" هو النوع الأكثر انتشارا من بين أنواع الغزلان الذي يقطن في الجزئين الشمالي والجنوبي

---

(١) المعجم الوجيز ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص ٤٥٠.

(2) Mallon, D. P, Hoffmann , M., Gazella Arabica , p. 145.

(٣) نبيل إبراهيم حسن ، الظباء والغزلان والايائل العربية ، مشروع الحفاظ علي التنوع الحيوي والبيئي ، دمشق ، ١٩٩٩، ص ١٦.

(4) Olsen , S. L., Arabian Rock Art Heritage, The Application of Advanced Imaging Technology to Saudi Arabian Rock Art , in : www.saudi_aracheoalogy.com , Layan Culture Foundation Project , 2010-2015, Date: 30/7/2015.

(٥) أحمد غسان غادري ، الحياة البرية / الجزء النظري ، منشورات جامعة حلب ، سوريا ، ٢٠٠٤ ، ص ٨.

لشبه الجزيرة العربية[1]، كما يعيش غزال "الريم" في المناطق الصحراوية، وشبه الصحراوية من شبه الجزيرة العربية.[2]

والجدير بالذكر أن بعض أنواعها يعيش فوق قمم الجبال، وأسطح الهضاب الصخرية، حيث تنمو أشجار الأكاسيا (Acacia Trees)، ويعود هذا النوع من الغزلان إلي العصر الهليوسيني وهي لاتزال تنتشر في محيط الجبال الغربية والأجزاء الشمالية من الأرض الصحراوية بشبه الجزيرة العربية بينما تقطن أنواع أخري في شرق جبال الحجاز، وفي البراري والأراضي الصحراوية. وينتشر الغزال السعودي في المنطقة الواقعة بين الكويت والأردن، عبر شمال ووسط شبه الجزيرة العربية، وكذلك علي طول الشريط الغربي حول صحراء الربع الخالي إلي اليمن، بينما تنتشر أنواع ثالثة في الصحراء الرملية المفتوحة، وهو ينتشر بكثرة في صحراء النفود في الظهير بشمالي المملكة العربية السعودية.

٢- أنواع الغزال العربي:

للغزال العربي أنواع ثلاثة اشتهرت بها شبه الجزيرة العربية وهم:

- الغزال الجبلي / الصخري
- الغزال السعودي / السعيدة
- الغزال الصحراوي

واللافت للنظر أن النوعين الأول والثاني قد انقرضًا تماماً من شبه الجزيرة العربية، بينما يعد النوع الثالث هو الأكثر انتشاراً في شبه الجزيرة العربية، إلا أن الصيد الجائر من قبل السكان المحيطين وقاطني الصحراء قد ساعد في تقليص اعدادها، تاركاً نماذج قليلة منها، ولعل وجود نماذج متشابهة من الغزال العربي فيما بين شبه الجزيرة العربية من الجانب الشرقي ومنطقتي المحرقة ومدينة القصير في الجانب الغربي للبحر الأحمر لهو خير دليل علي نشأتهما في بيئة طبيعية واحدة في العصور القديمة.[3]

وهي فيما يلي:

---

(١) بتيان غرتان قره، موسوعة الحيوان (الحيوانات البرية)، ترجمة إميل بديع، بيروت، ١٩٩٨، ص٦٩.

(2) Windward, P., The Illustrated Reference Book of Animal, (Smith, W. H., & Son), England, 1982, p. 45.

(3) Apio , A., M., and others , "Cross infection with gastro-intestinal tract Parasites between domestic goat and endemic Farasan Gazelle", Journal of King Saud University Science 10 (2013) , part 25 , pp. 325-329.

أ- الغزال الجبلي / الصخري "الإدمي" :

يبلغ ارتفاعه ما بين ٦١-١١٠ سم ، بينما يبلغ وزنه ما بين ١٧-٣٠ كجم لذكورها ، و١٦-٢٥ كجم لإناثها ، وهي ذات حجم وسطي بين أنواع الغزلان الثلاثة، كما تتميز بقرونها الطويل وذيلها القصير؛ بينما يتشابه ذكورها مع إناثها من حيث الشكل والهيئة.

وهذا النوع يعيش فوق قمم الجبال وأسطح الهضاب الصخرية حيث تنمو أشجار الأكاسيا، ويعود هذا النوع من الغزال إلي العصر الهليوسيني. وهي لاتزال تنتشر في محيط الجبال الغربية والأجزاء الشمالية من الأرض الصحراوية بشبه الجزيرة العربية.[1] (شكل ١)

(شكل ١) الغزال الجبلي "الإدمي"

نقلاً عن: www.alsahra.org/saad

ب- الغزال السعودي / السعيدة "العفري" :

يبلغ ارتفاعه ما بين ٥٥-٦٥ سم ، بينما يبلغ وزنه ما بين ١٥-٢٠ كجم لكل من ذكورها وإناثها وهي من الأنواع المنقرضة في المملكة العربية السعودية ، وهي تتميز عن الغزال الجبلي بغطائها ذي الزخارف الحمراء. وهي ذات قرون أكثر طولاً واستقامة من أي نوع من النوعين الآخرين ، كما تتميز قرونها القصيرة باستدارة طرفه ، كما تتميز بأنوف ذات بقع سوداء ، وأذان طويلة ، وأرجل قصيرة ، وركب بارزة ، وذيل قصير أسود ، وهذا النوع يعيش حيث تنمو أشجار الأكسيا - أيضاً - كما في شرق جبال الحجاز وفي البراري والأراضي الصحراوية ، بينما لا يوجد أثر لها في الجانب الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية.[2] (شكل ٢)

(1) Mallon, D. P, Hoffmann , M., op.cit , p. 145.

(2) Ibid , p. 145.

(شكل ٢) الغزال السعودي "العفري" قارن مع شكلها في الوقت الحاضر

نقلاً عن: www.alsahra.org/saad

جـ الغزال الصحراوي "الريم" :

يبلغ ارتفاعه ما بين ٩٠-١٢٦ سم ، بينما يبلغ وزنه ما بين ٢٢-٤٠ كجم لذكورها ، ١٨-٣٣ كجم لإناثها ، وهي أكثر حجماً من الغزال الجبلي ، وأكثر قوة من حيث البنية الجسدية ، كما تتميز بألوانها الباهتة ، وأنوفها ذات البقع البيضاء ، كما تتميز قرون ذكورها بأنها أكثر طولاً واستقامة حتي أطرافها ؛ بينما إناثها قد تخلو رؤوسها من القرون في بعض الأحيان ، ولهذا النوع ذيول سوداء تتميز بالطول أو الوسطية في أغلب الأحيان.(١) وهذا النوع يعيش في الصحراء الرملية المفتوحة ، والتي كانت السبب الرئيسي في كون ذلك النوع من الغزلان يرتدي حلة باهتة من الغطاء الجلدي ، وهو ينتشر بكثرة في صحراء النفود في الظهير الشمالي للملكة العربية السعودية.(٢) (شكل ٣)

٣- تصوير الغزال العربي في الرسوم والنقوش الصخرية :

تنتشر آثار نقوش الغزلان وصيدها علي طول الشريط الجبلي لساحل البحر الأحمر ، وعلي صفحات جبال الأثير(٣)، وكذا جزيرة فرسان ،(٤) وعلي طول الشريط الحدودي والجبلي لسلطنة

(1) Ibid , p. 145 .

(2) Lerp, H., Plath, M., & Others, "Utility of Island Populations in Reintroduction Programmers – Relationships between Arabian Gazelle from the Farasan Archipelago and endangered mainland Populations", in : Molecular Ecology 4 (2014) , Part 23 (8) , pp. 1910-22.

(٣) هو أحد أهم وأشهر جبال المملكة العربية السعودية. راجع : مقال بعنوان ، "محمية دبي الصحراوية" ، منشور علي الموقع الإلكتروني : www.ddcr.org تاريخ الاطلاع : ٢٠١٥/٧/٢٣ .

(٤) وهي إحدي الجزر الواقعة في البحر الأحمر ، وهي تتبع سياسياً المملكة العربية السعودية ، وتقع بالنسبة لها في الساحل

(شكل ٣) الغزال الصحراوي "الريم" قارن مع شكلها في الوقت الحاضر

نقلاً عن: www.alsahra.org/saad

عمان ، ودولة الأمارات العربية المتحدة.[١]

وتعد جزيرة فرسان بالبحر الأحمر من أكثر الأماكن التي حظيت علي نقوش وحفائر للغزال العربي ، حيث عُثر عليها عام ١٨٢٥ علي حفائر لغزال عربي لم يتمكن العلماء من تحديد نوعه ، وذلك لتشابه جمجمته من حيث الشكل والحجم مع الأنواع الأخرى[٢]

وفي مقال له علي الشبكة العنكبوتية[٣]، أشار مجيد خان – في زيارة له لكل من جبل الواسط ، جبل العلم جبل العلمان ، وادي الحبط ، جبل الرهوة ، العين أو عين قحطان ، يدمة ، عان النعام ، وادي السليل ، جبل سنح– إلي انتشار تصوير الغزال العربي في النقوش الصخرية بمواقع كثير من شبه الجزيرة العربية.

يعد صيد الحيوانات، ومنها الغزال من الرياضات القديمة التي كانت شائعة بين العرب وغيرهم من سكان العالم القديم.[٤] ولقد لعبت الحيوانات دورًا بارزًا في الحياة الدينية في جنوب

الجنوبي الغربي منها. راجع : مقال بعنوان ، "محمية دبي الصحراوية" ، منشور علي الموقع الإلكتروني: www. ddcr.org تاريخ الاطلاع: ٢٣/٧/٢٠١٥ .

(١) سالم بن طيران ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ في منطقة الباحة ودلالاتها التاريخية والحضارية ، ٢٠١٢، ص.٩٣

(2) Mallon, D. P, Hoffmann, M., op.cit , p. 145 .

(٣) مجيد خان ، " نقوش علي درب البخور (٣) شمال يدمه رسوم صخرية تُحدث عن الماضي" ، منشور علي الموقع الالكتروني: www.alsahra.org/saad تاريخ الاطلاع : ٢٩/٧/٢٠١٥ .

(٤) لقد كانت عظمة الملك وشجاعته مثلاً في العراق القديم ، تبرز في موضوع صيد الأسود ، التي كانت تعد رياضة مفضلة لديهم ففي أشور كانت الأسود تحفظ في أماكن خاصة تطلق منها إذا رغب الملك في صيدها ، حيث يصور الملك الأشوري "ناصر بال الأول" (١٠٥١– ١٠٣٢ ق.م) مستقلاً عربته في موكب الصيد ، يلتفت إلى الخلف ليصوب سهمًا

غربي شبه الجزيرة العربية ، ومنها الغزالة، والتي كانت رمزًا دينيًا[1] من رموز الإلهة عشتار.[2]

ويرجع سبب اتخاذ الرموز للآلهة عند الشعوب القديمة إلى الاعتقاد الديني بضرورة التجسد ، حيث كان تفكيرها يقتصر على الاعتقادات المادية ولهذا حاولت التقرب ألهتها الكونية التي لا

على الأسد ، وفي بابل ظهر الإهتمام بالصيد في ظهوره على الأختام البابلية التي تميزت بمناظر صيد الحيوانات. أنظر:
نعمت إسماعيل علام ، فنون الشرق الأوسط القديم والعالم القديم، القاهرة ، ١٩٨٨، ص ٢١٧- ٢٣٦ ;
فاطمة على السعيد باخشوين ، الحياة الدينية في ممالك معين وقتبان وحضرموت ، الرياض ، ٢٠٠٢ ، ص ٥٤١- ٥٤٢.
كما تدل الرسوم المنقوشة على الصخور على أن المصريين في عصور ما قبل التاريخ كانو صيادي حيوانات ماهرين وذلك بدافع الحاجة، أما في العصور التاريخية ، فقد استمر المصريون في صيد الحيوانات ليس لقصد التسلية، وأنما دفاعًا عن أنفسهم ، ولكي يمدوا المعابد بالحيوانات للتقدمات ، ولذا يرى الشخص في المعابد مناظر غزلان مقطوعة الرقاب ومناظر أفراس النهر مقطعة الأوصال ، كما يرى في المقابر مناظر تمثل الصيد بالشباك يقوم بها رجال قد تجردوا من ملابسهم واستخدموا القط للصيد في الأحراش .أنظر:
فاطمة علي السعيد باخشوين ، المرجع السابق ، ص ٥٤٢ ;
جورج بوزنر، وأخرون ، معجم الحضارة المصرية ، ترجمة أمينة سلامة ، مراجعة سيد توفيق ، القاهرة ، ١٩٨٢، ص ١٥٨-١٥٩.
والواقع أن مقارنة مناظر الصيد الأشورية بمثيلاتها المصرية ، نظهر الأشورية أنها تميزن بالعنف ، أما المصرية فقد عالجها الفنان من الناحية الاحترافية. أنظر:
علام نعمت إسماعيل علام ، المرجع السابق ، ص ٢١٩ ;
فاطمة علي السعيد باخشوين ، المرجع السابق ، ص ٥٤٢ .

(١) منير عبد الجليل العريقي ، الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم (من ١٥٠٠ ق.م حتى ٦٠٠ ق.م)، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ٨١؛
Fakhry , A., An Archaeological Journey to Yemen , Part I , Cairo, 1952 , p. 145.
هناك من يذكر بإنه لم يرد – حتى الأن – تمثيل الإله عشتر بالرموز الحيوانية في نقوش جنوب غربي الجزيرة العربية ، وربما يصل جديد بعد قيام أية تنقيبات أثرية تضيف جديد إلى هذا الموضوع وإنه يستطاع فقط القول إن الإله الوحيد الذي صور بالهيئة الحيوانية هو القمر فهو الذي رمز إليه كثور في معظم النقوش كما وصف أيضًا بهذا الأسم في كثير من الكتابات ، كما صور أيضًا كثعبان ، وأيضًا نسر من هنا يوجد ان الإله الذي كانت له الرموز الحيوانية هو القمر. أنظر:
أبو العيون بركات ، "الوعل في الحضارة اليمنية القديمة" ، مجلة اليمن الجديد ، العدد ١٢ (١٩٨٦) ، ص ٤٢- ٤٤.

(٢) عشتار: إله الزهرة (نجمة الصباح) الذي عبدته كل الشعوب السامية في جنوب وشمال شبه الجزيرة العربية تحت اسم واحد وإن اختلفت كتابته ، فيكتب "عشتر" عند البابلين و"عشترات" لدى الكنعانيين و"عثر" أو "عشتر" أو "عثت" في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، ومن خلال النقوش أن للمعبود عشتر تأثيرًا على المطر والري والخصوبة بشكل عام والعاصفة والرعد كذلك ، غير أنه إله ذكر عند عرب الجنوب في حين انه لدى الشعوب السامية مؤنث. أنظر:
محمد سعيد القحطاني ، "الهة اليمن القديم الرئيسية ورموزها حتى القرن الرابع الميلادي" ، رسالة دكتورة (غير منشورة) ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ١٩٩٧ ؛
أسمهان سعيد الجرو، الفكر الديني عند غرب جروب جنوب شبه الجزيرة العربية الألف الأول قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي، مجلة أبحاث اليرموك ، المجلد ١٤ ، العدد الأول ، ((١٩٩٨ ، ص ٢٤٤-٢٤٥ ;
خليل الزبيري ، "الإله عشتر في ديانة سبأ ، دراسة من خلال النقوش والآثار" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عدن، ٢٠٠٠ ، ص ٤٥ ;
Lipinski, E., "The Goddess A Tirat in Ancient Arabia in Babylon and in Ugarit", Orientalia Lovanieensia Periodica 30 (1999) , pp.101- 119.

تستطيع لمسها مثل الكواكب والنجوم بتجسيدها في شيء مادي ، أو كائن أرضي قريب وملموس تتوفر فيه صفة أو صفات موجودة في الإله حتى يتم أتخاه رمزًا له.[٣] ولقد تنوعت تلك الرموز حسب شخصية الإله سواء أكانت كائنات حية مثل الحيوانات أو بعض الرموز البدائية مثل الهراوى وأشكال الصاعقة وأشكال مجسمة تحمل بعض صفات الإله[٤] أو تمثيل مادي بسيط الشكل.[٥]

لقد أخذ صيد الحيوانات منحى شعائري تمثل بالصيد المقدس ، وكانت هذه الشعيرة تقام من أجل الآلهة والآلهات في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية.

لقد كانت الغزالة من ضمن الحيوانات التي حرص عرب الجنوب على صيدها وتكريسها ولقد تعددت صورة الغزالة على الآثار ، سواء كانت مرسومة أو منقوشة أو بذكرها ، وقد وجدت هذه الصورة والنقوش في أماكن عديدة من مناطق جنوب غربي شبه الجزيرة العربية ، التي ظهرت فيها الحضارات القديمة ، ولكن هذا التعدد وهذه الكثرة لابد وأن يكون لها سبب قوي جعل الفنان يقوم بمثل بهذا العمل.

يعد الملك "يدع إيل الثالث بين" بن رب الشمس ملك حضرموت (٢٤٥-٢٦٠م) من أكثر ملوك حضر موت شهرة بالصيد فقد كان مغرمًا به ، حتى سجل رحلات صيده وما تخللها من ذبح للحيوانات في أكثر من نقش[٦]

(٣) فتحي عبد العزيز الحداد ، "الأشكال الحيوانية في الفن اليمني القديم، دراسة أثرية" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩١، ص ٢٠.

(4) Ryekmans , J., "Some Recent views on the Public Lnstitions of Saba (Ancient South Arabia)", PSAS II (1970) , p. 24.

(٥) منير عبد الجليل العريفي ، الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم من ١٥٠٠ق .م. حتي ٦٠٠ ق .م. ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ٥٨.

(٦) يري Beeston أن تسجيل "يدع إيل بين" لرحلات صيده دون غيرها من ملوك حضرموت السابقين ، إنما يرجع إلى أن هؤلاء السابقين اعتبروا رحلات الصيد من الأعمال المعتادة التي لا تستحق التسجيل أما "يدع إيل بين" فقد حرص على تسجيلها لكونه ليس من الأسرة المالكة ، وإنما من أحرار فأرادو إثبات شرعيته بتمسكه بالتقاليد الملكية التي يمارسها من سبقة من ملوك حضرموت ، أنظر:

Beeston , A. F. L., " Observations on the Texts form al-uqlah" , PSAP 12 (1982) , p. 10.

وإن كان Beeston يناقض هذا الرأي في الصفحة نفسها عندما ذكر أن رحلة الصيد هي الهدف من خروج الملوك إلى القلعة لأن مراسم منح الألقاب التي ترافقها يمكن أن تكون داخل مدينة "شبوه" : أنظر:

Beeston , A. F. L., op.cit , pp. 10-11

وهناك تساؤل إذا كانت رحلة الصيد هي الهدف فلماذا لم يسجلها ملوك حضرموت قبل "يدع إيل بين" ، وسجلومنح الألقاب فقط ؟ يعتقد على الأرجح هو أن الخروج كان من أجل الصيد ومنح الألقاب معًا وليس من أجل الصيد فقط كما يذكر Beeston لأن كثير من النقوش أشارات إلى منح الألقاب ولم تشر إلى الصيد ويمكن أن يعلل ذلك بأن تسجيل الملوك منح الألقاب دون الصيد على اعتبار ان الحدث الأول سياسي يخص رغبة الملك أما الثاني فهو خاص

Philby 84/1-3 ; Ja949= RES 4912 :[1]

-"Y[d] Lyn m [l]k hdrmt bn rbSms nb hrr yhbr dsqlb whr hgrhn sbwt.
-wdrs bytn sqr sll[.]hdln mt tbrw bn sydmn whrgw hmst wslty bgrrm.
-wtty wt [m] nhy hwrw whmst wsrg sbym wtmnwt fhd bgndln nwdm"[2]

"يدع إيل بين الثالث، ملك حضرموت ، إبن رب شمس من أحرار يهبار جدد العاصمة شبوة، وبنى معبد من الحجر وسقف البلكونات بالحجر عندما تهدمت نتيجة الخراب وذبحوا ٣٥ ثورًا ، ٨٢خروفًا ٢٥غزالاً، ٨ غور، عند حصن آنود".

يذكر Beeston بأن في نشره الأصلي للنقوش لم يربطه بالصيد ولكنه افترض ببساطة أن المسألة شملت أضحيات[٣] ، وأية حال فقد علق Tritton بقوله إن الجزء الثاني من النقش ، هو تسجيل لحفلة صيد وربما يكون من الصعب الأضحية بنمر بشكل جميل.[٤]

وفيما يلي دراسة لأهم المناطق والكهوف والمغارات التي حظيت علي أكبر عدد من نقوش الغزال العربي:

أولاً: تصوير الغزال العربي في نقوش منطقة "يدمه" (نجران) :

لعل نقوش جبل "يدمه" هي الأكثر ثراءاً من حيث تصويرها لنقوش الغزلان والحيوانات البرية الآخري وعمليات الصيد الخاصة بها ، ففي أحد نقوش جبل "يدمه" منظر لثلاثة نقوش متداخلة يظهر فيها منظر للغزال الجبلي وهو النقش الأقدم زمناً يعلوه نقش لثور الجاموس الضخم ثم الفارس الذي يمتطي حصاناً شاهراً سيفه.[٥] (شكل ٤)

بين الملك وإلهة ، أنهم لم يمارسوا الصيد فهو رأي بعيد الاحتمال لأن الصيد من الطقوس الدينية القديمة عند جميع الممالك العربية القديمة ، ولكن يبدو أن "يدع إيل بين" الذي لم يمارس منح الألقاب ، حيث توقفت في عهده ، لأنه جديد على العرش بدلالة أنها عاودت الظهور في عهد ولده "ال ريام" (يادوم) ٢٦٢- ٢٧٥م.

(1) Kitchen , K. A., The world of Ancient Arabic Series Documentation for Ancient Arabia , part II , Bibliographical Catalogue of Texts , Liverpool University Press , 2000 , p. 89.

(2) Beeston , A. F. L., "The Ritual Hunt - A Study in Old South Arabian Religious Practice", Le Museon 61 (1948) , pp. 190-191.

(3) Beeston , A. F. L. , Appendix to H. St. J. B. Phil lay's Sheba's Daughters , London , 1939, p. 451, note 15.

(4) Tritton , A. S., "Sheba's Daughters By H. St. J. B. Philby , London : Methuenand Co.1939", BSOAS 10 (1939-1942) , pp. 514-515.

(5) Cunningham , P. L., Wronski , T., “Twenty Years of Monitoring of the Vulnerable Farasan Gazelle on the Farasan Island”, Oryx 12 (2010) , part 45 (1) , pp. 50.

(شكل ٤) نقش لفارس شاهراً سيفه في مواجهة الوعل الجبلي يعلوه نقش أحدث لثور الجاموس

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

وفي نقش ثانٍ نشاهد عملية صيد الغزلان ، حيث نلمح رسمة احترافية مزخرفة توضح عملية الصيد البري، والتي نشاهد فيها فارساً يمتطي جواده شاهراً سيفه ، بالإضافة لمشهد رامي السهم والذي يري فيه "مجيد خان" أنه يحمل نبلة ، بينما يسير منحنياً في وضع الاستخفاء. (شكل ٥)[١]

(شكل ٥) منظر لفارس يمتطي جواده ويتبعه أحد رماة السهام في آثر غزالة يبدو في أطراف المشهد قدميها الخلفيتين وهي تركض

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

(١) مجيد خان ، " نقوش علي درب البخور " .

وفي نقش ثالث رسم فائق لغزالة ومجموعة من النعام ، وفيما يبدو أن تصوير الغزالة كان قديم نسبياً[١]؛ بينما يري "مجيد خان" أنه قد أُعيد حك أطرافها في زمن متأخر.[٢] (شكل ٦)

(شكل ٦) رسم بارع لغزالة بصحبة مجموعة من النعام)جبل يدمه(

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

ففي نقش رابع نشاهد منظر صخري صورت أعلي الجبل في مكان مفتوح يشاهد من خلالها عملية الصيد البري بواسطة الخيل لمجموعة من الغزلان البرية ، بينما يتوسط المشهد رسوم لإناث في وضع الاستسلام ، حيث تبدو وهن رافعات الأيدي لأعلي ، ويري أنه لابد من وجود رساله أو هدف من وراء هذا المشهد وليست محض الصدفة ، والتي يري فيها أنه ربما تؤدي طقسة تعبديه أو ترقص.[٣] (شكل ٧)

بينما يمثل نقش خامس منظر للمها العربي ، والذي عُرف في شبه الجزيرة العربية قديماً باسم "الوضيحي" حيث صور بشكل واضح بقرنيه الطويلان وسط مجموعة من الحشائش.[٤](شكل ٨)

أما النقش السادس فيمثل مشهد لعملية الصيد البري أيضاً ، ولكن يزيد علي هذا المنظر ظهور مجموعة من النساء تلي منظر لغزالة برية صُورت بشكل شديد البراعة حيث تجلي فيها الفنان في إظهار ملامح الرشاقة علي الغزال العربي ذي القرون القصيرة والجسم النحيل.[٥] (شكل ٩).

(1) Cunningham , P. L., op.cit , p. 53.

(٢) مجيد خان ، "نقوش علي درب البخور" .

(٣) مجيد خان ، "نقوش علي درب البخور" .

(٤) المرجع السابق : الموضع نفسه .

(٥) أحمد الدامغ ، وآخرون ، "نقوش علي درب البخور (٣) شمال يدمه . نقوش صخرية تعبر عن الماضي" ، ١٨ إبريل ، ٢٠١١ . www.alsahra.org/?p=6423

(شكل ٧) نقش لعملية صيد بري لمجموعة من الغزلان يتوسط منظر لإناث في وضع الاستسلام

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

(شكل ٨) نقش للمها العربي "الوضيحي" بقرنيه الطويلين

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

(شكل ٩) منظر لغزالة برية يتبعها فارس يمتطي جواده وشاهراً سيفه

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

أما تصوير النقش السابع فقد جاء من فوق صخور جبل القهر (يقع في محافظة الريث شرقي منطقة جازان) وهو نقش يمثل منظر لزوج من الوعول الجبلية المنقرضة ، ويبدو في النقش تداخل قرون الوعلين بشكل فني رائع ، كما يبدو علي النقش عوامل التعرية الجوية والتي أثرت في حروفه المحزوزه.[1] (راجع شكل ٢).

وفي نقش ثامن في جوف غار مستخفي كبير ومعزول عن الشمس يقع شمال غرب العشارة ، يمثل عملية صيد جماعية تستخدم فيها الخيول للمطاردة بالإضافة للكلب السلوقي والرمي بالسهم ، وكما يبدو في المنظر أن حيوان الكلب قد تمكن من الإيقاع بزوج من الغزلان البرية ، بينما يوجه رامي السهام سهامه باتجاه رؤوسهم.[2] (شكل ١٠)

(شكل ١٠) منظر لعملية صيد برية لزوج من الغزلان البرية باستخدام الخياله ورماة السهم وكلاب الصيد

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

أيضًا ولقد كان الهدف من عملية الصيد هذه هي قنص الغزال ، ولقد بدا النقش وكأنه جديد بالمرة وكأن يد النحات قد فرغت منه بالأمس بسبب انعزال الغار عن العوامل الجوية المحيطة.

كما عُثر علي رسوم صخرية جميلة من النوع القديم وسط جبل أو هضبة "جنح" ذات الحجر الرملي الأملس الداكن اللون ، حيث يظهر في الرسوم الصخرية لوحة ضخمة مشبعة بالرسوم حيث يري منظر لأسد ولبؤة ومجموعة من الأيائل والغزلان والوعول الجبلية.[3] (شكل ١)

(1) Cunningham, P. L. , op.cit , p. 54.

(2) Ibid , p. 54.

(٣)) أحمد الدامغ وأخرون ، المرجع السابق ، ص ٢٢.

(شكل ١١) مشهد علي واجهة جبل "جنح" لعملية صيد لمجموعة من الغزلان والوعول الجبلية

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

كما عثر علي نقش يقع في المنطقة الجبلية ما بين تيماء والحجر "مدائن صالح" ، يمثل أسد يركض خلف غزال ، أو وعل بري ذو قرون طويلة ، وقد ابدع الفنان في إظهار القرون الملتوية للغزال / الوعل البري بينما استفاض في إظهار طول ذيل الأسد.[١] (شكل ١٢)

(شكل ١٢) منظر لأسد يركض في مطاردة غزال بري

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

(١) أحمد سعيد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ في منطقة الباحة ودلالاتها التاريخية والحضارية" ، مقال منشور في ١٤٣٢/٦/٢٤ هـ / ٢٠١٢ م ، علي الموقع الإلكتروني:
http://albahatoday.cc/articles.php?action=show&id=597

وفي مشهد آخر من أعلي سفح جبل سعد نشاهد منظر لثلاثة من الغزلان الجبلية ذات القرون الملتوية ، رُسمت بالحجم الطبيعي وهي تتجه جهة الشرق .[1] (شكل ١٣)

(شكل ١٣) منظر لثلاثة من الغزلان الجبلية ذات القرون الملتوية

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

كما يمكن مشاهدة مجموعة من الرسوم علي أسطح الجبال لعمليات صيد الغزلان باستخدام الخيول وكلاب الصيد ، ففي الشكل التالي منظر لصيد الغزلان البرية ، التي تفر هاربة أمام زحف الخيالة باتجاهها بينما يتوسط المنظر رسم لإمرأة يبدو من لباسها أنها ذات شأن .[2] (شكل ١٤)

(شكل ١٤) منظر لصيد غزلان برية باستخدام الخيول وكلاب الصيد

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

(١) أحمد سعيد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ" .

(٢) أحمد سعيد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ" .

وفي النقش التالي منظر لعملية صيد بري آخري لمجموعة من الغزلان الجبلية ، بينما يقف رجل تبدو علي ملامحه أنه ذو شأن عظيم في انتظار ما تؤل إليه عملية الصيد.[١] (شكل ١٥)

(شكل ١٥) منظر لصيد غزلان برية يقف شخص يبدو من هيئته أنه ذو شأن عظيم في انتظار الغنائم

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

وفي منظر تالٍ نشاهد نقش بارز لغزالة برية تتميز بقرون طويلة وذيل قصير ، ويتميز هذا النقش بمحاولة الفنان إبراز عضلات السيقان ، وملامح الوجه ، وتجويف الذيل.[٢] (راجع شكل ١٥)

وفي النقش التالي عملية مطاردة لقطيع من الغزلان الجبلية بواسطة الخيالة وكلاب الصيد ، ويتضح من المنظر ظهور نعامه في أعلاه وثور بري في أسفله.[٣] (شكل ١٦)

وفي نقش آخر نشاهد منظراً لمجموعة من الغزلان تداخلت قرونها وأجسامها مخفية أجزاء من بعضها البعض ؛ بينما ميز الفنان إحداها بالقرب المكاني مبرزاً حجم القرنين والأذنين ، وعضلات السيقان ، وقصر الذيل.[٤] (شكل ١٧).

كما نشاهد في منظر لغزال بري ذي قرون وذيل طويلين في نقش أخر ، لحظة انقضاض كلب صيد علي أعلي ظهره في محاولة لصيده.[٥] (شكل ١٨)

---

(١) أحمد سعيد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ".

(2) Apio , A., and others, “Cross infection” , pp. 325-329

(3) Ibid.

(4) Ibid.

(٥) أحمد سعيد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ".

(شكل ١٦) نقش لصيد الغزلان البرية
نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

(شكل ١٧) نقش بارز لمجموعة من الغزلان البرية
نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

ثانياً: تصوير الغزال العربي في نقوش منطقة "الباحة":

يشير إلي أن مناظر الصيد تعد من أهم وأكثر الرسوم شيوعًا في الرسوم الصخرية لعصور ما قبل التاريخ في منطقة "الباحة" ، وهي تمثل وسيلة هامة للاتصال والتفاهم بين أولئك البشر في تلك العصور ، وتظهر بعض تلك الرسوم نزعة للتطور من الصور ذات الملامح البشرية والحيوانية

(شكل ١٨) كلب صيد يهاجم غزال بري قارن مع شكلها في الوقت الحالي

نقلاً عن: www.alsahra.org/damigh

الواضحة إلى أشكال عودية تشبه كثيرًا حروف النصوص العربية القديمة (المسند الجنوبي).[١]

وتنتشر شواهد وأماكن تلك الرسوم والنقوش في مواقع مختلفة من منطقة الباحة ، وفيما يلي عرض لعدد من نماذج تلك المواقع :

١- رسوم جبل شدا الأعلى:[٢]

ولقد وُجدت على جدرانها رسوماً ملونة غاية في الندرة والأهمية ، إذ هي من أقدم الرسوم الصخرية التي عُثر عليها في كهوف العالم ، وذلك أن بعضها يعود إلى العصر الحجري الأخير، في الحقبة ما بين (٢٠٠٠٠ – ٦٠٠٠ ق.م.) وذلك استناداً إلى تطابقها مع رسوم مشابهة لفن الكهوف في مواقع أخرى خارج الجزيرة العربية وفي هذا التاريخ كانت منطقة الباحة ، ولاسيما سهول تهامة والسفوح الجبلية المنخفضة ، إذ القمم العالية في ذلك الزمن كانت شديدة البرودة أو تكسوها الثلوج في بعض فصول السنة .

وفيما يلي عرض لنماذج مختارة من تلك الرسوم :

---

(١) احمد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية"
http://albahatoday.cc/articles.php?action=show&id=597

(٢) ومن أمثلة ذلك رسوم كهف "لاسكو" بجنوب فرنسا ، ورسوم كهوف جبال "تاسيلي" التي تقع بين الحدود الليبية والجزائرية ، شمال الصحراء الكبرى . راجع : أحمد سعيد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ".

أ / رسوم كهف هُريته (غار الكَتْب) :[1]

ففي النقش التالي – والذي يقع داخل كهف في صخرة عظيمة ملقاة على سفح جبل سهل الانحدار يسمى "هُريتة" – والذي نُفذ على مساحة كبيرة من جدار الكهف ، تظهر مجموعة من الأنواع الغزلان البرية المنقرضة ، وهي شبيهة بالأبقار المبقعة ، لها وجوه تشبه وجوه المعزى ، وقرون تشبه قرون المها (الوضيحي) ، ولكن منحنية قليلا إلى الوراء ، ولها أذيال طويلة غير مخصلة ، ويظهر الرسم تفاصيل دقيقة لتلك الغزلان تميز الذكور عن الإناث ، ويمكن ربط رسوم هذه الأبقار بالأحوال المناخية المطيرة التي كانت سائدة في ذلك العصر، إذ أن هذه الأنواع من الغزلان أو الأبقار لا تعيش – في الغالب – إلا على موارد مائية دائمة على ضفاف الأودية أو البحيرات.[2] (شكل ١٩)

(شكل ١٩) من داخل أحد كهوف جبل هريته بمنطقة الباحة يمثل المها العربي المزركش

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

ويحيط بهذه الأبقار رسوم بشرية في وضع يوحي بأنها في وضع راقص، فإلى أعلى الرسم من جهته اليسرى، يظهر رجل يحمل سيفًا على خاصرته ، وذراعاه مرفوعتان إلى الأعلى ، وإلى جواره امرأة وطفل أو طفلة.[3] (شكل ٢٠)

---

(١) ولقد مُليء بالكهوف الواسعة ، ويقع إلى الشمال الغربي من جبل شدا الأعلى ، على ارتفاع ٩٠٠م ، ونظرا إلى تلك الرسوم سمعت الرعاة من أهل ذلك المكان يسمونه (غار الكَتْب) ، وهذه الرسوم هي عبارة عن أشكال حيوانية وآدمية رسمت بصبغ أحمر من مادة الهيماتيت المأخوذة من أكسيدات الحديد الطبيعية وهي تشبه الدم ، أو من العصارة الحمراء لشجرة الخزم (دم الأخوين) التي تنبت بأعداد طيبة في هذا الجبل ، وتقع بوابة الكهف نحو الجهة الغربية ، وهو محمي من أشعة الشمس إلا في ساعة الغروب ، فإنها تصل إلى عمق الغار ، ولا سيما الجهة الجنوبية من مدخل الكهف. راجع: أحمد سعيد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ" .

(٢) قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية

(٣) قشاش: "الرسوم والنقوش الصخرية

(شكل ٢٠) داخل أحد كهوف جبل الباحة يمثل هيئات بشرية محاطة بمناظر للمها العربي المزركش

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

ويظهر أن الغرض من هذه المناظر الراقصة حول تلك الحيوانات إظهار بعض الطقوس الدينية أو التعبدية المرتبطة بالصيد والقرابين ، والتي ما تُصور، غالبًا ، في مجموعات وهي ظاهرة استمرت إلى فترة العصور الجاهلية التي تسبق ظهور الإسلام ، وقد ذكر المؤرخون أن العرب في جاهليتهم كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للآلهة ، وأن ممارسة الشعائر والطقوس الدينية كالدوران حول الأصنام والقرابين كانت تؤدى والأيادي مرفوعة.

هذا ويعتقد كثير من الباحثين في علم الأجناس أن إنسان ما قبل التاريخ قد برع في رسم الحيوانات التي يريد صيدها ، كالأبقار والوعول والخيول والجمال المتوحشة ، وذلك اعتقادا بأنه سوف يمتلك روحها ويسيطر عليها من خلال تلك الرسوم وبعضهم يرى أنهم استخدموا هذه الرسوم لبعث الشجاعة لدى الصيادين وطرد الخوف من نفوسهم .

ب / رسوم شعب وادي الجوف :[1]

كما نشاهد في رسوم وادي الجوف- الواقع في أعلي قمة جبل شدا الأعلى ، والواقعة داخل كهف في شعب جميل به عدد كبير من الكهوف والمغاور - قطيع من الماشية يشبه بعضه الماعز وآخر يشبه الضأن بينما ظهر نقش لغزالة في أقصي شمال شرق النقش وقد اختفي جزء من جسمها خلف إحدى المواشي ، وقد ظهر الجميع بألية طويلة كالذيل ، ولعلها لنوع كان بهذه

(١) وهو يقع على ارتفاع ١٣٠٠م ، ويعلو وادي الجوف بنحو ٥٠ م ، وهو واد ضيق رطب ، كثيف النبات ، ينحدر من أعلى قمة لجبل شدا الأعلى ، وتجري فيه المياه معظم أيام السنة ، وقد شكل ملجأ وملاذا لبعض الأنواع النباتية النادرة التي كانت واسعة الانتشار في العصور المطيرة ، وانحصر وجودها الآن في بطون الأودية الدافئة والرطبة ، كاللَّبَخ والصَّوْمل والظُّلاَّم والحُمر . ولا عجب أن يختار إنسان ما قبل التاريخ العيش في الكهوف القريبة من هذا الوادي .
راجع : أحمد سعيد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ" .

الصفة لم يعد له وجود ، وقد اصطبغت رسوم هذا الكهف باللون الأحمر ، وهي تعود إلى الحقبة الزمنية للرسم السابق ، ولم تقترن هذه الرسوم بأشكال بشرية ، كما نفذت بوضيعة الرسم الجانبي ، وبالخطوط الخارجية للجسم ، وحاول الرسام أن يُظهر بعض التفاصيل المميزة ، حيث رسم القرون بصورة تميز بين النوعين ، وظهرت الضروع لبعض تلك الماشية بصورة بارزة للتأكيد على أنها أناث.[١] (شكل ٢١).

(شكل ٢١) مجموعة من الماشية – من داخل كهف وادي الجوف

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

وإلى جوار تلك توجد رسوم لعدد من رؤوس تلك الماشية فقط ، ولكن تظهر فيها القرون بصورة واضحة ، تميز بها نوع الضأن عن الماعز ، وإلى جانب ذلك رسم لرأسين ، يبدو أنهما لنوعين من الثيران ، أحدهما ذي قرون متجهة إلى الأمام ، ومقوسة نحو الداخل ، والآخر ذي قرون مستقيمة ، ويحتمل أن هذه الرؤوس المنفصلة عن أجسادها ترمز إلى ثنائية الموت والحياة ، أو إلى نوع القرابين المقدمة في طقوس العبادة.[٢] (شكل ٢٢)

جـ / نقوش شعب الحميمة :[٣]

عُثر في هذا الشعب على ثلاثة كهوف تحتوي على رسوم مختلفة وهو لنفس الرسام الذي نفذ رسوم كهف هُريته ، لكن الرسم هنا قد أثرت فيه عوامل الطبيعة بشدة ، طمست أكثر معالمه، وما بقي منه يظهر بصورة باهته ، ولكن نهج الرسم وسماته تدل بوضوح على أنها للرسام نفسه .[٤]

---

(١) نفسه .

(2) Apio, A. and others, "Cross infection", pp. 325-329.

(٣) يقع هذا الشعب شمال شدا الأعلى ، على ارتفاع ١٢٠٠م ، ويشرف على وادي الجوف من جهته الشمالية

(4) Ibid , pp. 325-326.

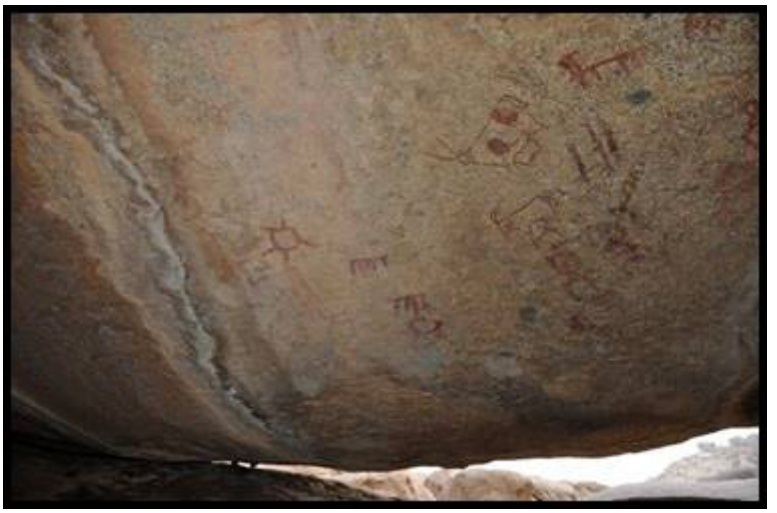

(شكل ٢٢) نقش باللون الأحمر لمجموعة من الماشية والغزلان - من داخل كهف وادي جوف

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

ويقع الرسم الثاني في كهف لا يبعد كثيرًا عن الكهف الأخير، وقد نُفذ الرسم بطريقة مغايرة للرسوم السابقة، إذ اعتمد الرسام على أسلوب الكشط في الصخر أو الحك لإبراز الشكل المطلوب عن أصل الصخر، وربما كان ذلك من استعمال مادة ذات قوام بارز ومغاير، كالشيدة مثلاً.[١]

وتقع الرسوم في تجويف غائر على سفح كهف واسع جميل، وهي عبارة عن لوحة يظهر فيها قطيع من الغزلان، وأنواع من السباع كالأسد والنمر الذي ما زال يتخذ من بعض كهوف هذا الجبل ملاذا أخيرا له.[٢] (شكل ٢٣)

هناك نقش يظهر أمام الأسد فريسة قد أجهز عليها، يريد التهامها، ومن خلفه جمل[٣] يسير بحركة سريعة يوحي بذلك ذيله المرتفع وقوائمه الممتدة والمتباعدة، ويمتطي ظهر هذا الجمل رجل إحدى يديه تحمل رمحًا في حالة استعداد للرمي، ويده الأخرى تمسك بخطام الجمل، وإلى جوار هذا الكهف كهف آخر صغير، في جوفه رسم لرجل يمتطي ظهر جمله في هيئة تماثل الصورة الأخيرة، وهو الكهف الثالث المشار إليه.[٤] (شكل ٢٤)

---

(1) Ibid , pp. 326-327.

(2) Ibid , pp. 327-328.

(٣) يبدو أن هذه الرسوم ليست قديمة جدا، فظهور الجمل فيها يعني أنها تعود إلى العصر البرونزي أو الحديدي، أي قبل ٢٥٠٠ – ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وهو الزمن الذي تم فيه استئناس الجمل، ما يعني وجود فارق زمني كبير بين هذه الرسوم والرسوم السابقة.

راجع: أحمد داوود، العرب والساميون، دمشق، ١٩٩٦م، ص ٥٠ – ٥٢.

(٤) نفسه، ص ٥١ – ٥٢.

(شكل ٢٣) نقش باللون الأحمر لقطيع من الغزلان – من أحد كهوف شعب الحميمة

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

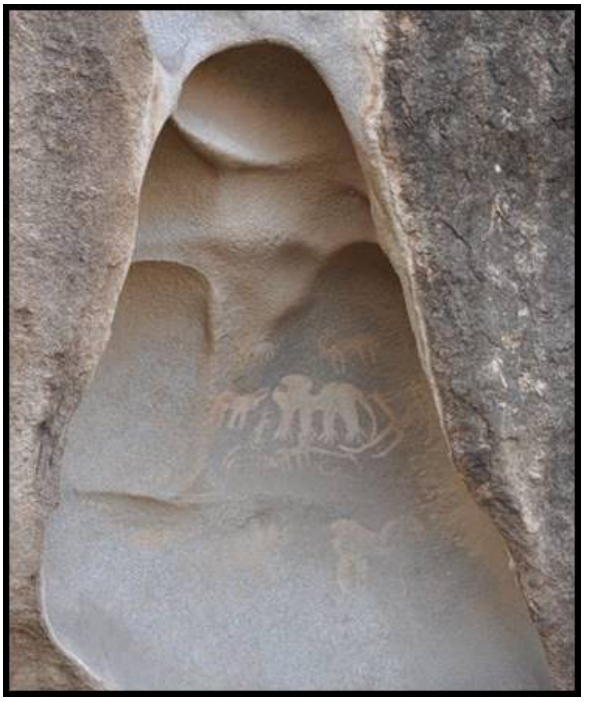

(شكل ٢٤) نقش لأسد بدائي وقد أجهز علي فريسة في وضع الاستسلام أمامه يعلوه نقش لغزال عربي بقرون طويلة – من كهف ؟؟

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

٢ـ نقوش جبل شدا الأسفل:[١]

إن هناك عددًا من الكهوف تكتنز رسومًا وكتابات أثرية نادرة ، ذهبت في رحلة علمية إل قرى الفرع ، والأشراف ، والهُرير ، والدِّهنة ، وغيرها ، وتمثل الأشكال الحيوانية نسبة كبيرة من تلك الرسوم ، وسأورد أمثلة لذلك مع تعليق مختصر عليها للوقوف على أهمية تلك الرسوم ، وكشف دلالاتها العلمية وأبعادها التاريخية ، والحضارية . ومن أمثلة ذلك ما يلي :

أ / رسوم قرية الفرع:[٢]

يوجد في وسط هذه القرية وأطرافها عدد كبير من الرسوم ، وأهمها رسوم كهف الأضاة ، وهو كهف مكشوف يقع وسط القرية ، وتوشك رسومه على الزوال بفعل عمليات الأكسدة والتعرية الطبيعية عبر الزمن الطويل . وهي رسوم تجريدية أو ملونة بشكلها الطبيعي، تصور مجموعة من الفصيلة البقرية ، مقترن بها أشكال بشرية أنثوية في منظر طقسي راقص ، ويظهر أنه كان للبقر خاصة نوع من التقديس ، في تلك الحقبة الزمنية (٢٠٠٠٠ — ٦٠٠٠) ق.م. يدل على ذلك كثرة الرسومات التي تصور أشكالا آدمية تؤدي طقوساً دينية حول البقر.[٣]

ب / رسم كهف الهُرير :

يقع هذا الكهف في قرية الهُرير على يسار الطريق الوعر المؤدي إلى قرية الأشراف بأعلى الجبل ، وفي داخل هذا الكهف كتابة نادرة في أربعة أسطر عمودية ، رُسمت فيها الحروف من الأعلى إلى الأسفل ، بلون أحمر غامق ، وهي كتابة ثمودية قديمة من أصل سبئي ، يعود تاريخها تقديراً إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، وهي لا تزال بحالة جيدة نظراً لوجودها في عمق الكهف حيث لا تصل أشعة الشمس ، ولا الرطوبة إليها.[٤]

جـ / رسوم كهف وادي الشُّوْق:

تقع هذه الرسوم داخل كهف بأعلى وادي الشُّوْق المنحدرة مياهه من السفوح والشعاب الجنوبية لجبل شدا الأسفل ، على ارتفاع ٣٠٠ م ، وهو كهف واسع مظلم ، يحتوي في داخله

---

(١) يُعد هذا الجبل امتدادا لجبل شدا الأعلى من ناحيته الجنوبية ، ويحوي عددا لا يُحصى من الكهوف والمغارات الطبيعية ، قل أن يوجد لها نظير في أرجاء هذه الأرض.
راجع : أحمد داوود ، المرجع السابق ، ص ٥٠ — ٥٢.

(٢) تحتوي قرية الفرع علي ثلاثة مناطق رئيسية تحوي رسوم صخرية مميزة وهي كهف الأضاة ، كهف الفرع ، رسوم قمة ندبة ، كما تحتوي قرية الفرع علي شجرة الخزم والتي يُستخرج منها عصارة حمراء اطلق عليها اسم (دم الأخوين) ، والتي كانت تستعمل في تلوين الرسوم الصخرية. راجع : أحمد داوود ، نفسه ، ص ٥١.

(٣) نفسه ، ص ٥١.

(٤) نفسه ، ص ٥١

على لوحات حافلة برسوم ملونة لأنواع من المخلوقات ، منها أبقار مع مواليدها ، وعدد كبير من الثيران، وأنواع من الماعز له ذيول طويلة تنتهي بخصلة من الشعر ، وغزلان ، وخيول وحُمر ، وبعض المفترسات ، وتحتوي كذلك على أشكال بشرية باهتة في وضع راقص ، وعلى بعض المخلوقات الغريبة ، وعلى أشكال هندسية في هيئة مربعات ومستطيلات ومثلثات ، وعلى رسومات أخرى غير مفهومة .[1] (شكل ٢٥)

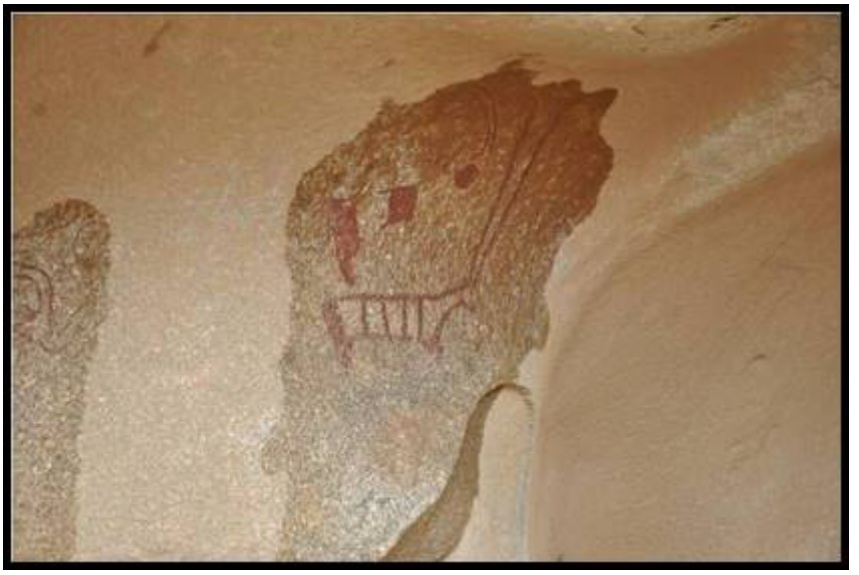

(شكل ٢٥) نقش باللون الأحمر لغزال عربي ذو قرون طويلة مستقيمة من كهف ؟؟؟

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

د / رسوم شعب قَميشة بجبل أثرب :[2]

توجد رسوم نادرة تقع في جوف وهي عبارة عن رسوم بشرية ملونة، مقنعة برؤوس حيوانية ، ويبرز من بين الساقين ما يشبه الذي[3] ويظهر واحد من تلك الأشكال يجر إليه وعلا ، أو غزالا بحبل ، أو يصوب إليه رمحه . وهذا النوع من الرسوم البشرية الملونة ، ذات الرؤوس الحيوانية المقنعة ، تعد من أندر الرسوم الصخرية في العالم ، وهو نمط من الرسوم موغل في القدم يعود تاريخه

(١) نفسه ، ص ٥٦.

(٢) وهو كهف يقع بأعلى شعب قَميشة ، إلى الشرق من وادي الخيطان الشهير ، على ارتفاع ١٢٠٠م ، ويسميه أهل ذلك الجبل (غار الكَتْب) كما يُسمى "كهف هريته السابق" . راجع : أحمد داوود ، نفسه ، ص ٥١.

(٣) وربما يرمز ذلك الذيل إلى العضو الذكري ، والذيُ رسم بشكل مبالغ فيه ، لأنه رمز الذكورة المخصبة في العقائد الوثنية القديمة

أيضًا إلى نحو (٢٠٠٠٠ – ٦٠٠٠) قبل الميلاد ، ويرى بعض العلماء أن مثل هذه الرسوم هي لمخلوقات وهمية أو أسطورية تتكون من حيوانات ، أو أشكال هجينة بجسم آدمي ورأس حيواني ، وبعضهم يرى أن هذه الرؤوس الحيوانية ما هي إلا أقنعة يتنكر فيها الصيادون لخداع الحيوانات التي يصطادونها.[1](شكل ٢٦)

(شكل ٢٦) رسم باللون الأحمر لمجموعة من الصيادين صاد أحدهم غزالاً برياً بالحبال أو بالرمح (كهف قميشة)

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

هـ / رسوم وادي خياصة في الجرشي :

يوجد في هذا الموقع عدد من الصخور المتجاورة ، يظهر عليها رسوم لحيوانات عاشبة كالوعل والغزال البري والثور والحمار ، ورسم لآدمي مقنع ، له ذيل ، كما في رسم كهف قَمِيْشة بجبل أثرب ، إضافة إلى بعض الرموز غير المفهومة . وهي مرسومة أو منقوشة على الصخر بأسلوب الكشط أو الحك بأداة صلبة ، وتعود للفترة ما بين (٣٠٠٠ – ٤٠٠٠) قبل الميلاد ، ومن هذا الزمن بدأت فترة الجفاف الحالية ، ولكنه كان أقل شدة مما هو عليه الآن ، كما أن الغطاء النباتي والحيواني كان أكثر كثافة وتنوعًا[2].(شكل ٢٧)

(1) Olsen , S. L. , Arabian Rock Art Heritage , in : www.saudi_aracheoalogy. com. , p.150.

(2) Olsen ,S. L. , Arabian Rock Art Heritage , in : www.saudi_aracheoalogy. com. , p. 150.

(شكل ٢٧) نقش مرسوم علي الصخر بأسلوب الكشط لثور أو وعل بري ذو قرون بجوار هيئة أدمية مقنعة (وادي خياصه)

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

٣ـ نقوش سبئية ثمودية من مواقع مختلفة :

مرت الرسوم الصخرية في هذه المنطقة بشكل خاص و شبه الجزيرة العربية بشكل عام ، بتسلسل تاريخي طويل ، تطورت فيه الكتابة العربية من الرسوم الحيوانية والبشرية كوسيلة للاتصال والتفاهم إلى الحروف الأبجدية المتمثلة في صورة ما يعرف بالخط السبئى أو الثمودي[١] ، وهو خط عرب جنوب شبه الجزيرة العربية الذي يعد أقدم الخطوط العربية قبل الإسلام ، وقد بدأ في الظهور والتميز عن الأشكال الحيوانية والآدمية العودية ، كما يقدر بعض العلماء ، منذ العصر الحجري المتأخر أو البرونزي القديم في الفترة ما بين ٣٠٠٠ – ٢٥٠٠ قبل الميلاد . واستُخدم الخط الثمودي على نطاق واسع في أنحاء الجزيرة العربية على شكل عبارات قصيرة تمثل ذكريات وأدعية وخواطر

(١) مما لا شك فيه أن الخط اللاتيني أو الأوروبي المعاصر، والمنتشر اليوم على نطاق عالمي واسع مأخوذ من الخط العربي القديم الذي انتقل إلى شمال الجزيرة مع القوافل التجارية والهجرات البشرية ، أخذه اليونان من العرب الذي هاجروا من هذه المناطق إلى الشمال واستوطنوا حوض البحر الأبيض المتوسط، وذلك في حدود سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد ، والأدلة على أن الخط اللاتيني مأخوذ من الخط العربي القديم كثيرة لا يمكن دفعها ، ولا يتسع المقام هنا لذكرها ، وذلك بعض من أعظم إسهامات الفكر العربي قبل الإسلام ، فضلا عن إسهامات الحضارة العربية بعد الإسلام ، في النهوض بالحضارة الأوروبية والإنسانية المعاصرة.
راجع : أحمد داوود ، المرجع السابق ، ص ٥٢.

شخصية وأسماء أعلام وأماكن ، وغالبًا ما يتم العثور على هذه النقوش بالقرب من مواقع الكهوف الصخرية وعلى طرق القوافل ، وضفاف الأودية ، ومناهل المياه . وعبارة (الخط الثمودي) تسمية اصطلاحية لهذا النوع من الكتابة العربية القديمة ، ولا تعني بحال أن سكان هذه المنطقة أو من قام بكتابة هذه النقوش هم من قبيلة ثمود المذكورة في القرآن الكريم ومصادر التراث العرب[1] .

وفيما يلي نماذج من الخط السبئي الثمودي ، من مواقع مختلفة من منطقة الباحة ، يتضح من خلالها الشبه الواضح بين الخط العربي القديم ، والخطوط اللاتينية المعاصرة .

أ / نقشان من شعب سهاوة قرب وادي أصب في الجنش :

وأخيرا فإن انتشار هذه الكتابات وتناثرها في أماكن شتى من هذه المنطقة وغيرها ، أمر يلفت النظر ويدعو إلى العجب والإعجاب بأولئك الأجداد العظماء الذين اخترعوا الكتابة على واجهات تلك الصخور ووصلوا بها إلى درجة عالية من الاتقان ، بالرغم من صلابتها وصعوبة الكتابة عليها ، فحققوا بذلك ثاني أهم ثورة في تاريخ التمدن البشري بعد الثورة الزراعية ، مع أنهم كانوا أبناء بوادي ، وقد عاشوا قبل الإسلام بزمن طويل جدا .[2]

وفيما يلي جدول يوضح التسلسل التاريخي للرسوم الصخرية (شكل ٢٨) ، حيث يبدو من العمود الثاني بالجدول المذكور تطوراً لمراحل تصوير الغزال العربي :

ب / محمية عروق بني معارض[3] بمنطقة نجران[4] :

تتميز هذه المحمية بتنوع بيئاتها الطبيعية من جبال ووديان وكثبان رملية ، وتضم عددا من التشكيلات الأرضية والمواطن الفطرية الطبيعية الهامة منها كثبان رملية مرتفعة وهضبة جيرية متقطعة ، وقد أعلنت هذه المنطقة محمية ذات أنماط حماية متعددة ، وتعد حالتها جيدة والحياة الفطرية فيها غنية متنوعة وتعتبر آخر المواطن في شبه الجزيرة العربية التي شوهد فيها المها العربي قبيل انقراضه عام ١٩٧٩ م .[5]

---

(1) Olsen , S. L. , Arabian Rock Art Heritage , in : www.saudi_aracheoalogy. com , p. 151.

(2) Ibid .

(٣) تبلغ مساحتها حوالي ١١٩٨٠ كم٢ وتقع في شمال نجران وجنوب منطقة الرياض.

(٤) تقع منطقة نجران في الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية بين خطي عرض ١٧و٢٠ درجة شمالا ، وخطي طول ٤٤ و٥٢ درجة شرقا ، ويحدها من الشرق صحراء الربع الخالي ، ومن الغرب منطقة عسير ، ومن الشمال منطقة الرياض ، ومن الجنوب جمهورية اليمن . ويتبع لمنطقة نجران المحافظات التالية:
١- محافظة شروره ٢- محافظة حبونا ٣- محافظة ثار ٤- محافظة يدمه ٥- محافظة بدر الجنوب ٦- محافظة خفاش ٧- محافظة الخرخير

(٥) مقال بعنوان: "نجران" ، على الموقع الإلكتروني
http://www.startimes.com/?t=30856667 . تاريخ الاطلاع : 25/7/2015

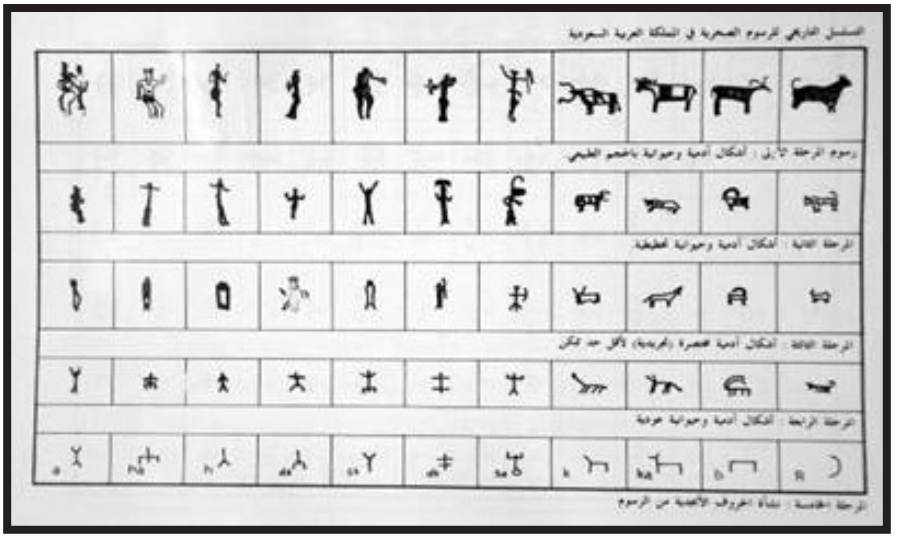

شكل ٢٨) جدول يظهر مراحل تطور الرسوم والنقوش الصخرية في شبه الجزيرة العربية وفي العمود الثاني مراحل تطور رسوم ونقوش الغزال العربي

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

هذا وإلى جانب ما يذكر عن وجود المها العربي ، وغزال الآدمي ، وغزال العفري السعودي ، والوعل ، والنعام العربي السعودي ، والحباري فيها ، فإنها لا تزال تأوي عدة أنواع كالأرنب البري ، والوبر ، والذئب ، والضبع المخطط ، والقط الرملي ، وثعلب الرمال وغيرها ، ومن طيورها الحبارى ، والصرد الرمادي ، والقطا ، والحجل العربي ، والرخمة المصرية ، وأنواع من القنابر، ومن الزواحف الضب ، والورل وغيرها.[١]

وتمتاز المحمية بوجود غطاء نباتي غني يتمثل في أشجار السمر ، والسرح الغظا ، والأثوم ، وأشجار الطلح ، وألبان ، و الحرمل ، والطرف ، والعشار ، وشجيرات وأعشاب متنوعة ، وقد أعيد توطين المها العربي ، وغزال الريم في المحمية بنجاح في أوائل عام ١٩٩٥م في المواقع ذات الطبيعة الخاصة ، ولقد لُوحظ أن أعدادها في ازدياد مستمر وأنها تستعيد سلوكها الفطري وتشير – أيضا – نتائج إعادة توطين غزال الآدمي فيها في عام ١٩٩٦ م إلى ازدهار ملموس في الأعداد والانتشار .

٤ـ نقوش حائل بشمال المملكة العربية السعودية:

تشير العديد من الدراسات إلي تمكن بعثة سعودية للآثار من الكشف عن رسوم ونقوش قديمة في منطقة نائية بين صحراء النفود شمالا وجبل شمر جنوبا ، ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ.[٢]

---

(١) جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء الأول ، بغداد ، ١٩٩٦ ، ص ٨٦.

(٢) أحمد عثمان ، نقوش حيوانية ونباتية تعود لعهود ماقبل التصحر قبل آلاف السنين ، الرياض ، ١٩٩٩ ، ص ٤١.

كما أشار سعد الراشد – في مؤتمر صحفي عُقد في الرياض الموافق ٧ اغسطس ٢٠١٦ – أن هذه الرسوم – والتي تعود إلى حوالي ١٠ الى ١٥ ألف سنة – وُجدت منقوشة فوق الصخر على واجهات الجبال المنتشرة في منطقة وعرة تبعد ٦٤٠ كيلومترا إلى الشمال الغربي من العاصمة السعودية "الرياض"، بمركز الشويمس في الحائل.

وتتضمن النقوش التي عثر عليها في الحائل أشكالاً آدمية وحيوانية متنوعة مثل الابقار، والوعول، والاسود، والبقر الوحشي، والغزال، وقد ظهر بعضها منها بالحجم الطبيعي، مما يدل على استئناس الانسان لبعض الحيوانات في شبه الجزيرة العربية منذ وقت مبكر واعتماده على الصيد، كما تُبين الرسوم أنواع الملابس القديمة والاسلحة. كما وجد المنقبون – أيضاً – العديد من أدوات الصيد المصنوعة من حجر الصوان، منتشرة بجانب الرسوم. (شكل ٢٩)

(شكل ٢٩) منظر لقطيع من الماعز والضأن من علي سطح صخرة بالحائل – السعودية

نقلاً عن: www.albahatoday.cc

أما في مناطق عسير، فقد وجدت رسوم الغزالة كما يلي:

١– أبها لقد عثر على رسوم بعض الغزلان فوق هضبة العروس بمنطقة أبها، كما في اللوحة رقم ٦٧[١]، كما أشار سليمان شفيق كمال باشا في مذكراته[٢] إلى أنه شاهد على الأكمات،

(١) مسفر سعد محمد الخثعمي، موسوعة الآثار والتراث والمعالم السياحية في منطقة عسير– دراسة توثيقية– أبها والمراكز التابعة لها، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩، لوحة رقم ٦٧.

(٢) يوسف حسن محمد العارف، أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمال باشا متصرف عسير (١٩٠٨– ١٩١٢)، ص ٤٤؛ مسفر سعد محمد الخثعمي، المرجع السابق، ص ١/٨٢.

بالقرب من قرية[١] مشيع رسمة لغزالة وابنها وقد نفذت على صخرة مربعة الشكل طولها ٣أمتار، كما أشار إلى وضوح الرسمة ودقة وإتقان التنفيذ.[٢]
أما في موقع الثعلب بمنطقة أبها- عثر على رسمة ثانية لغزالة بالحجم الكبير اللوحة رقم [٣]٦٨ ورسمة أخرى لذكر الماعز، وربما الغزال ، كما في اللوحة رقم [٤]٦٩

٢- بلقرن فقد جاءت رسوم الغزلان قليلة جدًا ، وقد وصورت على أنها حيوانات متوحشة ولعل ندرة صورة هذ الحيوانات تدل على أن الغزلان لا يقل وجودها نسبيًا في هذه المنطقة.[٥]

٣- أحد رفيدة لقد ظهرت رسوم الغزلان بصورة أقل مما هي عليه الوعول وقد يكون السبب في ذلك ندرة وجودها في المنطقة، وقد يكون –أيضًا- بسبب تفضيل الرسام لحيوان الوعل على باقي الحيوانات من الفصيلة نفسها.[٦]

٤- سراة عبيدة لقد وجدت الوعول والغزلان في رسوم المنطقة وبأعداد لا بأس بها.[٧]

٥- تثليث جاءت مناظر الغزلان في رسوم المنطقة بأعداد كبيرة وقد ظهرت في بعد المناظر كفريسة صيد للصيادين، كما شوهدت –أيضًا- مصاحبة للبشر في بعض المناظر الاجتماعية الطقوسية ، مما يوحي بأنه كان يتم تقديمه كقربان للآلهة ،[٨] أي الصيد الشعائري بمعنى الصيد المقدس.[٩]

---

(١) قرية مشيع : تمثل اليوم أحد أحياء مدينة أبها وقد بحث الباحث عن الرسمة التي أشار إليها سليمان باشا ولم يجدها في ذلك ومن المحتمل أنها اختفت من جراء الطفرة العمرانية التي شهدها هذا الحي وغيره من أحياء أبها . أنظر : مسفر سعد محمد الخثعمي ، المرجع السابق ، ص ١/ ٨٢.

(٢) يوسف حسن محمد العارف ، المرجع السابق ، ص ٤٤ ;
مسفر بن سعد بن محمد الخثعمي ، المرجع السابق ، ص ١/ ٨٢.

(٣) مسفر بن سعد بن محمد الخثعمي ، "الرسوم الصخرية في منطقة أبها وضواحيها دراسة توثيقية لنماذج مختارة منها " ، مجلة الدارة ، العدد الثاني ، ١٤٢٦، ص ١٧٦ .

(٤) مسفر بن سعد بن محمد الخثعمي ، "الرسوم الصخرية ، ص ١٦٧ ؛ الخثعمي ، موسوعة الآثار ، ص ١/ ٨٢ ، ٨٣.

(٥) نفسه ، ص ٥/ ٥٥.

(٦) نفسه ، ص ٦/ ٤٨ .

(٧) نفسه ، ص ٧/ ٤٧.

(٨) نفسه ، ص ٨/ ٥٩.

(٩) تفصيليًا : أنظر:
ابو العيون بركات : "الوعل في الحضارة اليمنية القديمة" ، ص ٣٥-٥٣ ؛
نجوى أكرام : "الصيد الشعائري في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية" ، مجلة كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد ٣٩، القاهرة ، (٢٠١١) ، ص ٢٥٣- ٢٨٧؛
Beeston , A. F. L., "The Ritual Hunt", pp. 183- 196.

الخاتمة

هذا وبعد العرض السابق للغزالة في شبه الجزيرة خلصت الدراسة إلى عدة نتائج مهمة جاء منها ما يلي:-

- تشغل جزيرة العرب الجزء الجنوب الغربي لآسيا ،وقد سماها أهلها جزيرة لأن الماء يدور بها من ثلاث جهات في جنوبيها وغربيها وشرقيها ؛ فهي شبة جزيرة وليس في الأرض شبه جزيرة تضاهيها في المساحة.
- شبة الجزيرة العربية هي أول من أسس أقدم المراكز الحضارية.
- كما يري علماء الغرب أن الصحراء العربية هي مهد الإنسان.
- قسم جغرافيو اليونان والرومان صحاري الجزيري العربية إلي ثلاثة أقسام العربية الصحراوية ،والعربية الصخرية أو الحجرية ،والعربية السعيدة.
- عُثر في منطقة نجران بشبه الجزيرة العربية علي عدد كبير من النقوش المدونة بالقلم المسند ، والتي جاءت مصحوبة برسوم حيوانية جنباً إلي جنب مع النقوش ، والتي كان من بينها الغزال العربي.
- يعد الغزال "العفري" هو النوع الأكثر إنتشاراً من بين أنواع الغزلان الذي يقطن في الجزء الشمالي والجنوبي لشبة الجزيرة العربية.
- يعيش غزال "الريم" في المناطق الصحراوية ،وشبه الصحراوية من شبه الجزيرة العربية.
- ينتشر الغزال السعودي في المنطقة الواقعة بين الكويت والأردن عبر شمال ووسط شبه الجزيرة العربية ،وكذلك علي طول الشريط الغربي حول صحراء الربع الخالي إلي اليمن.
- يبلغ ارتفاع الغزال الأدمي / الصخري ما بين ٦١-١١٠ سم ، بينما يبلغ وزنها ما بين ١٧-٣٠ كجم لذكورها ، و١٦-٢٥ كجم لإناثها ، وهي ذات حجم وسطي بين انواع الغزلان الثلاثة ، كما تتميز بقرونها الطويل وذيلها القصير ، بينما يتشابه ذكورها مع إناثها من حيث الشكل والهيئة.
- بينما بلغ ارتفاع الغزال العفري / السعودي ما بين ٥٥-٦٥ سم ، بينما يبلغ وزنها ما بين ١٥-٢٠ كجم لكل من ذكورها واناثها ، وهي تتميز عن الغزال الجبلي بغطائها ذو الزخارف الحمراء ، وهي ذات قرون أكثر طولاً واستقامة من أي نوع من الأنواع الأخرى، كما يتميز قرونها القصيرة باستدارة طرفه ، كما تتميز بأنوف ذات بقع سوداء ، وأذان طويلة ، وأرجل قصيرة ، وركب بارزة ، وذيل قصير أسود.

- يبلغ ارتفاع الغزال الصحراوي / الريم ما بين ٩٠-١٢٦ سم ، بينما يبلغ وزنها ما بين ٢٢-٤٠ كجم لذكورها ، ١٨-٣٣ كجم لإناثها ، وهي أكثر حجماً من الغزال الجبلي، وأكثر قوة من حيث البنية الجسدية ، وهي تتميز بألوانها الباهتة ، وأنوفها ذات البقع البيضاء ، كما تتميز قرون ذكورها بأنها أكثر طولاً واستقامة حتي أطرافها ؛ بينما إناثها قد تخلو رؤوسها من القرون في بعض الأحيان ، ولهذا النوع ذيول سوداء تتميز بالطول أو الوسطية في أغلب الأحيان.
- تنتشر آثار نقوش الغزلان وصيدها علي طول الشريط الجبلي لساحل البحر الأحمر ، وعلي صفحات جبال الأثير ، وكذا جزيرة فرسان ، وعلي طول الشريط الحدودي والجبلي لسلطنة عمان ، ودولة الأمارات العربية المتحدة.
- تعد جزيرة فرسان بالبحر الأحمر من أكثر الأماكن التي حظيت علي نقوش وحفائر للغزال العربي ، حيث عُثر بها عام ١٨٢٥ م علي حفائر لغزال عربي لم يتمكن العلماء من تحديد نوعه ، وذلك لتشابه جمجمته من حيث الشكل والحجم مع الأنواع الأخرى.
- تعد أغلب مناظر الغزال البري في نقوش "يدمه" تمثل عملية صيده في البراري والصحاري بواسطة الخيول وبمساعدة كلاب الصيد التي تتميز بسرعتها وشراستها.
- كثيراً ما يظهر الغزال البري في نقوش "يدمه" بصحبة الخيول وكلاب الصيد وطائر النعام.
- أما أغلب المناظر الخاصة بالغزال البري في نقوش "الباحة" فتتمثل فيها الاحتفالات النسائية بالرقص ابتهاجاً بالصيد ، أو أسراب الغزال البري وهي تسير في مجموعات.
- أما مناظر الغزال في نقوش جبل "الحائل" فتمثل الغزال في حجمه الطبيعي بمقاييس قدامي الفنانين.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية:

١ - المعجم الوجيز ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٦

٢- أبو العيون بركات ، "الوعل في الحضارة اليمنية القديمة" ، مجلة اليمن الجديد ، العدد ١٢ (١٩٨٦).

٣- أحمد الدامغ وأخرون ، "نقوش علي درب البخور (٣) شمال يدمه ، نقوش صخرية تعبر عن الماضي" ، مقال منشور في ١٨ إبريل ، ٢٠١١.

٤- أحمد داوود ، العرب والساميون ، دمشق ، ١٩٩٦

٥- أحمد سعيد قشاش ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ في منطقة الباحة ودلالاتها التاريخية والحضارية" ، مقال منشور في ١٤٣٢/٦/٢٤ / ٢٠١٢.

٦- أحمد عثمان ، "نقوش حيوانية ونباتية تعود لعهود ماقبل التصحر قبل آلاف السنين" ، ١٩٩٩.

٧- أحمد غسان غادري ، "الحياة البرية / الجزء النظري" ، منشورات جامعة حلب ، سوريا ، ٢٠٠٤.

٨- أسمهان سعيد الجرو ، "الفكر الديني عند غرب جروب جنوب شبه الجزيرة العربية الألف الأول قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي" ، مجلة أبحاث اليرموك ، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، (١٩٩٨)

٩ - جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ، الجزء الأول ، بغداد ، ١٩٩٦ .

١٠- خليل الزبيري ، "الإله عشتر في ديانة سبأ ، دراسة من خلال النقوش والآثار" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عدن ، ٢٠٠٠

١١ - سالم بن طيران ، "الرسوم والنقوش الصخرية لعصور ما قبل التاريخ في منطقة الباحة ودلالاتها التاريخية والحضارية" ، مقال منشور في ١٤٣٢/٦/٢٤ هـ / ٢٠١٢ م .

١٢- فاطمة على السعيد باخشوين ، "الحياة الدينية في ممالك معين وقتبان وحضرموت" ، الرياض، ٢٠٠٢.

١٣- فتحي عبد العزيز الحداد ، "الأشكال الحيوانية في الفن اليمني القديم ، دراسة أثرية" ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩١م

١٤- فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب ، الرياض ، ١٩٦٨.

١٥- نجوى أكرام ، "الصيد الشعائري في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية" ، مجلة كلية الآداب، جامعة عين شمس ، المجلد ٣٩ ، القاهرة (٢٠١١).

١٦- نعمت إسماعيل علام ، فنون الشرق الأوسط القديم والعالم القديم ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
١٧- محمد سعيد القحطاني ، "ألهة اليمن القديم الرئيسية ورموزها حتى القرن الرابع الميلادي" ، رسالة دكتوارة غيرمنشورة ، قسم الآثار، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ١٩٩٧ .
١٨- محمد مرقطن ، "كتابات ونقوش الجزيرة العربية قبل الإسلام" - محاضرة نظمتها دائرة التنقيب والدراسات الأثرية في المديرية العامة للآثار والمتاحف بقطاع التراث ، يوم الاحد الموافق ١٤ إبريل ٢٠١٣ .
١٩- منير عبد الجليل العريقي ، الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم (من ١٥٠٠ ق.م. حتى ٦٠٠ ق.م) ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
٢٠- مسفر سعد محمد الخثعمي ، "الرسوم الصخرية في منطقة أبها وضواحيها دراسة توثيقية لنماذج مختارة منها" ، مجلة الدارة ، العدد الثاني (١٤٢٦)
٢١- مسفر سعد محمد الخثعمي ، "موسوعة الآثار والتراث والمعالم السياحية في منطقة عسير- دراسة توثيقية - أبها والمراكز التابعة لها "، جامعة الملك خالد ، المملكة العربية السعودية ، (١٤٢٩).
٢٢- نبيل إبراهيم حسن ، الظباء والغزلان والأيائل العربية ، مشروع الحفاظ علي التنوع الحيوي والبيئي ، دمشق ، ١٩٩٩ .
٢٣- مقال بعنوان ، "محمية دبي الصحراوية" ، منشور علي الموقع الإلكتروني :
www.ddcr.org
٢٤- مقال بعنوان ، "نجران" ، علي الموقع http://www.startimes.com/?t=30856667

ثانياً: المراجع المترجمة:

١- بتيان غرتان قره ، موسوعة الحيوان (الحيوانات البرية) ، ترجمة اميل بديع ، بيروت ، ١٩٩٨ .
٢- جورج بوزنر، وأخرون ، معجم الحضارة المصرية ، ترجمة أمينة سلامة ، مراجعة سيد توفيق ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

ثالثاً: المراجع الاجنبية:

(1) Apio, A., and others , "Cross Infection with Gastro-Intestinal Tract Parasites between Domestic Goat and Endemic Farasan Gazelle", Journal of King Saud University Science, 10 (2013) , part 25(4).
(2) Beeston, A.F., Appendix to H. St. J. B. Phil lay's Sheba's Daughters, London, 1939
(3) Beeston , A.F., "The Ritual Hunt – A Styudy in Old South Arabian Religious Practice" , Le Museon 61(1948).

(4) Cunningham , P. L., Wronski, T., “Twenty Years of monitoring of the Vulnerable Farasan Gazelle on the Farasan Island”, in : Oryx 12 (2010), part 45 (1).
(5) Fakhry, A., An Archaeological Journey to Yemen, Part I, Cairo , 1952.
Windward, P., The Illustrated Reference Book of Animal , (Smith, W. H., & Son), England , 1982.
(6) Kitchen, K. A., The world of Ancient Arabic Series Documentation for Ancient Arabia , part II , Bibliographical Catalogue of Texts , Liverpool University Press , 2000.
(7) Lerp, H., Plath , M., & Others, “Utility of Island Populations in reintroduction Programmes – relationships between Arabian Gazelle from The Farasan Archipelago and Endangered Mainland Populations”, in : Molecular Ecology , vol. 04 (2014) , Part 23(8).
(8) Mallon, D. P., Hoffmann, M., Gazella Arabica, Red List Category & Criteria Lichtenstein, 1827.
(9) Olsen ,S. L., Arabian Rock Art Heritage, The Application of Advanced Imaging Technology to Saudi Arabian Rock Art , Layan Culture Foundation Project , 2010-2015.
(10) Lipinski , E, “The Goddess ATirat in Ancient Arabia in Babylon and in Ugarit”, Orientalia Lovanieensia Periodica 33 (1999).
(11) Ryekmans, J., “Some Recent views on the Public Lnstitions of Saba (Ancient South Arabia)” , PSAS , vol. II , London , 1970,
(12) Tritton, A.S.,"Sheba's Daughters By H. St. J. B. Philby , London : Methuenand Co.1939" BSOAS 10 (1939-1942).

رابعاً: المراجع الالكترونية:

http://www.almokhtsar.com/node/44567
http://albahatoday.cc/articles.php?action=show&id=597
www.saudi_aracheoalogy.com
http://www.almokhtsar.com/node/44567
www.ddcr.org
www.alsahra.org/?p=6423
http://albahatoday.cc/articles.php?action=show&id=597
http://www.startimes.com/?t=30856667

اللقُي الأثرية بالمقبرة رقم (٩) بكوم فرين
من معروضات متحف كلية الآداب
جامعة الإسكندرية

دكتورة

آمال مهران

الملخص العربي

يتناول البحث مجموعة من اللقى الأثرية المعروضة بمتحف كلية الآداب –جامعة الإسكندرية– والمنتمية إلى المقبرة رقم ٩ بمنطقة كوم فرين، والتي يرجع استخدامها إلى عصر رعمسيس الثاني. وعلى وجه التحديد تناول البحث بالوصف والشرح والتعليق تابوتاً من الفخار السميك يحتوى على مومياء لأحد المتوفين ورقيقة من الذهب تمثل تميمة اللسان. كما عرفت الباحثة منطقة كوم فرين التي وجدت بها هذه اللقى وتاريخ أهم الحفائر التي تمت بها ، ثم التعريف بالمقبرة رقم ٩ واللقى الموجودة بها. وقد توصل الباحثة إلى: (١) أن تاريخ هذه المقبرة يرجع إلى العصر الروماني المتأخر إستناداً إلى ما وجد بداخلها من أواني وتميمة اللسان، (٢) استمرار عقيدة البعث والحساب لسكان هذه المنطقة نظراً لطبيعة الأثار الجنائزية التى تم العثور عليها، (٣) أن هذه المقبرة فيما يبدو لأحد الأفراد ذوي المكانة الإجتماعية وقتها نظراً لوجود التابوت وكذلك الأثاثالجنائزي، وتميمة اللسان الذهبية التي تساعده عند السؤال غي العالم الآخر .

Abstract

This study describes a collection of archaeological findings presented in the Museum of the Faculty of Arts - Alexandria University. These archaeological findings belong to the cemetery no. 9 in the area of Com- Frein during the late Rameses II era. Specifically, the study describes, analyzes, and comments on a thick pottery pot containing a mummy of a deceased person, and a piece of thin gold representing the amulet of the tongue. This study is divided into four sections. Section one gives a brief overview of the area of Com- Frein. The second section presents a brief history of where these finds were found. The third section examines the most important excavations that were carried out in this area. The fourth section deals with the most important conclusion of the study, which are are: (1) this cemetery dates back to the late Roman period based on what was found inside the vessels and the amulet of the tongue. (2) The continuation of the doctrine of Baath among the inhabitants of this area due to the nature of funerary monuments found. (3) It appears that the deceased mummy belongs to a person of a social standing at that time..

مقدمة

يتناول البحث بالوصف والتعليق مجموعة من اللُقى الأثرية المعروضة بمتحف كلية الإداب- جامعة الإسكندرية والتى تنتمى إلى المقبرة التى تحمل رقم ٩ بمنطقة كوم فرين والتى يرجع أقدم استخدام لها إلى عصر الدولة الحديثة وبالتحديد بداية من عهد الملك رعمسيس الثانى. والجدير بالذكر أن منطقة كوم فرين من المناطق المعروفة لدى علماء المصريات منذ القرن التاسع عشر، وقد إهتمت بالمنطقة العديد من بعثات الحفائر الأثرية والتى يرجع أقدمها إلى عام ١٨٨٨م حيث قام العالم الإثري فليندرز بترى بزيارة إلى منطقة كوم فرين واشترى من الموقع تمثالا للمعبود حور حمل خرطوش الملك أمازيس المعروض حالياً فى المتحف البريطانى.

ومن أهم مميزات منطقة كوم فرين أنها تقع فوق مدينة كاملة قُسمت إلى جزأين: إلاول منهما خصص لمساكن الأهالى والحكام والمعابد إلالهية والجزء الثانى خاص بالموتى.

ولقد أولت كلية الآداب – جامعة إلاسكندرية إهتماماً واضحاً بتلك المنطقة، حيث قام الأستاذ الدكتور رشيد الناضورى – رحمه الله- بحفائر فى كوم فرين استمرت لمدة موسم واحد فقط فى عام ١٩٧٠ ولكنها لم تكن البعثة المصرية الوحيدة التى إهتمت بدراسة المنطقة والقيام ببعثات الحفائر بها، حيث عمل فى موقع كوم فرين الأثري والمناطق المحيطة به عدد من البعثات المصرية بدءاً من عام ١٩٦٦م حتى عام ٢٠٠١ ومنذ عام ٢٠٠٢ قامت بعثة من المتحف البريطانى برئاسة نيل سبنسر (أمين بالمتحف البريطانى قسم مصر القديمة والسودان) بالعمل فى الموقع حتى عام ٢٠٠٨ ويمكن القول أن نشاط موقع كوم فرين الأثري يمتد بين الفترة الزمنية من عصر الدولة الحديثة وخاصة عصر رعمسيس الثانى واستمر نشاطه خلال العصور التالية وحتى العصر الرومانى المتأخر.

ولعل من أبرز المعروضات بمتحف كلية إلاداب- جامعة إلاسكندرية تابوتاً من الفخار السميك إسطوانى الشكل و مكون من جزأين، والذى احتوى بداخله على مومياء المتوفى التى كانت فى حالة سيئة، و لكنها إحتوت على واحدة من العناصر المميزة لتطور التحنيط و التمائم المستخدمة فى مصر أثناء العصر الرومانى، ألا وهى تميمة اللسان التى كانت تصنع من الذهب والتى تأتى دائماً مزدوجة والتى تم العثور على نموذج لها فى الدفنة الموجودة بالمقبرة رقم ٩ بكوم فرين، و ستتناول الباحثة بالوصف والشرح والتعليق فى هذه الورقة البحثية كلاً من التابوت وتميمة اللسان الذهبية.

التعريف بمنطقة كوم فرين:-

تقع قرية كوم فرين على بعد خمسة كيلو مترات من مركز " الدلنجات " بمحافظة البحيرة وهى أرض سلفاجو الواقعة بين ترعتى أبو دياب وفرعاش[1]، و هى تتكون من تل أثرى كبير يقع عند الحافة الغربية من دلتا نهر النيل.

(١) رشيد الناضورى، تقرير مبدئى عن حفائر كلية الآداب- جامعة الإسكندرية (كوم فرين) موسم إبريل / مايو ١٩٧٠، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص. ١

وتنتمى المواقع الأثرية بمحافظة البحيرة ومنها موقع " كوم فرين " للإقليم الثالث من أقاليم مصر السفلى، حيث إمتد هذا إلاقليم فى العصر الفرعونى فى مساحة طويلة تقع بإتجاه الشمال وذلك إبتداءً من حدود إلاقليم الثانى وحتى حوض البحر المتوسط على طول الضفة الغربية لفرع الدلتا الغربى "الكانوبى" مما جعل هذا إلاقليم عرضةً للتقسيمات الإدارية بسبب التطور الزراعى والزيادة السكانية[١].

إن منطقة كوم فرين معروفة لدى علماء المصريات منذ القرن التاسع عشر من خلال أوصاف قصيرة لإكتشافات تمت فى مصر بشكل عام وفى مدينة نقراطيس بشكل خاص[٢]، وترجع أهميتها أثرياً إلى وجود مدينة كاملة تحتها بمساحة تسعمائه فدان تقريباً تنتظم فى جزأين احدهما خاص بمساكن إلاهالى والحكام والمعابد إلالهية والجزء الأخر خاص بالموتى[٣]، وقد قام إلاستاذ الدكتور رشيد الناضورى بعمل حفائر بالمنطقة وذلك لمدة موسم واحد عام ١٩٧٠م[٤].

وتجدر إلاشارة إلى أن الجبانة الخاصة بقرية كوم فرين و المسماة "سلفاجو" بدأ استخدامها منذ العصر الصاوى، وقد عُثر داخل الجبانة على العديد من اللُقى الأثرية كالفخار المزخرف والمستورد من جزر بحر إيجه والذى يرجع إلى القرن ٦ ق.م.

أما كوم فرين تحديداً فأقدم ما عثر بها من آثار حتى الآن تم من خلال الحفريات التى تعود إلى عصر "رعمسيس الثانى" حيث اتخذ الملك رعمسيس الثانى عاصمةً له فى شرق الدلتا "بر عمسيس" ومن ثم بدأت الأنظار تتجه إلى الدلتا بعد فترة طويلة كانت العاصمة بها فى الجنوب، وكانت بداية معرفتنا بكوم فرين فى عهد رعمسيس الثالث حيث كانت مستوطنة بناها رعمسيس الثانى وحصنها جيداً لتكون مقراً دفاعياً عن مصر من جهة الغرب وصد هجمات اعداءها الليبيين

(1) The British Museum Expedition to Kom-Firin ,Report on the September 2002 season, 2002, p. 1-3

(٢) لا يزال اسم موقع كوم فرين مجهولاً وقد أطلق على موقع كوم فرين فى عهد البطالمة اسم "جينايكوبوليس" أى مدينة النساء، هناك عدة أراء حول موقعها منها:

فرين هو اسم ملك اسطورى أو تحريف للكلمة Kiffary و هى كلمة عربية تعنى كفار أو غير مؤمنين ثم تم تحريفها للنطق المعروف حالياً

فرين من عفرين والتى تعنى فى النصوص الآشورية واليونانية "مدينة ذات تربة حمراء" والتى ربما استمد المكان اسمه منهم نتيجة استيطانهم به .

كما عرفت كوم فرين بأرض سلفاجو " أرض الذهب " وذلك لوجود المقابر المعروفة بمقابر سلفاجو نتيجة دفن أحد الأثرياء بها المعروف بهذا الاسم، انظر:

–حسن محمد محى الدين السعدى ، حكام الأقاليم فى مصر الفرعونية (دراسة فى تاريخ الأقاليم حتى نهاية الدولة الوسطى)، الإسكندرية ، ١٩٩١

(3) Spencer, N., Kom Firin I: The Ramesside Temple and the Site Survey (British Museum Research Publication 170), London 2008

(٤) رانيا مصطفى ، محاضرات فى علم الحفائر ، جامعة الاسكندرية، الاسكندرية، ٢٠١٠، ص٦٣

" التحنو" ، حيث دارت فيها معارك لصد الليبيين عن غزو مصر ومع من تلاه من خلفائه وذلك فى حوالى ٦٠٠ ق.م، كما أقيمت بالقرب منها محطة تجارية فى " كوم جيف " لمراقبة التجار اليونانيين الراغبين فى بيع سلعهم فى مصر وقد تم العثور على فخاريات يونانية فى كوم فرين.

واستمرت المدينة على حالتها فى العصر اليونانى فكانت ذات طابعين أحدهما عسكرى لأنها محصنة والآخر تجارى لأن المدينة كان فيها ميناء وعلى علاقة بنقراطيس وغيرها من المدن البحرية التجارية مثل بحر إيجه وفينقيا فى القرن السادس ق.م، و قد تم العثور على شظايا فخار وأدوات مائدة فى أماكن بعيدة مثل البر اليوانى ورودس وقبرص مما يشهد على عالمية الدلتا عامة وكوم فرين خاصة.

أما فى العصر الرومانى فيبدو أن المستوطنة تعرضت لتدمير شديد نتيجة تدمير فى العهد الرومانى ولا نعرف أكان السبب هو القضاء على أحد وسائل مصر الدفاعية واليونانيين فى ذلك الوقت أم لأنها كانت ذات علاقات تجارية مع مدن يونانية وبها حامية كبيرة من اليونان فأراد الرومان بتدميرها تدمير مستوطنة ذات بعد عسكرى وتجارى لليونانيين واحتلت حتى العصور المتأخرة.

تاريخ الحفائر التى تمت بكوم فرين:-

عمل فى موقع كوم فرين الأثري والمناطق المحيطة به عدد من البعثات المصرية بدءاً من عام ١٩٦٦م حتى عام ٢٠٠١ ومنذ عام ٢٠٠٢ قامت بعثة من المتحف البريطانى برئاسة نيل سبنسر (أمين بالمتحف البريطانى قسم مصر القديمة والسودان) بالعمل فى الموقع حتى عام ٢٠٠٨ (شكل رقم ١) ويمكن القول أن نشاط موقع كوم فرين إلاثري يمتد بين الفترة الزمنية من عصر الدولة الحديثة وخاصة عصر رعمسيس الثانى واستمر نشاطه خلال العصور التالية وحتى العصر الرومانى المتأخر[1].

أهم الحفائر التى أجريت فى منطقة كوم فرين:

لم يتم في هذه المنطقة سوى حفائر قليلة وذلك لأن الإنتباه دائماً ما وجه نحو أماكن اَخرى مثل الجيزة والأقصر على الرغم من أهمية تلك المنطقة .

ولكن المنطقة تعرضت لعديد من العوامل التي تمثل تهديداً خطيراً والتي منها عوامل التعرية الطبيعية وإلاضمحلال والحفريات غير المشروعه وغير الرسمية، ومن ذلك أيضا تعدى الأراضى الزراعية وارتفاع نسبة المياه الجوفية وإن كانت الودائع الأثرية فوق مستواها.

(1) Spencer, N., The British Museum Expedition to Kom- Firin " Report on Sebtember 2002", London, 2002, p. 1-3

شكل رقم (١): مشروع حفائر كوم فرين للمتحف البريطانى[1]

إلا أن الحفائر الرسمية التى تعرضت لها المنطقة بالترتيب زمنياً من الأقدم للأحدث كالتالى:

- زيارة فليندرز بترى له عام ١٨٨٦ كجزء من العمل الميدانى له بالنيابة عن صندوق كشف مصر وقد اشترى من كوم فرين تمثالاً لحور عليه خرطوش " امازيس " المعروض الآن فى المتحف البريطانى كما أشار معبد رعمسيس الثانى هناك والذى وضع له بتري وصفاً موجزاً فى عام ١٨٨٨م.
- حفائر شفيق فريد من عام ١٩٤٩-١٩٥١ وهى أيضاً تابعة للمتحف البريطانى وكانت نتائجها سلسلة من النقوش الجميلة لرعمسيس الثانى على عمود من الحجر الجيرى وسلسلة قواعد من بقايا معبده ولوحات تعطى تصور عن الكهنة والمسئولين فى عهده محفوظة فى المتحف المصرى .
- حفائر الإستاذ الدكتور رشيد الناضورى التابعه لجامعة الإسكندرية وذلك لمدة موسم واحد عام١٩٧٠، والتى يتناول البحث دراسة لُقاها الأثرية المعروضة بمتحف كلية الاداب- جامعة إلاسكندرية بالوصف و التعليق.
- حفائر نيل سبنسر التابعة للمتحف البريطانى والتى كانت بدايتها فى عام ٢٠٠٢ بتمويل من المتحف البريطانى واعتمدت فيها على الدمج بين المسح إلاثري والمسح الجيوفيزيقي أى طبيعة إلارض .
- من أهم الدراسات مؤخراً عن مدينة كوم فرين رسالة ماجستير باسم " دراسة لبعض المواقع الأثرية فى محافظة البحيرة (كوم فرين- كوم الذهب – أرض سلفاجو) للباحثة فوزية ربيع أحمد محمد ناصر .

(1) http://ancientworldonline.blogspot.com.eg/2010/05/online-kom-firin-publicari-on-from-bm.html

بعثة حفائر كلية إلاداب- جامعة إلاسكندرية لكوم فرين:

- تكونت بعثة حفائر كلية الآداب- جامعة إلاسكندرية من:

- أ.د. رشيد سالم الناضورى (عميد كلية الآداب الأسبق) رئيسًا للبعثة
- د. محمد عبد اللطيف (أستاذ تاريخ وحضارة إلاشرق الأدنى القديم المساعد) مساعدًا أول
- أ. يوسف شكرى مصوراً ورسامًا .
- أ. محمد أمين الخويسكى فنى ترميم آثار .

فضلاً عن مفتش آثار مشارك ومجموعة من العمال تم انتدابها من الموقع الأثري نفسه، ويُلقى هذا الكشف الذى قامت به البعثة المصرية الضوء على بعض طبقات المجتمع المصرى أكثر مما يتجه إلى الكشف عن آثار الحكام فى فترة العصر المتأخر من مصر الفرعونية التى ماج فيها العناصر الأجنبية مثل الليبية والنوبية وإلاشورية والفارسية واليونانية وغيرها والتى انعكس وجودها على المجتمع المصرى وعطائه الحضارى[1]، وتم الكشف عن ما يقرب من ستة عشر مقبرة تحتوى على العديد من المقتنيات الأثرية، وسوف ألقى الضوء على اللُقى الأثرية التى تم الكشف عنها فى المقبرة رقم (٩) .

التعريف بالمقبرة رقم (٩) بكوم فرين:

تم العثور على المقبرة رقم (٩) فى ٤/٢٧/ ١٩٧٠ م وفقًا لسجلات مصلحة الأثار الموجودة فى متحف الكلية، أما تقرير الحفائر عن هذه المقبرة فلم يشر إلى وصف لهذه المقبرة فهو تقرير مبدئى مكتوب بخط اليد من ورقة واحدة يشير بشكل عام إلى اكتشافات البعثة فى منطقة كوم فرين مرفقًا به مجموعة من الرسومات لرسام البعثة أ. يوسف شكرى وسوف اعتمد فى وصف المقبرة على رسم أ. يوسف شكرى لها .

يبدو أن المقبرة رقم (٩) بكوم فرين والتى عُثر عليها خلال حفائر كلية الأداب- جامعة إلاسكندرية بكوم فرين كانت لدفنة بسيطة واحدة من نمط المقابر ذات الطوب اللبن، مستطيلة الشكل، مستقيمة الجدران وتشبه التابوت، واجهتها ذات عقد نصف دائرى ذى صفين من المداميك البارزة قليلاً عن مستوى أجزاء الواجهة الأخرى التى تتمثل فى عشرة مداميك (شكل رقم ٢) .

(١) رانيا مصطفى، المرجع السابق، ص٦٣-٦٤

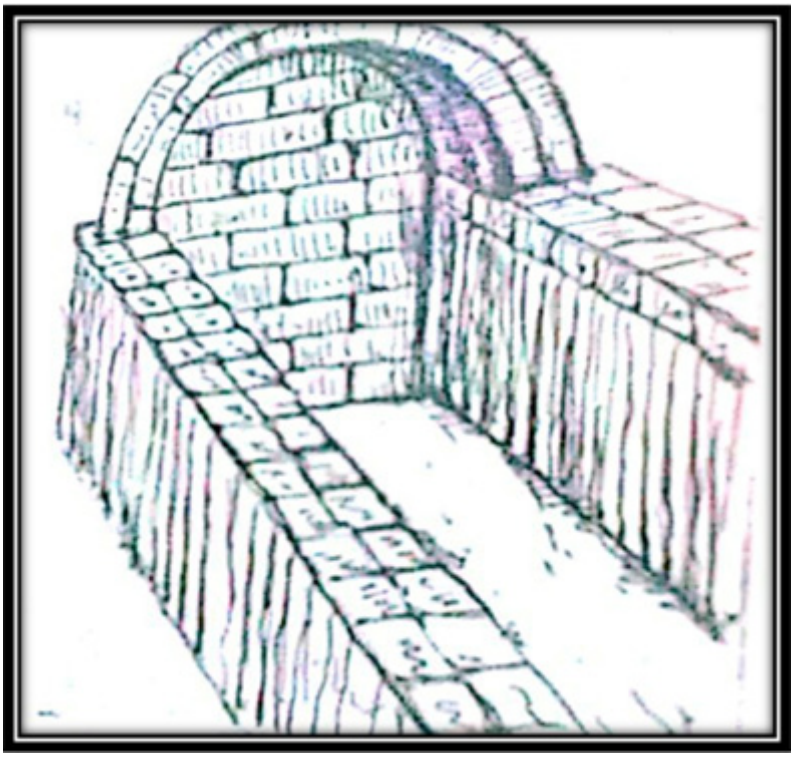

شكل رقم (٢): رسم توضيحى للمقبرة رقم (٩) بكوم فرين[١].

أما بالنسبة لطريقة الدفن فقد تمت داخل تابوت فخارى[٢]، أسطوانى الشكل و مزدوج وهو من النوع المعروف ب Double Cylindrical Pottery Coffin[٣]، حيث وجدت الجثة داخل التابوت المزدوج فى وضع ممدد، أما اليدان فكانتا بجانب الجسد، كما وضع مع المتوفى تمائم وفخار، ويبدو أن الجثة التى عُثر عليها كانت متحللة مثل معظم الجثث التى عُثر عليها فى حفائر منطقة سلفاجو[٤]. ولقد تنوعت المقابر فى جبانة سلفاجو بشكل عام بين مقابر من الحجر الجيرى والطوب

(١) رشيد الناضورى، المرجع السابق، ص.١

(٢) من أمثلة التوابيت التى عثر عليها خلال الحفائر بمنطقة كوم فرين ، تابوت مزدوج من الفخار الأحمر وبداخله دفنة متحللة يصل طول التابوت إلى ١،٩٠ م و، وعرضه ٦١ سم، انظر:
-هشام عبد الفتاح الألفى وآخرون، التقرير العلمى لحفائر سلفاجو(إدارة الحفظ العلمى- المجلس الأعلى للآثار)، القاهرة، ١٩٨١ ، ص. ٧-٨

(٣) شفيق فريد وآخرون، تقرير موجز عن مجسات سلفاجو بالدلنجات (إدارة الحفظ العلمى- المجلس الأعلى للآثار)، القاهرة، ١٩٦٦، ص. ٩

(٤) شفيق فريد وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٩ .

الأحمر والطوب اللبن[١]، ومقابر الأبار ودفنات صغيرة مطمورة فى الرمال[٢]، فضلاً عن تنوع الدفنات مابين فردية ومزدوجة وجماعية وقد وصل عدد المقابر من هذا النوع والتى كُشف عنها من خلال بعثات الحفائر المتتالية فى جبانة سلفاجو إلى حوالى مائة وسبعة عشر على أقل تقدير[٣].

و تجدر إلاشارة أنه على الرغم من أن المقابر والدفنات التى كُشف عنها فى مواسم الحفائر من ١٩٦٦ حتى ٢٠٠١ لجبانة سلفاجو كانت بسيطة؛ إلا أنها كانت مرآة لطبقة بسيطة من الطبقات إلاجتماعية فى المجتمع المصرى آنذاك[٤].

اللقى الأثرية المعروضة بمتحف كلية إلاداب- جامعة إلاسكندرية من مقبرة(٩) بكوم فرين :-

أولاً- تابوت فخارى أسطوانى مزدوج Double Cylindrical Pottery Coffin(شكل رقم٣- ٤):

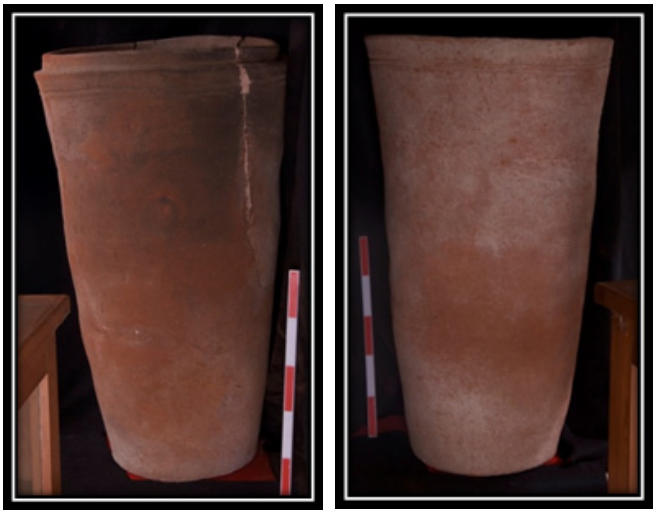

شكل رقم (٣): تابوت أسطوانى فخارى مزدوج، معروض بكلية إلادابد جامعة إلاسكندرية تحت رقم ١١

(١) عن نمط المقابر من الطوب اللبن مستقيمة الجدارن، أنظر:

-فوزية ربيع أحمد ناصف ، دراسة لبعض المواقع الأثرية فى محافظة البحيرة (كوم فرين ، كوم الذهب ، سلفاجو)، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، ٢٠٠٧.

(2) Basta. M., Excavations West of Kom- Firin, CodE 54 , 1979, p. 5- 184

(٣) حسن المصرى وآخرون ، أول تقرير لحفائر سلفاجو (إدارة الحفظ العلمى- المجلس الأعلى للآثار)، موسم ١٩٦٧- ١٩٦٨، القاهرة، ١٩٦٨، ص. ٢٠

(٤) فوزية ربيع أحمد ناصف، المرجع السابق، ص. ٩٩- ١٠٠

شكل رقم (٤): رسم توضيحى لشكل التابوت
وقت العثور عليه لـ أ. يوسف شكرى

الوصف :

- المادة : فخار أحمر خشن
- المقاييس : ارتفاع الإناء السليم : ٩٧ سم، قطره : ٥٤,٥ سم
- ارتفاع الإناء المرمم : ٩٤,٥ سم، قطره : ٥٤,٥ سم
- الارتفاع الكلى للتابوت : ١٩١,٥ سم
- قطره قاعدة الإناء السليم : ٣٥ سم
- قطر قاعدة الإناء المرمم : ٣٢,٥ سم
- رقم تسجيله فى سجل الأثار المحفوظ بالمتحف (١١)
- حالة الحفظ : جيدة وهو معروض

التعليق:-

هو عبارة عن تابوت من الفخار الخشن السميك إسطوانى الشكل يتكون من جزأين متساويين كل منهما مسلوب قليلاً نحو الأطراف وكل منهما ذو حافة وفوهة لهما شفتان متداخلتان لإحكام غلقه بعد وضع جثة المتوفى فيه، وقد عُثر على هيكل عظمى بداخل التابوت (شكل ٤) ولم يعثر على أية آثار أو متعلقات جنائزية داخل التابوت، وقد لوحظ عند فحص ودراسة التابوت أن أحد أجزائه سليمة ، والأخرى بها آثار ترميم حيث عثر عليها فى الحفائر مهشمة، و يلاحظ أيضا أنه قد عثر على نماذج عديدة من هذا التابوت بجبانة سلفاجو ومتوسط طول هذه التوابيت المزدوجة حوالى ١,٨٠ سم وقطر الفوهة حوالى ٦٥ سم .

ثانياً رقيقة من الذهب على شكل لسان

ذكر تقرير حفائر المرحوم أ.د. رشيد الناضورى أنه عثر عليها فى تجويف الفم (شكل رقم ٥)

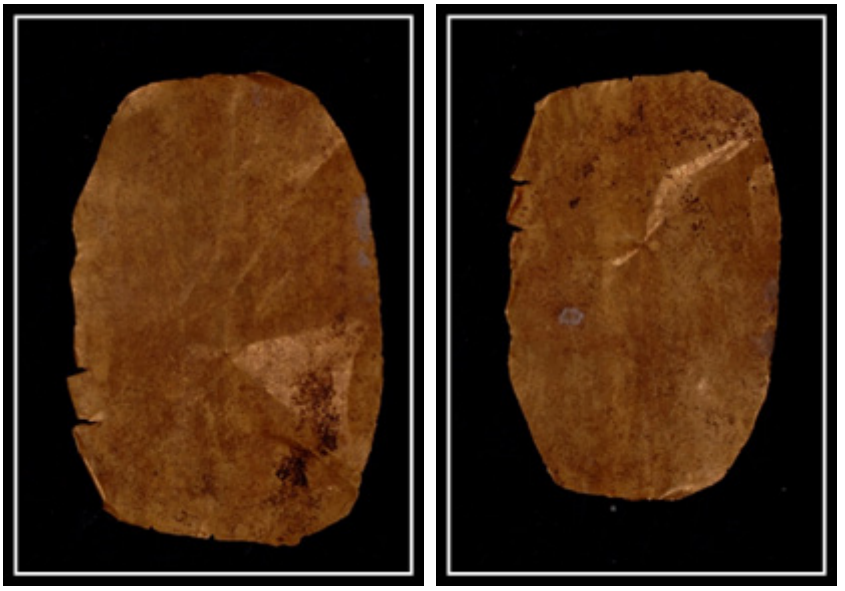

شكل رقم (٥): رقيقتان ذهبيتان كانتا على لسان المتوفى معروضة حالياً بمتحف كلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت رقم ١٢

الوصف:-

المادة : ذهب .

إلارتفاع: ٢ سم .

رقم تسجيله: فى سجل الأثار المودع بالمتحف (١٢) .

حالة الحفظ : جيدة وهى معروضة .

عادة ما وجد اللسان كتميمة فى فم المومياوات الرومانية وكانت تصنع على شكل وريقات رقيقة من الذهب حيث يُعتقد أن اللسان كتميمة يرجع القدرة على الكلام علاوة على كون التميمة تحمى الفم من أى قوة شريرة تحاول دخول الجسد عن طريقه[١]، والجدير بالذكر أنه قد استخدمت أجزاءً من جسم إلانسان على هيئة تمائم تعويضية وكان هذا النوع من التمائم مستخدماً لخدمة المتوفى[٢]، إذ إن الوظائف المختلفة للحياة كان لابد أن تستمر؛ لذا نجد نماذج مختلفة من أجزاء جسم

(1) Andrews,C., Amulets of Ancient Egypt , British Museum press, 1994, p. 70

(٢) سمير فهيم حماد ، التمائم فى مصر القديمة منذ عصر ما قبل الأسرات حتى نهاية عصر الدولة القديمة، دراسة مقارنة بالتمائم فى مصر المعاصرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ٢٠٠٧، ص. ٧٩

إلانسان كانت توضع مع المومياوات لتحقيق الرؤية والسمع والتذوق والقدرة على العمل وغيرها فى حالة فقد أو تلف هذه الأعضاء[١]، كما كان من اللازم أن يكون لسان المتوفى صادقاً حقيقياً وطاهراً نقياً حيث وردت لنا إشارات عن ارتباط اللسان مع المعبودة ماعت التى إذا رُسمت على لسان أحد الرجال فسيكون لسانه صادقاً وحقيقياً كما ورد فى أسطورة البقرة السماوية[٢]. وهناك العديد من نماذج الألسنة فى عدد من المتاحف منها مانشستر وأكسفورد (شكل رقم ٦)، و قد حفظ فى كل منهما نموذجين يؤرخان بالعصر الرومانى ومادة صنعهما من الذهب وعثر عليهما داخل تجويف الفم وكان الغرض من وجودهما داخل تجويف الفم أن يعطى المقدرة على الكلام[٣].

وعلينا ألا نغفل أن إلانسان المصرى القديم قد اعتقد فى إستمرارية حياته فى العالم الآخر و ذلك بعد أن يتم بعثه من جديد ليتم محاسبته على ما قام بفعله أثناء حياته، و فى ضوء أفعاله وأقواله التى قام بها أثناء حياته سيتحدد مصيره فى العالم الآخر إما إلى حقول إيارو والنعيم، أو إلى النار والعذاب الأبدى؛ وعليه فقد كان للسان الذى سيفصح عن مكنون قلب المتوفى أثناء محاكمته فى العالم الآخر أمام المعبود أوزير دور هام على المتوفى أن يسيطر عليه وما سيخرج منه من كلمات.

و من الجدير بالذكر أنه قد تم العثور على وريقات من الذهب تم وضعها بداخل فم المتوفى وذلك لتقوم بتغطية لسان المومياء، ومن تلك النماذج ما تم العثور عليه فى بعض المومياوات التى تعود إلى العصر الرومانى بغرض الحماية لهذا العضو فى العالم الأخر[٤].

شكل رقم (٦): ثلاثة نماذج لوريقات ذهبية وضعت على لسان المومياوات من العصر الرومانى- متحف مانشستر

(١) إلهام حسين يونس، التمائم المصرية القديمة فى الدولة الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، ١٩٩٢، ص. ١٧٣

(2) Kurth, D.," Zunge", in: LÄ ,VI , 1987, colls.1425-26

(3) Petrie, W. M. F., Amulets Illustrated by the Egyptian Collection in University College, London, 1914, p. 10 .

(4) David, A.R., A Year in the Life of Ancient Egypt, England, 2015, p.235

كما عثر كذلك على نموذجين كانا على موميواتين أحدهما على مومياء لطفل من منطقة هوارة، والأخر وضع على مومياء لبالغ من منطقة الحيبة، و لكن كانت العينان منزوعتين منها وهى من النماذج الفريدة لمومياوات تعود فى تأريخها الزمنى إلى العصر الرومانى كذلك[١].

و مما يجدر إلاشارة إليه أن عملية التحنيط قد استمرت حتى بعد نهاية العصور الفرعونية و امتدت حتى العصر الرومانى بمصر لكن مع وجود بعض إلاضافات والتغييرات التى ميزت العصر الرومانى عن غيره من الفترات التاريخية فى مصر قديمًا. حيث شهدت المومياوات المصرية فى العصر الرومانى تغييرًا فى طريقة وضع اللفائف على المومياء وكذلك القناع الملون الذى تم وضعه على وجه المومياء، وهناك العديد من المومياوات المحفوظة بمتحف مانشستر التى تقف شاهدًا على هذا التطور فى فن التحنيط[٢].

و قد ذكر هيرودوت عندما قام بزيارة مصر عملية التحنيط التى كانت تستغرق سبعين يوماً وأن المومياوات بعد إلانتهاء من عملية تحنيطها تزين أصابع أقدامها و أيديها بمثيلاتها من الذهب الخالص، بإلاضافة إلى رقائق ذهبية كانت توضع على لسان المومياء[٣]، و ربما كان الغرض منها إحياء المتوفى و قدرته على الحديث مرة أخرى بعد البعث كنوع من الولادة الثانية بعد الوفاه[٤].

و لقد أدرك الكهنة المحنطين فى مصر الفرعونية أن التحنيط لا يقتصر على المعالجة الطبية للجسد فحسب؛ بل لابد من وضع وسائل إضافية لحماية الجسد كوضع تمائم وأحجبة والتى كانت عبارة عن أشكال صغيرة تعلق فى الأجزاء المختلفة من الجسم وتهدف إلى إيقاف تحلله وفساده، وتتحقق القوة السحرية لهذه التمائم بقراءة الصيغة المكتوبة عليها، وقد اختلفت وتعددت فى أشكالها فأخذت أشكالا إلهية أو حيوانية أو أعضاء من جسم إلانسان بإلاضافة إلى رموز دينية ذات دلالة معينة عند المصرى القديم.

وعند النظر إلى الأصل الفرعونى لتلك العادة التى تم تطبيقها على المومياوات فى العصر الرومانى، لوجدنا أن اللسان كان من إلاعضاء التى نالت عناية خاصة فى الفكر الدينى عند المصرى القديم كالقلب تماماً، و حرص المصرى القديم على سلامتها بعد الموت، وكذلك أهتم بالدور الذى ستلعبه فى مصير إلانسان عند محاكمته فى العالم الأخر أمام المعبود أوزير. وعند تتبع أصل تلك العادة فى العصر الفرعونى من خلال الفكر الدينى عند المصرى القديم نجد أن الذهب يعتبر فى هذا الفكر عند المصرى القديم هو المادة التى يتكون منها عظام المعبودات المختلفة و هى مادة ثابتة الحال لا تتغير و لا تتعرض للتلف مهما مر عليها من الوقت[٥].

(1) Loynes, R.D., "The Enigma of the Red Shroud mummies", in: Price, C., Forshaw, R. and others (eds.), Mummies, Magic, and Medicine in Ancient Egypt: Multidisciplinary Essays for Rosalie David, UK, 2016, p. 330

(2) Loynes, R.D., op.cit, p. 328.

(3) Christensen, W., Empire of Ancient Egypt, New York, 2005, p. 99

(4) Brown, J., Electric Ancient Egyptian: Penetrating the Ateem with Atum, London, 2015, p.109

(5) Teeter, E., Religion and Ritual in Ancient Egypt, U.S.A, 2011, p. 43

أما عن اللسان في الفكر الديني عند المصرى القديم فقد ذُكر فى العديد من النصوص الدينية والتى منها على سبيل المثال وليس الحصر قصة أوزير وست، والتي ورد فيها على لسان المعبودة إيزة التى قامت بإعادة إحياء الأعضاء المتضررة لأوزير من خلال كلماتها السحرية التى تحولت إلى تأثير حقيقى على جسد زوجها المقتول غدرًا؛ حيث قامت إيزة بذكر أعضاء الجسد واحدًا تلو الآخر، وعندما ورد ذكر اللسان شبهت المعبودة إيزة اللسان الذى تم إيذاءه على أنه سيتحول إلى لسان المعبود تحوت[1]، المعبود الذى أُعتبر فى مجمع الآلهة المصرية القديمة لسانًا للمعبودين بتاح وأتوم والمتحدث بلسانهما، بالإضافة إلى قدرته على الحماية والشفاء والتى تم الإشارة إليها فى قصة الصراع بين حور وست، حيث قام المعبود تحوت بعلاج عين حور المصابة التى قام ست بإيذائها[2]، كما ذُكر المعبود تحوت فى متون إلاهرام على أنه من يساعد المتوفى فى عبوره المياه الموجودة فى العالم الآخر حتى يصل بسلام[3].

و عند ربط ما تم العثور عليه فى العصر الفرعونى مع العادة التى انتشرت على بعض مومياوات العصر الرومانى التى تم تزويدها بوريقات ذهبية على لسان المومياء؛ ترى الباحثة أن التفسير المرجح لتلك العادة هو أن اللسان الخاص بتلك المومياوات إن لم يكن قد تعرض إلى الإيذاء فى حياة صاحبه ومن ثم قد يحتاج فى العالم الآخر إلى مادة تماثل المادة التى صنع منها جسد وعظام المعبودات ألا وهى الذهب حتى يحصل على عضو بديل وسليم و من مادة طاهرة ونقيه كالذهب، ومن ثم يتمكن المتوفى من الحديث بالكلمات الجيدة التى يحتاج لقولها أثناء محاكمته أمام محكمة الموتى؛ فيصبح ماهراً فى الحديث كما المعبود تحوت الذى ارتبط باللسان والكلمات بشكل مباشر، حيث إعتبر تحوت لسان المعبودات وصاحب الكلمات الموزونة التى إن حصل المتوفى عليها -بمساعدة تحوت- سيتمكن من المرور بسلام من ميزان القلب الذى يعبر عما فيه كلمات لسان المتوفى، فيحصل بذلك على مساعدة المعبود تحوت الذى عاونه من قبل —وفقاً لما ورد فى نصوص إلاهرام- فى عبور مخاطر المياه الموجودة فى العالم الأخر.

نتائج البحث:

من كل ما سبق نجد أن طبيعة هذه الآثار جنائزية ترافق المتوفى فى العالم الآخر وتضمن حفظ الجثة وبعثه وحسابه .

ويتضح من وصف ودراسة تلك اللقُى الأثرية الآتي :

(1) Assmann, J., Death and Salvation in Ancient Egypt, translated by: Lorton, D., London, 2005, p.35

(2) Vos, R.L., "Thoth", in: Van Der Toorn, K., Becking, B. and others (eds.), Dictionary of Deities and Demons in the Bible, U.K, 1999, p. 861

(3) Armour, R.A., Gods and Myths of Ancient Egypt, New York, 2010, p. 129

١– يمكن تأريخ المقبرة بالعصر الرومانى المتأخر إستناداً إلى الإوانى التى تم العثور عليها داخل المقبرة وكذلك اللسان كتميمة انتشرت فى هذه الفترة التاريخية بالإضافة إلى التابوت .

٢– استمرار عقيدة البعث والحساب لدى سكان تلك المنطقة فى هذه الفترة الرومانية حيث طبيعة الأثاثار التى تم العثور عليها جنائزية تتصل بالحياة الأخرى وترافق المتوفى ومنها التابوت والأوانى الفخارية وكذلك اللسان كتميمة.

٣– يبدو أن المقبرة كانت لأحد الأفراد من أصحاب المكانة الاجتماعية وقتها فبالرغم من الظروف إلاقتصادية تم الاهتمام بوجود مقبرة وتابوت وكذلك أثاث جنزى وصنع تميمته للسان التى تساعده عند السؤال فى العالم الأخر من معدن ثمين مثل الذهب .

قائمة المراجع

أولاً المراجع العربية :

١– إلهام حسين يونس، التمائم المصرية القديمة فى الدولة الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، ١٩٩٢

٢– حسن المصرى وآخرون ، أول تقرير لحفائر سلفاجو (إدارة الحفظ العلمى– المجلس إلاعلى للآثار)، موسم ١٩٦٧–١٩٦٨، القاهرة، ١٩٦٨

٣– حسن محمد محى الدين السعدى ، حكام إلاقاليم فى مصر الفرعونية (دراسة فى تاريخ إلاقاليم حتى نهاية الدولة الوسطى)، إلاسكندرية ، ١٩٩١

٤– رانيا مصطفى ، محاضرات فى علم الحفائر ، جامعة إلاسكندرية، إلاسكندرية، ٢٠١٠

٥– رشيد الناضورى، تقرير مبدئى عن حفائر كلية إلاداب– جامعة إلاسكندرية (كوم فرين) موسم إبريل / مايو١٩٧٠، إلاسكندرية، ١٩٧٠

٦– سمير فهيم حماد ، التمائم فى مصر القديمة منذ عصر ما قبل إلاسرات حتى نهاية عصر الدولة القديمة، دراسة مقارنة بالتمائم فى مصر المعاصرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية إلاداب، جامعة طنطا، ٢٠٠٧

٧– شفيق فريد وآخرون، تقرير موجز عن مجسات سلفاجو بالدلنجات (إدارة الحفظ العلمى– المجلس إلاعلى للآثار)، القاهرة، ١٩٦٦

٨– فوزية ربيع أحمد ناصف ، دراسة لبعض المواقع الأثرية فى محافظة البحيرة (كوم فرين ، كوم الذهب ، سلفاجو)، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، ٢٠٠٧

٩– هشام عبد الفتاح إلالفى وآخرون، التقرير العلمى لحفائر سلفاجو(إدارة الحفظ العلمى– المجلس إلاعلى للآثار)، القاهرة، ١٩٨١

ثانياً – المراجع الاجنبية :-

1- Andrews,C., Amulets of Ancient Egypt, British Museum press, 1994

2- Armour, R.A., Gods and Myths of Ancient Egypt, New York, 2010

3- Assmann, J., Death and Salvation in Ancient Egypt, translated by: Lorton, D., London, 2005

4- Basta. M., Excavations West of Kom- Firin, CodE 54 , 1979,

5- Brown, J., Electric Ancient Egyptian: Penetrating the Ateem with Atum, London, 2015

6- Christensen, W., Empire of Ancient Egypt, New York, 2005

7- David, A.R., A Year in the Life of Ancient Egypt, England, 2015

8- Kurth, D.," Zunge", in: LÄ ,VI , 1987, colls.1425-26

9- Loynes, R.D., "The Enigma of the Red Shroud mummies", in: Price, C., Forshaw, R. and others (eds.), Mummies, Magic, and Medicine in Ancient Egypt: Multidisciplinary Essays for Rosalie David, UK, 2016

10- Petrie, W. M. F., Amulets Illustrated by the Egyptian Collection in University College, London, 1914

11- Spencer, N., Kom Firin I: The Ramesside Temple and the Site Survey (British Museum Research Publication 170), London 2008

12- Spencer, N., The British Museum Expedition to Kom- Firin " Report on Sebtember 2002", London, 2002

13- Teeter, E., Religion and Ritual in Ancient Egypt, U.S.A, 2011

14- Van Der, T. K., Becking, B. and others (eds.), Dictionary of Deities and Demons in the Bible, U.K, 1999

ثالثاً – المراجع الإلكترونية :

http://www.middle-east-online.com/?id=93825

اقتصاد الجزيرة العربية في كتابات هيرودوت

The economy of Arabia in the writings of Herodotus

دكتور

إبراهيم محمد بيومي مهران

أستاذ التاريخ القديم المساعد

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الملخص العربي

بدأ اهتمام الغربيين بالجزيرة العربية منذ حوالي منتصف القرن الخامس ق.م، للتعرف على الشرق واستقراء هويته، وبخاصة أن أول احتكاك كبير بين اليونان والعالم الشرقي لم يتوقف بانتهاء الصدام العسكري مع الإمبراطورية الفارسية في الربع الأول من القرن الخامس ق.م، حيث تعاونت وحدات عسكرية عربية مع الجيش الفارسي، وتلا ذلك مساندة الأسطول الفينيقي للفرس في مواجهاتهم العديدة مع الأثينيين في منتصف القرن ذاته، وانتهت بهزيمة الفينيقيين في قبرص.

وتوسعت تجارة أثينا في شرق المتوسط بعد تقلص نشاط الفينيقيين، وهنا كان الإقبال متزايداً على سلع الرفاهية والترف، التي كان بعض منها يأتي من داخل الجزيرة العربية والآخر ينقل عبر أراضيها، وكانت تمثل احتياجاً لا غنى عنه في المعابد والقصور والمنازل، وكذا في المناسبات والاحتفالات بأنواعها.

وهكذا وجدنا هيرودوت أقدم مؤرخ يوناني كتب بشكل مفصل عن الجزيرة العربية وأحوالها وسكانها وجغرافيتها وحدودها، في كتابه الذي اختار له لفظة "استقصاء" أو "تحقيق" (Historiae)، وجاءت كتاباته عن الجزيرة العربية متصلة أحياناً ومتناثرة في أحايين أخرى، حسب سياق الموضوع الرئيسي.

ورغماً من اعتماده على الرواية في حديثه، وأيضاً مبالغاته العديدة، إلا أن هيرودوت قد أفاض في ذكر معلومات عن منتجات وبضائع، وعلى رأسها اللبان والمر والكاسيا والقرفة واللادن، وهي من سلع الرفاهية والترف التي كانت عصب الحياة لدى سكان الجزيرة العربية، منها ما كان ينتج داخل أراضيها، ومنها ما يأتون به من المناطق المحيطة بالجزيرة العربية مثل الهند والساحل الشرقي لإفريقيا، وكانت هذه التجارة هي العامل المشترك في تاريخ الدول العربية القديمة.

وقدم لنا هيرودوت معلومات جادة وقيمة عن الجزيرة العربية تجعلنا مدينين له بتوثيق تاريخها، وكان له حس وإبداع أدبي وفني، إلا أنه اتبع أسلوب التعميم والتجريد، ولم يعطنا وقائع دقيقة تعرفنا بالأماكن والقبائل والأسماء والطرق والمسافات والاتجاهات.

ويهدف البحث إلى إبراز الخطوط الرئيسية في كتابات هيرودوت عن اقتصاد الجزيرة العربية، وما عُني بإبرازه في كتاباته، في حقبة تمثل بداية الاهتمام الغربي بمنطقة الجزيرة العربية، مع إيضاح الظروف والأسباب وراء هذا الاهتمام.

Abstract

Westerners began to be interested in the Arabia since the middle of the fifth century BC, in order to identify the East and to extrapolate it. In particular, the first major friction between Greece and the Eastern world did not stop with the end of the military confrontation with the Persian Empire in

the first quarter of the fifth century BC. Arab army with the Persian army, followed by the support of the Phoenician Fleet of the Persians in their numerous encounters with the Athenians in the middle of the same century, and ended with the defeat of the Phoenicians in Cyprus.

The trade of Athens expanded in the eastern Mediterranean after the decline of the Phoenicians' activity, and there was a growing demand for luxury and luxury goods, some of which came from inside the Arabia and the other transported through its territory, and represented an indispensable need in the temples, palaces and houses, as well as in events and celebrations of all kinds.

Despite his dependence on the novel and his many exaggerations, Herodotus also mentioned information about products and goods, topped by frankincense, cinnamon, cinnamon, and linden, a luxury and luxury that was the lifeblood of the inhabitants of the Arabia. Within its territory, including what they come from the surrounding areas of the Arabia, such as India and the eastern coast of Africa, and this trade is a common factor in the history of the Arab countries old.

Herodotus gave us serious and valuable information about the Arabia that makes us indebted to him for documenting its history. He had a sense of literary and artistic creativity, but he followed the method of generalization and abstraction, and did not give us precise facts.

The research aims to highlight the main lines in Herodotus' writings on the Economy of the Arabia, and what I meant by highlighting it in writing, in an era that represents the beginning of Western interest in the Arabia, explaining the circumstances and reasons behind this interest.

تمهيد:

يهتم الاقتصاد بدراسة الموارد النادرة ودورها في تحقيق الحاجات، وكذلك البحث عن الكيفية أو الطريقة المناسبة للاستفادة من الموارد واستغلالها، وفقاً للنمط الذي يُناسب المجتمعات وحاجاتها[1]، وكانت الحياة الاقتصادية لجنوب الجزيرة العربية تقوم على التجارة الدولية، فضلاً عن مواردها الزراعية العظيمة[2].

وفي فترة متأخرة من العصور القديمة ظهرت كتابات تاريخية، حاول أصحابها أن يعرفوا

(١) صونيا عابد، التحليل الاقتصادي الجزئي، قسطنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية، ٢٠١٠ – ٢٠١١، ص ٥، ٩.

(٢) سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، مراجعة د. محمد القصاص، بيروت: دار الرقي، ١٩٨٦، ص ١٩٧.

بالحضارات القديمة، ومن ثم فإن القدر الأكبر من تاريخ هذه الحضارات لم يعاصره المؤرخون القدماء، وكان سبيلهم الوحيد إلى التعرف إليه هو الرواية، أو عن طريق المعلومات المتناثرة التي كانت تتأرجح بين الحقيقة والمبالغة والأسطورة[١].

ويهدف البحث إلى إبراز الخطوط الرئيسية فيما كتبه هيرودوت عن اقتصاد الجزيرة العربية، وما عُني بإبرازه في كتاباته، في حقبة تمثل بداية الاهتمام الغربي بمنطقة الجزيرة العربية، مع إيضاح الظروف والأسباب وراء هذا الاهتمام.

وكذلك يهدف إلى تسليط ضوء على بدايات وأهداف اهتمام الكتاب الكلاسيكيين بالجزيرة العربية، وتعرف أيضاً بجزيرة العرب[٢]، وهي ثاني أكبر شبه قارة على وجه الأرض وتغطي حوالي ٣،٢٣٧،٥ كم٢ تقريباً[٣]، وقد تعاقبت عليها خلال تاريخها القديم عصور كثيرة، وتعددت مصادر البحث في تاريخ هذه العصور[٤].

ولأن الجزيرة العربية تقع وسط صحراوات، تمتد كالحزام حول العالم القديم[٥]، فقد كان تاريخها محكوماً بوجودها الجغرافي المشترك[٦]، ومصادرنا الأولى عنها نأخذها من كتابات الآشوريين[٧]، بداية من القرن ٩ ق.م[٨]، وهي مليئة بالأحداث[٩]، وهذه النصوص المسمارية

---

(١) لطفي عبد الوهاب يحي، العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ص ١٧.

(٢) لأن اللسان العربي فيها شائع وإن تفاضل. انظر: أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، القاهرة: نشر محمد بن عبد الله بن بليهيد النجدي ١٩٥٣، ص ١؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٥، مادة جزيرة العرب.

(3) A. S. Alsharhan, et al., Quaternary Deserts and Climatic Change, IGCP Project 349: Taylor & Francis, Al Ain, United Arab Emirates, 1998, p. 279.

(٤) عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠، ص ٨.

(٥) سعد زغلول عبد الحميد، في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٦، ص ٦٢.

(٦) أغناطيوس جويدي، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمة إبراهيم السامرائي، بيروت: دار الحداثة، ط١، ١٩٨٦، ص ١٦.

(٧) فيليب حتى، العرب تاريخ موجز، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٩١، ص ٢٧. وعن الإشارة إلى بلاد العرب في السجلات الآشورية، يوجد ٣٧ نصاً في: Daniel David Luckenbill, Ancient Records of Assyrian and Babylonia, Chicago، ١٩٦٨. أولها النص رقم ٦١١ من عهد شلمنصر الثالث، وآخرها النص رقم ١٠٨٤ من عهد آشور بانيبال.

(٨) أقدم نص وردت فيه لفظة "عرب" يرجع لأيام "شلمنصر الثالث"، وذكر أن الملك واجه في العام السادس من حكمه تحالفاً قاده أمير يلقب نفسه بلقب "ملك" يقال له "جنديبو". انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ط٤، بيروت: دار الساقي ٢٠٠١، ص ٤.

(9) Peter Webb, Imagining the Arabs: Arab Identity and the Rise of Islam, Edinburgh University Press, 2016, pp.23-59.

قد اعتادت على أن تنسب لأصحابها الآشوريين والبابليين سلطاناً واسعاً، وأسرفت في تصوير انتصاراتهم الحربية على العرب[١]، وإن كانت لم تخل مما يستفاد به منها، فهي أقدم المصادر التي سجلت تسمية العرب.[٢]

ولا نجد فيما تركه لنا اليونان الأوائل عن العرب أو بلاد العرب إلا خمس إشارات: اثنتان منها في ملحمة الأوديسة[٣] المنسوبة إلى هوميروس (Homeros) الذي يعتمد في شعره على تراث يوناني، ينتهي عند أواسط القرن التاسع قبل الميلاد، وواحدة في أشعار هزيودوس (Hesidos) وهي أشعار ترجع إلى بعد هذه الفترة بما يقرب من قرن، واثنتان في مسرحيتين للشاعر إيسخيلوس (Aeschylos) ترجعان إلى العقود الأولى من القرن الخامس قبل الميلاد، وجميعها تشير، على أحسن الافتراضات، إلى معرفة غامضة أو شبه أسطورية عن العرب وبلادهم[٤].

هيرودوت[٥] وكتاباته عن الجزيرة العربية واقتصادها:

بداية من أواسط القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً حدث تغير كبير في تصور بلاد العرب لدى الشعوب والدول التي اهتمت لسبب أو لآخر بالمنطقة، ويبدو هذا التغير واضحا فيما

---

(١) للمزيد عن العلاقات بين شمال شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين، انظر: عبد المعطي بن محمد عبد المعطي سمسم، العلاقات بين شمال شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين منذ أقدم العصور وحتى القرن السادس ق.م، ط١، القاهرة: إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨.

(٢) عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٩-١٠؛ E. Ebeling, "Araber" Reallexikon der Assyriologie. ANET 1928, S. 297; Adolf Grohmann, Kulturgeschichte des Alten Orients, Bd. III, Arabien, Munich, 1963. S. 3.

(3) The Odyssey, 4, 84; 15, 426.

(٤) لطفي عبد الوهاب يحي، "الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية"، دراسات تاريخ الجزيرة العربية. ك١. مصادر تاريخ الجزيرة العربية. ج١، جامعة الرياض ١٩٧٩، ص ٥٥.

(٥) نحن لا نعرف على وجه التحديد تاريخ مولد هيرودوت، وإن كان في حدود سنة ٤٨٤ ق.م تقريباً، ووفاته في سنة ٤٢٠ ق.م أو في وقت لاحق لذلك، ربما في ٤٢٥ أو ٤٢٦ ق.م Stephen V. Tracy, Pericles: A Sourcebook and Reader, University of California, 2009, p. 109; James S. Romm, Herodotus, Yale University Press, 1998, p. 12-13. وكان مولده في هاليكارناسوس (Halicarnass) إحدى مدن كاريا (Caria) (مدينة بودريوم في تركيا حالياً)، ونشأ في أسرة محبة للعلم والاطلاع، ولها باع طويل في السياسة، مما ساهم في تشكيل عقليته، كما كان لغزو فارس لبلاد اليونان دور أيضاً في اتجاهه الفكري، حيث سيكون موضوع كتابه "الحروب الفارسية – اليونانية"، ونظراً لانشغاله بالسياسة في شبابه دخل هيرودوت في صراع مع حكام هاليكارناسوس، ونفي إلى مدينة ساموس (Samos) وكانت إحدى المراكز الثقافية المهمة في اليونان، وشكلت فيما بعد نقطة انطلاقه في رحلاته الواسعة التي شكلت أحد أهم مصادر كتابته التاريخية، وكانت المحطة التالية في حياته هي أثينا (Athens)، وفيها أتم أجزاء من كتابه قبل انتقاله إلى مستعمرة ثوري (Thurii) في جنوب إيطاليا، والتي شهدت اكتمال الكتاب، وفيها توفي. انظر: فهد مطلق العتيبي، هيرودوت وبداية تكوين الوعي التاريخي الغربي بالجزيرة العربية، ط١، الرياض: دار الناشر الدولي للنشر والتوزيع، ٢٠١٣، ص ١٧-١٨؛ Fowler, "Herodotos and Athens", pp. 305–18; Ste. Croix, "Herodotus", p.132.

تركه لنا الكتاب الكلاسيكيون[١]، سواء من بينهم المؤرخون أو الرحالة أو الجغرافيون أو الكتاب الموسوعيون[٢]، في فرع أو آخر من فروع العلوم المختلفة، حيث تشكل أعمالهم أول تحقيقات مفصلة وموضوعية عن أحوال الجزيرة العربية، فقد سجلوا لنا بعضاً من دولها ومدنها وموانيها وقبائلها وأهم مصادر الثروة فيها، وطرق التجارة منها وإليها، وضمنوها في مؤلفاتهم ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد[٣]، وأولهم هيرودوت (Herodotus) وثوكيديدس (Thucydides)[٤]، وهي في ذلك تختلف عما جاء عن هذه المنطقة في الفترة السابقة من إشارات في سجلات الملوك الآشوريين والبابليين، أو النصوص الآرامية، أو أسفار العهد القديم[٥].

كان أول من ظهر في كتاباته هذا التغير الواضح في تصور حدود شبه الجزيرة هو هيرودوت Herodotus)) أول المؤرخين[٦]، أو أبو التاريخ[٧] حسبما لقبه شيشرون (Cicero)[٨] الخطيب والسياسي الروماني الشهير الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد.

وكانت كتابات هيرودوت بمثابة أول مؤشر واضح لاهتمام الغربيين بالجزيرة العربية وسكانها[٩]، وقد أدى إلى هذا الاهتمام عاملان رئيسيان: أحدهما هو أن أول احتكاك كبير بين اليونان والعالم الشرقي لم ينته بانتهاء الصدام العسكري مع الإمبراطورية الفارسية الذي وقع في الربع الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، والذي ظهرت فيه ضمن قوات هذه الإمبراطورية وحدات عسكرية عربية، وإنما ظل التوتر كامناً ومستمراً، حتى ثار مرة أخرى في أواسط القرن ذاته، في حرب دامت سجالاً بين الأثينيين من جهة وبين الفرس يعاونهم الأسطول الفينيقي من جهة أخرى، ولا بد أن

---

(1) Webb, Imagining the Arabs, . p.1-20.

(٢) لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة، ص ٩٨.

(3) G.E.M. De Ste. Croix, "Herodotus", Greece & Rome, Vol. 24, No. 2, Oct. 1977, p.132; Robert L. Fowler, "Herodotos and Athens", in Herodotus and his World, Essays from a Conference in Memory of George Forrest, Edited by: P. Derow and R. Parker, Oxford University Press 2003, pp. 305–18.

(٤) عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ١٠-١١.

(٥) لطفي عبد الوهاب، الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، ص ٥٥.

(٦) جرى العرف على اعتبار كتابات "هوميروس" أول كتابة تستحق الذكر كمصدر عن المجتمع اليوناني في هذه الفترة، إلا أن الكتابة التاريخية الحقة لم تبدأ إلا بعد اكتشاف النثر كوسيلة جديدة للتعبير عن فكر الإنسان، وهنا يجب أن نذكر "هيكاتيوس" من ملطية قبل هيرودوت، حيث اقترب من النقد التاريخي كثيراً في كتابه عن "الأنساب". انظر: حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣، ص ١٠.

(٧) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٧؛ De Ste. Croix, Herodotus, p.130.

(8) Andreas Kamp, Die erste "Verfassungs-Debatte" :Herodot, Historie, III, 80 -82, Universität zu Köln, 2003, s.8.

(٩) لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، ص ٩٨.

يكون هذا قد أثار في أذهان اليونانيين، وبخاصة المثقفين منهم، رغبة واضحة في التعرف على هذا العالم الشرقي واستكناه هويته.

أما العامل الآخر فهو الازدياد الكبير في حجم تجارة الإمبراطورية الأثينية في القسم الشرقي للبحر المتوسط، وبخاصة بعد الضربة التي تلقاها النشاط التجاري الفينيقي في المنطقة عقب الهزيمة التي حاقت بالأسطول الفينيقي على يد الأثينيين على شواطئ قبرص سنة ٤٤٩ ق.م، فقد انعكس هذا الازدياد في شكل رخاء عم كل جوانب الحياة في أثينا، مركز هذه الإمبراطورية، وكان من بين مظاهره استهلاك متزايد في الطيوب والتوابل، التي كانت تأتي من الجزيرة العربية، في وقت كان فيه هذا النوع ضرورة يومية في المنزل والمعبد[١] والأعياد والاجتماعات السياسية والاحتفالات الرياضية والمناسبات الاجتماعية[٢].

ويعد هيرودوت هو مؤسس الكتابة التاريخية، حيث يظهر كأول مؤرخ يوناني يقوم بعمل تاريخي متكامل[٣]، يعتبر أول محاولة جادة في العالم القديم نحو كتابة التاريخ[٤]، حيث كتب مؤلفه المعروف بـ"التواريخ"[٥] (Historiae)، وهو الاسم الذي أطلقه الرجل على كتابه، ويعني على الأغلب "الفحص" أو "التحقيق" أو "الاستقصاء" أو "البحث"، وقد جاء في تسعة أجزاء:

الجزء ١: يحمل اسم "كليو" (Κλειώ) ربة التاريخ.

الجزء ٢: يحمل اسم "يوتربي" (Ευτέρπη) ربة الموسيقى أو العزف على الناي.

الجزء ٣: يحمل اسم "ثاليا" (θαλεια) ربة التراجيديا أو المأساة.

الجزء ٤: يحمل اسم "ميلوميني" (Μελπομένη) ربة الكوميديا أو الملهاة.

الجزء ٥: يحمل اسم "تربسيكوري" (Τερψιχόρη) ربة الرقص الغنائي.

---

(١) كان القدماء يعتقدون أن أي طقس ديني، سواء أجري للآلهة في المعابد أو للموتى في المقابر لا تكون له فاعلية إلا إذا صاحبه حرق البخور. انظر: عبد المنعم عبد الحليم سيد: تاريخ الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام، الإسكندرية: كي تي سي، ٢٠٠٦، ص ٤.

(٢) لطفي عبد الوهاب، الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، ص ٥٥-٥٦.

(٣) حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام، ص ١٠.

(٤) Justin Marozzi، The Way of Herodotus، Travels with the Man Who Invented History، London: Da Capo Press، ٢٠١٠، pp.١-٢.

(٥) ظهرت من الكتاب طبعات عديدة باللغتين اليونانية واللاتينية، ثم توالت النسخ المترجمة بلغات أخرى، والنسخ التي اعتمد عليها البحث هي الترجمة العربية لعبد الإله الملاح عن النسخة الإنجليزية التي أنجزها "جورج رولنسون" (George Rawlinson)، وكذلك الترجمة الإنجليزية للكتاب، والتي قام بها "ووتر فيلد" (Robin Waterfield) وأيضاً النسخة التي ترجمها للإنجليزية "جودلي" (A.D. Godley) حيث تقاربت النسخ في مضمونها إلى حد مناسب.

الجزء ٦: يحمل اسم "إراتو" (Ερατώ) ربة الشعر الغنائي أو الأناشيد.

الجزء ٧: يحمل اسم "بوليهيمنيا" (Πολυμνία) ربة فن التمثيل.

الجزء ٨: يحمل اسم "أورانيا" (Ουρανία) ربة الفلك.

الجزء ٩: ويحمل اسم "كاللیوبي" (Καλλιόπη) ربة شعر الملاحم[١].

وتعد فترة الثلاثين سنة الواقعة ما بين ٤٥٠-٤٢٠ ق.م، بمثابة الحقبة الخصبة من حياة هيرودوت، إذ انشغل فيها باستقصاء أخبار الأمم وأحوالها والحروب التي خاضتها وتدوين هذا التاريخ، والذي أبدع فيه[٢]، حتى أننا نجد أن الكثيرين من قراء هيرودوت تأخذهم بساطة أسلوبه وسهولته وسلاسته، ويؤخذون أكثر بشخصيته[٣]، حيث أن الهدف من "التواريخ" ليس فقط تقديم سجل تاريخي دقيق للأحداث، وإنما متعة القراءة[٤]، كما كان ذلك عهداً من النشاط الفكري العظيم الذي عرفه القرن الخامس ق.م في العديد من حقول المعرفة[٥]، علاوة على أن التأريخ الكلاسيكي يعتبر أكثر وضوحاً من التأريخ الهلينستي الذي يغلب عليه الجانب الأخلاقي والخطابي، مما يجعله أقل جدوى وإفادة[٦].

وقدم هيرودوت في كتابه "التواريخ" نتائج أبحاثه، وكان له هدفان رئيسيان: الواحد منهما هو الحفاظ على الأعمال البشرية الخالدة التي قام بها الإغريق والبرابرة[٧] من الضياع، والهدف الآخر هو إثبات أن الأعمال الرائعة التي اضطلع بها الهلينيون والشرقيون سوف تتمتع بما هي أهل له من الشهرة، خاصة تلك التي أدت إلى صدام فيما بينهم[٨]، وليسجل أسباب ما شب بين الجانبين من صراع[٩].

ونلاحظ أن حديث هيرودوت عن العرب أو عن الجزيرة العربية ليس متصلاً دائماً، وإنما

---

(١) هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، مراجعة د. أحمد السقاف ود. حمد بن صراي، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١، ص ٢٢-٢٣.

(٢) أرسطو طاليس، الكون والفساد، ترجمة أحمد لطفي السيد، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦، ص ٧.

(٣) أرنولد توينبي، الفكر التاريخي عند الإغريق، ترجمة لمعي المطيعي، تحقيق د. محمد صقر خفاجة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، ١٩٩٠، ص ٣٥.

(4) Romm, Herodotus, p.13.

(٥) تاريخ هيرودوت، ص ٩.

(6) Lisa I. Hau, Moral History from Herodotus to Diodorus Siculus, Edinburgh University Press, 2016, p. 171.

(٧) المقصود بالبرابرة هنا هم الأجانب، وهم جميع الشعوب من غير الإغريق. انظر: تاريخ هيرودوت، ص ١٠.

(٨) توينبي، الفكر التاريخي عند الإغريق، ص ٣٥.

(٩) لطفي عبد الوهاب، الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، ص ٦٧، حاشية ٤.

يأتي متناثراً في أغلب الأحوال، حسبما يقتضي سياق الموضوع الأساسي، وهو الصدام بين الإمبراطورية الفارسية والعالم اليوناني[١]، وما يسمح به تناول هذا الموضوع من استطرادات ومقارنات[٢]، وكان هو أول من دفع بحدود بلاد العرب لكي تشمل كل شبه الجزيرة العربية، وإن كان قد زاد على هذه الحدود بعض المناطق التي تقع إلى خارجها[٣]، وهو تصور يتأرجح بين شبه الجزيرة وهذه المناطق الواقعة إلى خارجها (مع اختلاف في امتداد هذه المناطق الخارجية)، حتى استقر نهائيا على شبه الجزيرة بما في ذلك المنطقة الصحراوية الشمالية الواقعة على الحدود الجنوبية لمنطقة الهلال الخصيب (أي بما في ذلك بادية العراق وبادية الشام)، في كتابات بطليموس كلاوديوس (Ptolemaios Klaudios) التي قام بها في خلال النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، وهو الكاتب اليوناني المصري الذي عرفه العلماء العرب في العصر الإسلامي باسم بطليموس الجغرافي[٤]، وربما أنه قد يشفع لهيرودوت أن المعلومات الصحيحة لم تكن اتضحت تماماً له ولمعاصريه[٥].

وعلاوة على موقعها الجغرافي، فقد تحدث كذلك عن طبيعة التربة في الجزيرة العربية، وعن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم، كما تطرق إلى جانب من حياة السكان الدينية والعسكرية وملابسهم وسلاحهم وطرقهم في الحرب، وعلاقاتهم الخارجية[٦]، وذكر أنهم الأمة الوحيدة التي لم يدخلوا في طاعة الفرس، ولم يدينوا لهم بالولاء بوصفهم تابعين أو أرقاء، بل أصبحوا لهم أصدقاء[٧]، وقدم عرضاً لشعوب وأماكن هي على الأغلب غير مألوفة للقراء في العصر الحديث[٨].

وعلى الرغم من أن الجزيرة العربية لم تقع تحت سلطان الثقافة التي ترعرعت وازدهرت في وادي النيل ووادي الرافدين، فإنها لم تستطع أن تتخلص من تأثيرها، على أن ثقافة الجزيرة في قراراتها كانت ثقافة محلية صرفة، حاكت الثقافات التي نشأت على سواحل البحار، وأصبح

---

(1) De Ste. Croix, Herodotus, p.134.

(٢) لطفي عبد الوهاب، الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، ص ٥٦.

(٣) أحمد أمين سليم، جوانب من تاريخ وحضارة العرب في العصور القديمة، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨، ص ٥١.

(٤) لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، ص ٩٨.

(٥) مصطفى كمال عبد العليم، "هردوت يتحدث عن العرب وبلادهم"، مجلة العصور، مجلد ٢، ج١، لندن: دار المريخ للنشر، ١٩٨٧، ص ١٢.

(٦) أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم: مختارات من الوثائق التاريخية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٩، ص ٢٣٢؛ أحمد سليم، جوانب من تاريخ وحضارة العرب، ص ٥١؛ لطفي عبد الوهاب، الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، ص ٥٦.

(٧) تاريخ هيرودوت، ص ٢٦١.

(8) Romm, Herodotu, p. 13.

سكان الجنوب الشرقي منها أرباب تجارة؛ توسطوا في سوق التجارة بين مصر وبلاد ما بين النهرين والبنجاب – وهي مراكز ثلاثة مهمة للمتاجرة في العصور القديمة – وباسمهم تسمى البحر الفاصل بين هذه البلدان[١].

وقد تطرق هيرودوت في حديثه عن بلاد العرب إلى أنها ليست ببلاد بعيدة عن مصر، وذكر البحر الأحمر (الذي كان منذ أقدم العصور هو الطريق الذي حمل إلى العالم القديم أول مبادئ الاتصال الفكري والتجاري[٢]) وقال أنه قريب من نهر النيل، وأن الجزيرة العربية تقع إلى الشرق منه، ووصف البحر الأحمر بأنه يبدو كخليج طويل، وأن المرء يمكنه أن يقطع هذا البحر، (الذي سيتحول تدريجياً إلى مجرى مائي مهم للغاية في مجال التجارة العالمية، ونقل السلع والبضائع بين سواحل الهند وبلاد اليونان والرومان) بالسفينة بشكل طولي، من شماله إلى جنوبه والعكس، في مدة حددها بأنها تعادل أربعين يوماً، وأن القسم الأضيق من هذا البحر (وهو مضيق باب المندب) يمكن عبوره، بشكل عرضي (لنقل البضائع والسلع بين جنوب غربي الجزيرة العربية والجانب الإفريقي المقابل له)، في نصف يوم فقط، وهو بالتأكيد سيكون قد أصاب كبد الحقيقة إن كان يقصد عبور البحر من منطقة بوغاز باب المندب، التي تعد أضيق نقطة في البحر الأحمر، أما إذا كان هيرودوت يقصد عبور البحر من منتصفه فهو بذلك لم يجانبه الصواب، لأن عرض البحر الأحمر يتراوح تقريباً ما بين ٢٧٥ كم عند شبه جزيرة سيناء، وحوالي ٣٥٠ كم ما بين مصوع وجيزان، بينما أن هذا العرض يتراوح ما بين ٣٠ إلى ٤٠ كم في منطقة البوغاز[٣].

"وفي بلاد العرب، غير بعيد عن مصر، خليج ضيق طويل، (البحر الأحمر[٤]) يمتد في البحر المعروف باسم الإريثري (بحر العرب)، وأن المرء ليستطيع عبور القسم الأضيق منه في نصف يوم، ويستغرق أربعين يوماً إذا ركب السفينة من أقصاه ليبلغ نهايته، أما ما يخص عرضه فيمكن قطعه خلال نصف يوم، ويتناوب هذا الخليج المد والجزر كل يوم"[٥].

ونلحظ في سياق الكلام استخدام هيرودوت لمصطلح البحر "الإريثري"، التي تعني في اللغة اليونانية "الحمرة"، ويستخدم هذا الاسم لدى الجغرافيين اليونانيين بشيء من عدم الدقة نوعاً،

---

(١) حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام، ص ١٧٧.

(٢) أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ١٣٢.

(٣) فهد العتيبي، هيرودوت، ص ٤٥؛ عن محمد أحمد الرويثي وأحمد المهندس، "البحر الأحمر وشعبه المرجانية"، الدارة، العدد ٤، ١٩٨٤، ص ٢٠١-٢١٥.

(٤) عن تاريخ البحر الأحمر وأهميته والصراع القديم حوله، انظر: بهية فهد الشريف، "البحر الأحمر خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين – دراسة تاريخة حضارية"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى، ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م؛ Roger Joint Daguenet, Historie de la mer Rouge de Lesseps à nos jours, Paris: L' Harmattan, 1997.

(٥) تاريخ هيرودوت، ص ١٣٧؛ Histories, II: 11.

حيث يقصدون به كل المسطحات المائية التي تحيط بالجزيرة العربية، وعلى هذا فقد يستخدم هذا الاسم للدلالة على البحر الأحمر أو الخليج العربي أو بحر العرب، ولذلك فإننا نجد أن هيرودوت في بعض الأحايين قد سمى البحر الأحمر بالخليج العربي (Arabios Kolpos)وكذا الخليج العربي بالبحر الإريثري[١] (Erythre Thalassa).

وفي حوالي الألف الأول قبل الميلاد ظهرت دول مختلفة في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، أهمها دول معين وسبأ وقتبان وحضرموت[٢]، وهنا برزت مكانة تجار الجزيرة العربية ودورهم في الوساطة في عملية التبادل التجاري، حيث كانوا إما تجاراً أو ناقلين للتجارة[٣]، لحساب ممالك ودول الشمال، مثل مصر والشام والعراق وكذا اليونان والرومان – حيث ظهرت أقدم الحضارات، التي كانت النظم الملكية التي نشأت فيها تعتمد في تصوير أبهة الملك على ما يطلق عليه "سلع الرفاهية والترف"، التي كانت تشمل الذهب المعدن النفيس[٤]، والأحجار الكريمة ونصف الكريمة، والعاج وخشب الأبنوس الفاخر، وريش النعام وبيضه، وجلود الحيوانات الثمينة كالفهود والنمور والثعابين، وأتراس السلاحف[٥]، وأيضاً الأخشاب العطرية، والتي كانوا يأتون بها من المناطق الموسمية الاستوائية في القارة الإفريقية[٦]، وإن كان هناك من يؤكد على أنها ليست تجارة سلع رفاهية، ويراها تجارة ضرورية لمجتمعات الشرق الأدنى، بما في ذلك الإغريق والرومان، باعتبار معظم هذه السلع تتعلق بحياة معظم السكان، لارتباطها بطقوس العبادة والدفن والعلاج منذ الألف الأول قبل الميلاد[٧].

ومن البدهي أن موقع الجزيرة العربية إنما ساعد كثيراً على أن يحتل أهلها مكانة ممتازة في عالم التجارة، حتى أن حياتهم الاقتصادية كانت وقتذاك تقوم على التجارة الدولية[٨].

(١) فهد العتيبي، هيرودوت، ص ٤٧؛ Histories, VII: 9.

(٢) سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ١٩٢.

(٣) محمد السيد غلاب، "التجارة في عصر ما قبل الإسلام"، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض ١٩٨٤م، ص ١٩٥.

(٤) بلقاسم رحماني وحرفوش مدني، الدور المصري في جنوب شبه الجزيرة العربية والشرق الإفريقي، مراجعة د. سيد أحمد علي الناصري، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ١٩٩٧، ص ١٥.

(٥) فرانسواز ديمانج، "قوافل البخور"، طرق التجارة القديمة، روائع آثار المملكة العربية السعودية، باريس: متحف اللوفر، إدارة الإنتاج الثقافي، ٢٠١٠، ص ١٢٥.

(٦) عبد المنعم عبد الحليم: الآثار الباقية في الجزيرة العربية من عصور ما قبل الإسلام، الإسكندرية: كي تي سي، ٢٠٠١، ص ٨.

(٧) محمد بيومي مهران، "دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة"، مجلة اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد٦، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٧٦، ص ٣٢٦ – ٣٢٧؛ عبد الله بن عبد الرحمن العبد الجبار، "نظرة الكتاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربية"، الجزيرة العربية واليونان وبيزنطة، التواصل الحضاري عبر العصور القديمة والوسيطة، الندوة العالمية لعلاقات الجزيرة العربية بالعالمين اليوناني والبيزنطي (القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن العاشر الميلادي)، ٦-١٠ ديسمبر ٢٠١٠، الرياض: جامعة الملك سعود، ص ١٢١.

(٨) سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ١٩٧.

وهكذا كان سكان جنوب غربي الجزيرة العربية[١] يهاجرون إلى الساحل الإفريقي[٢]، حيث يؤسسون مراكز تجارية ساحلية لجلب هذه السلع من منطقة الظهير (المناطق الممتدة وراء الساحل، كإريتريا وإثيوبيا والصومال)[٣]، وأتاحت لهم هذه القواعد التجارية احتكار التجارة التي تصدرها تلك المناطق إلى الشمال[٤]، ولتدعيم هذه الصلات أخذوا يرتبطون بصلات المصاهرة مع زعماء قبائل السكان الوطنيين بالزواج من بناتهن[٥].

وقد أشار هيرودوت في موضع آخر إلى إثيوبيا[٦]، على أنها بلد بعيد، وأورد بعضاً من السلع التي كان تجار العرب يسافرون من أجل أن يستوردنها منها، من لكي يتاجروا فيها مع ممالك ودول شمال الجزيرة العربية، وعلى رأسها الذهب، والأشجار البرية وخشب الأبنوس، والفيلة التي يستخدمون سنها، أي العاج.

"أما أبعد البلدان المأهولة من جهة الجنوب الغربي فهي إثيوبيا، التي يتوفر فيها الذهب بكميات عظيمة، وبها الفيلة الضخمة، وخشب الأبنوس، ومختلف أنواع الشجار البرية، والرجال هناك يتصفون بأنهم أطول رجال العالم قامة وأشدهم وسامة وأطولهم عمراً"[٧].

وكما كان تجار الجزيرة العربية يقومون بدور بارز في التجارة الدولية وقتذاك، عن طريق الوساطة في شراء سلع ومنتجات من أسواق إفريقيا الشرقية[٨] وأسواق شبه القارة الهندية، ومن ثم ينقلونها

(١) برز في هذه الناحية دور كل من مملكتي سبأ وأوسان على وجه التحديد، حيث كانت أوسان تشمل المناطق الساحلية الممتدة من بوغاز باب المندب حتى أحور الحالية، ويدخل في نطاقها ميناء عدن، الذي يعد المدخل الرئيسي للسلع الواردة من مستعمراتها التجارية على ساحل إفريقيا الشرقي الذي سمي في كتاب البربلوس باسم الساحل الأوساني، قبل أن يستولي كرب إيل وتار على أوسان ويصبح ساحل إفريقيا الشرقي الذي كان تابعاً لأوسان ضمن أملاك سبأ. انظر: إبراهيم محمد بيومي مهران، في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٢) للمزيد عن العلاقات بين شبه الجزيرة العربية والحبشة، انظر: عبد المعطي بن محمد عبد المعطي سمسم، العلاقات بين شبه الجزيرة العربية والحبشة منذ أقدم العصور وحتى نهاية العهد الحبشي باليمن، ط١، القاهرة: إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨.

(٣) عن الموارد النباتية والحيوانية والمائية في إفريقيا منذ عصور ما قبل التاريخ / انظر: مجموعة من العلماء، تاريخ إفريقيا العام، مجلد ١، المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا، باريس: جون أفريك / اليونسكو، ١٩٨٣، ص ٣٤٨-٣٥٩.

(٤) موسكاتي: الحضارات السامية، ص ١٩٧.

(٥) عبد المنعم عبد الحليم: دراسات في تاريخ وحضارة وآثار إفريقية الشرقية في العصور القديمة، الإسكندرية ٢٠٠٦، ص ١٢٤.

(٦) يذهب أغلب المؤرخين إلى أن اسم إثيوبيا استعمله الإغريق والرومان، وقصدوا به المنطقة الواقعة جنوب شرق مصر، وأن كلمة إثيوبيا تعني في الإغريقية أصلاً "أصحاب الوجوه المحترقة"، أو "أصحاب العيون المحترقة اللامعة"، وقد ذكر هوميروس الكلمة مرتين في الإلياذة، وثلاث مرات في الأوديسة، كبلاد بعيدة. انظر: رحماني ومدني، الدور المصري في جنوب شبه الجزيرة والشرق الإفريقي، ص ١٠.

(٧) تاريخ هيرودوت، ص ٢٧٠.

(٨) روى الكتاب الكلاسيكيون ما يفيد أن العرب القدماء كانوا يسيطرون على مناطق على ساحل إفريقيا الشرقي، ومن بينها مناطق تنتج البخور، وهذه المنطقة تقع شمال الصومال الحالية، والتي ما تزال حتى اليوم تنتج نوعين من البخور أو الكندر تسمى علمياً Boswellia Frereana, B. Carteri. انظر: عبد المنعم عبد الحليم: النشاط التجاري للعرب، ص ٢٧؛ F. Nigel Hepper, "Arabian and African Frankincense Trees", JEA, vol. 55, p. 69.

إلى ممالك ودول شمال بلاد العرب، فإنهم كذلك تميزوا بإنتاج زراعي تحول إلى منتجات وسلع، كالبخور وغيرها[١]، وتعتبر من الصناعات الخفيفة[٢]، حققت تميزاً ونالت إعجاب تلك الممالك والدول، وازداد الطلب عليها، مما حقق للعرب ثراءً ملحوظاً، وهذا الإنتاج لم يكن ليتيسر إلا حيث تتوفر المياه، الأمر الذي لم يحدث إلا في أقاليم قليلة من شبه الجزيرة العربية[٣]، حيث أن أغلب أرض بلاد العرب هي أرض صحراوية موات[٤].

وكانت الجزيرة العربية تحتل في العالم القديم مكانة خاصة في مجال إنتاج المواد العطرية من بخور وطيوب وأفاويه، وكانت من جهة أخرى تصدر ما يرد إليها من إنتاج غيرها من البلاد مثل الهند[٥].

وذكر هيرودوت أن بلاد العرب أيضاً بعيدة، تقع في نهاية العالم المأهول، وعدد أهم المنتجات المعروفة التي ميزت هذه البلاد، والتي كان لها الدور الرئيسي المباشر في رفع اقتصادها وازدياد أهميتها ومكانتها بين بلدان العالم القديم، كما كانت سبباً مباشراً من أسباب اهتمام العالم بهذه البقعة من الأرض.

"وبلاد العرب تقع في نهاية العالم المأهول بالسكان من جهة الجنوب، وهي المكان الوحيد الذي ينتج اللبان (البخور) والمر والسنا والقرفة والصمغ الذي يسمى اللادن"[٦].

وهكذا فقد قصر هيرودوت بشكل واضح وصريح إنتاج اللبان (البخور) والمر والسنا والقرفة والصمغ الذي يسمى اللادن على الجزيرة العربية تحديداً، دون غيرها من سائر بلدان العالم ومناطقه[٧]، وهو ما يتماشى مع ما وصلنا من مصادر التاريخ القديم التي أيدت قيام العرب بذلك، بل واعتمادهم على هذه السلع في التجارة مع الممالك والدول الواقعة إلى الشمال منهم، والتي

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٨٧.

(٢) ديزيره سقال، العرب في العصر الجاهلي، بيروت: دار الصداقة العربية، ١٩٩٥، ص ٤٨.

(٣) إبراهيم محمد بيومي مهران، "الزراعة في جنوب غربي الجزيرة العربية قبل الإسلام"، دراسات في آثار الوطن العربي، كتاب المؤتمر السادس عشر للاتحاد العام للآثاريين العرب، الندوة العلمية الخامسة عشرة، شرم الشيخ ١٥-١٨ نوفمبر ٢٠١٣م، ص ١.

(4) M. Reza-Ur-Rahim, "Agriculture in Pre-Islamic Arabia: Introduction", Islamic Research Institute, International Islamic University, Islamabad Stable, Islamic Studies, Vol. 10, No. 1 March 1971, p. 53.

(٥) مصطفى كمال عبد العليم، "تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني"، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، ك٢، مصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، جامعة الرياض ١٤١٤ه/ ١٩٨٤م، ص ٢٠١.

(٦) تاريخ هيرودوت، ص ٢٦٨. Histories, III: 107.

(٧) مجموعة من المؤلفين، اليمن، في بلاد مملكة سبأ، ترجمة بدر الدين عرودكي، مراجعة يوسف محمد عبد الله، صنعاء: معهد العالم العربي والهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات اليمنية، ١٩٩٩، ص ٧٠.

ورد ذكرها في القرآن الكريم[١].

وذكر هيرودوت في موضع سابق من كلامه أن أهل العلم قد أبلغوه[٢] بإنتاج العرب للبان والبخور، وأن ذلك الأمر كان هو أهم ما يميزهم:

"وتنتج في أطرافها الشرقية البعيدة اللبان والبخور، تلكم هي المعالم البارزة في تلك البقعة"[٣].

و"البخور" (Frankincense) هو عبارة عن مواد صمغية وبلاسم طيبة الرائحة، ويتم إضافة عود الصندل إليها في بعض الأحيان، وكذا غيره من المواد الأخرى، من أجل أن يكتسب البخور روائح عطرية، وهو يصنع في شكل مسحوق أو أعواد[٤].

ولطالما اشتهر البخور والمر في الجزيرة العربية منذ القدم[٥]، يقول هيرودوت: "إن شذا البخور والطيب والعطور يفوح من بلاد العرب"[٦]، وترجع أهميته وقتذاك إلى كونه يُشكل مادة أساسية لا غنى عنها، حيث يحرق في طقوس المعابد[٧] والمقابر، وأيضاً في المناسبات والاحتفالات الدنيوية[٨]، وأيضاً على صعيد الحياة اليومية[٩] عند الشعوب القديمة في مصر والعراق وسورية، وكذا في بلاد اليونان[١٠] والرومان، حيث كان القدماء يعتقدون أن أي طقس ديني يُجرى للآلهة في المعابد أو للموتى في المقابر لا تكون له فاعلية بدون حرق البخور[١١]، كما استخدم اللبان الأصلي غير المقطع

---

(١) سورة قريش: الآيات ١-٢.

(٢) وهي إشارة صريحة منه توضح اعتماده في مواضع كثيرة من كلامه على روايات مسموعة، يحاول توظيفها لخدمة السياق المتصل للأحداث التاريخية، ولشرح ما لا يعرفه من أمور.

(٣) تاريخ هيرودوت، ص ١٣٦.

(٤) مجموعة من المؤلفين، "البخور"، الموسوعة العربية العالمية، مجلد ٤، الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٩٩٤، ص ٢٣٦.

(٥) جاك ريسلر، الحضارة العربية، تعريب د. خليل أحمد خليل، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٩٣، ص ١٢٢.

(٦) محمد غلاب، التجارة في عصر ما قبل الإسلام، ص ١٨٩؛ تاريخ هيرودوت، ص ٢٧٠؛ Histories, III: 13

(7) Brian Doe, Southern Arabia (New Aspects Archaeology), New York: Thames & Hudson Ltd, 1971, p. 49.

(٨) ولتر مولر، "اللبان"، الموسوعة اليمنية، ج ٤، ط ٢، صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ٢٠٠٣، ص ٢٤٨١.

(٩) محمد بيومي مهران، حضارات الشرق الأدنى القديم، ج ١، الحياة السياسية والاقتصادية والتشريعية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ص ٢٣٠.

(١٠) أحرقه اليونان على سبيل المثال للمعبود زيوس. انظر: محمد عبد القادر بامطرف: لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، صنعاء: عبادي للدراسات والنشر، ٢٠٠١، ص ٣٣.

(١١) إبراهيم مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ص ٢٧٩.

في عمليات التحنيط وفي بعض ألوان الممارسات السحرية[١]، وكذا استخدم مع المر في إعداد وصفات طبية متعددة الأغراض[٢].

و"اللبان" (Libanotos)، ويعرف في اللغة العربية باسم "الكندر"، وفي العامية "اللبان الدكر"، وهو عصارة شجرة تنمو على الأماكن المرتفعة، ويسمى إنتاجها (Boswellia Sacra)، وهي تشبه شجرة الصمغ في طبيعتها، ويُجمع منها اللبان بنفس الطريقة التي يُجمع بها الصمغ، وذلك بعمل شق في جزع الشجرة، ثم ربط إناء أسفل الشق، ويترك لمدة ١٥ يوماً تقريباً، فتسيل عصارة اللبان وهي شديدة اللزوجة، وتتجمع في الإناء على هيئة حبات[٣]، وكانت أجود أنواع الكندر تجلب من المناطق الواقعة على جانبي خليج عدن، في شمال شرق الصومال، وفي شرق حضرموت، حيث تنمو أشجاره[٤].

وكان لبان أو بخور "حضرموت"[٥] و"ظِفار"[٦] يُعتبر من أجود أنواع البخور في نظر القدماء، وكميته المحلية ليست بالقليلة، وهو لا يقل جودة عن المستورد من الهند وإفريقيا[٧]، وقد كان له دور كبير في تاريخ العرب القديم، فكان أقدم السلع التي قامت عليها تجارة العرب القدماء عبر الجزيرة العربية، إذ كانت السيطرة على تجارته وعلى الطرق التي تسير خلالها هذه التجارة هي المحور

(1) Walter W. Müller, Arabian Frankincense in Antiquity According to Classical Sources, University of Riyadh Press, 1957, p. 81.

(2) Nigel Groom, Frankincense and Myrrh: A Study of the Arabian Incense Trade, London: Longman, 1981, p. 20.

(٣) عبد المنعم عبد الحليم، الآثار الباقية في الجزيرة العربية، ص ١٠-١١.

(٤) عبد المنعم عبد الحليم، "البخور عصب تجارة البحر الأحمر في العصور القديمة"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبد العزيز، مجلد ٢، جدة: ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ١٤١.

(٥) ورد ذكرها في نقوش المسند باسم حضرموت، وأطلق عليها "بليني" (Plinius) اسم "أرض اللبان"، وذكر "استرابون" (Strabo) أنها تنتج المر. انظر: عبد الله حسن الشيبة، ترجمات يمانية، صنعاء: منشورات الكتاب الجامعي، ٢٠٠٨، ص ٣٧، ٦٥. ويقع في نطاق حضرموت ميناء "قنأ" حيث كان يتم تجميع البخور من كافة أرجاء حضرموت، ومنه ينقل بالقوافل عبر الطرق التجارية البرية. انظر: عبد المنعم عبد الحليم، تاريخ الجزيرة العربية، ص ٥٥. ويصف كتاب "الطواف حول البحر الإريتري" سواحل حضرموت الجنوبية بأنها مناطق موبوءة يتجنبها الناس، ومن ثم فلا يجمع التوابل فيها سوى أولئك الذين كتب عليهم القصاص في جريمة ما، وربما كان لذلك صلة بالمعنى العبري للكلمة وهو "دار الموت"، الذي ترجمه الإخباريون "حاضر موت". انظر: إبراهيم مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ص ٣٢٣.

(٦) مدينة على ساحل بحر العرب، (حالياً في غربي سلطنة عمان)، كانت تابعة لمملكة حضرموت القديمة، وعرفت عند الكتاب الكلاسيكيين باسم "أرض اللبان"، وساعدت الشروط المناخية المناسبة وسقوط الأمطار الموسمية على انتشار أشجار اللبان والمر ونموهما طبيعياً، مما أدى إلى وجود أفضل انواع اللبان هناك. انظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ٧/ ٢٧٤-٢٧٥.

(٧) محمد بيومي مهران، حضارات الشرق الأدنى ١/ ٢٣٠.

الأساسي في سياسة ونشاط تلك الدول[١]، لما كان يُدره البخور من ثروات طائلة، وكان يمثل وحده حوالي ٦٠٪ تقريباً من إجمالي الصادرات العربية وقتذاك[٢].

وأما عن "المر" (Myrrha) الذي ذكره هيرودوت، فهو عبارة عن صمغ زيتي غامق اللون، يجنى من أشجار شوكية[٣]، لا يزيد طول الشجرة عن ستة أقدام، ولها فروع ذات أوراق صغيرة بيضاوية الشكل، تسقط في فصل الخريف، ولا تنمو إلا في مناخ حار ورطب[٤]، ويعد المر من أهم المنتجات الزراعية التي تاجر بها العرب مع العالم القديم، وكان يشكل حوالي ٣٠٪ من إجمالي الصادرات[٥].

وقد كان للمر أهمية كبيرة في مصر على وجه خاص، لأنهم كانوا يستخدمونه في الأغراض الدينية في المعابد، فضلاً عن أنه عنصر أساسي في عمليات تحنيط الموتى[٦] التي كانت شائعة في المجتمع، وفقاً للديانة المصرية القديمة وطقوسها، وقد ورد اسمه مرات عديدة في نقوش المسند، ومنها ما يذكر أنه كان مخصصاً لمعابد الآلهة المصرية[٧]، وكان كذلك يدخل في صناعة العطور[٨]، وهناك في التوراة ما يشير إلى أن العبرانيين استعملوا المر في الدهن المقدس[٩]، فضلاً عن علاج بعض الأمراض[١٠]، حيث استخدم في في صورة كمادات ومراهم، لتخفيف الالتهابات ومداواة الجروح[١١].

وفي بلاد ما بين النهرين استعمل المر كمادات لآلام الرأس، وفي معالجة تورم الأصابع وأمراض العين والأنف والأذن والشرج، ويخلط بالشب كغسول للفم، كما وصف لعسر البول، ويدخل في تركيب عدد من الأدوية[١٢].

---

(١) عبد المنعم عبد الحليم، تاريخ الجزيرة العربية، ص ٤.

(٢) Groom, Frankincense and Myrrh, p. 159؛ عبد الله العبد الجبار، نظرة الكتاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربية، ص ١١٩.

(3) Groom, Frankincense and Myrrh, p. 70.

(٤) جواد مطر الحمد، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديمة، الشارقة: دار الثقافة العربية، ٢٠٠٢، ص ٣٣٣.

(5) Groom, Frankincense and Myrrh, p. 161.

(٦) محمد بيومي مهران، حضارات الشرق الأدنى ١ / ٢٣٠.

(٧) النقش (RES 3427/1) انظر: محمد السيد عبد الغني: شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٩، ص ١٣٦.

(٨) ألفريد لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة د. زكي إسكندر ومحمد زكريا غنيم، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١، ص ٤٨٥.

(٩) سفر الخروج: ٣٠/ ٢٢-٢٥.

(١٠) محمد بيومي مهران، حضارات الشرق الأدنى ١ / ٢٣١.

(11) Doe, Southern Arabia, p. 49.

(12) Groom, Frankincense and Myrrh, p. 20.

وعن نبات "السنا" الذي ذكره هيرودوت، فهو يعرف أيضاً باسم "الكاسيا"(Kassia) [١] وهو عبارة عن نباتات عشبية معمرة، تتميز بالطعم اللاذع والرائحة الطيبة، وهناك صنفان ينموان منها في بلاد العرب، ولونهما يميل إلى الحمرة، وإذا جف خشبها صار لونه أبيض[٢]، والشجرة غليظة الساق، لا يزيد ارتفاعها في الغالب على مترين، ويحمل النبات أوراقا مركبة، ريشية الشكل، تتكون من زوجين إلى سبعة أزواج من الوريقات، وأزهارا في قمم الأغصان على هيئة مجاميع، ما بين زهرتين إلى سبع زهرات، في شكل عناقيد، ذات لون أصفر إلى برتقالي، الثمار قرنية تشبه ثمار الفاصوليا، أو الفول، وشكلها مفلطح، جلدية الملمس طولها ضعف عرضها، ذات لون بني مصفر، تحتوي بداخلها بذوراً ذات لون رمادي، وقوامها صلب وتعرف باسم القرنة "الجراب"[٣]، وتستخدم نبتة الكاسيا في علاج بعض من الأمراض الصدرية والباطنية، كما أنها تدخل في صناعة أدوية لعلاج العيون[٤].

وقد ذكر نبات السنا في الحديث النبوي الشريف، عن ابراهيم بن أبي عبلة قال: سمعت عبد الله بن أم حرام – وهو ممن صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبلتين– يقول: "عليكم بالسنا والسنوت فإن فيها شفاء من كل داء إلا السام"[٥]، و"السلخ" أيضاً هو نوع من "الكاسيا"، وورد ذكره في نقوش المسند على مبخرة بصيغة "سلخت"[٦]، وذكر أيضاً في التوراة[٧].

وعن "القرفة" (Cinnamon)فهي قشر شجر طيب الرائحة، يستخدم في الطعام، ويدخل في صناعة الدواء وقيل: القرفة ضرب من الدار صيني، وهي أنواع، منها الدار صيني الحقيقي[٨]، ومنها ما يطلق عليه "قرفة القرنفل"[٩]، وتنبت في جزيرة سيلان بصورة خاصة[١٠]، وقد أشار هيرودوت إلى جهل السكان بمصدرها:

(١) لطفي عبد الوهاب، الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، ص ٥٦.

(٢) ليبيا عبد الله دماج، المحاصيل الزراعية في اليمن القديم، صنعاء، ٢٠١٢، ص ١٠٠.

(٣) جريدة الرياض، العدد ١٣٦٤٣، الإثنين ٢٨ رمضان ١٤٢٦هـ/ ٣١ أكتوبر ٢٠٠٥م.

(٤) يوسف بن عمر ابن رسول، المعتمد في الأدوية المفردة، صححه وفهرسه مصطفى السقا، ط٢، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٢، ص ٢٣٥.

(٥) أخرجه ابن ماجة في السنن.

(٦) النقش (YM 467).

(٧) سفر حزقيال: ٢٧/ ٢٢–٢٣.

(8) Mohammed Iqbal, "International Trade in non-wood forest products: An overview", Working Paper, Food and Agriculture Organization of the United Nations, November 12, 2012, pp. 1-2.

(٩) إبراهيم بن ناصر إبراهيم البريهي، الحرف والصناعات في ضوء نقوش المسند الجنوبي، الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ٢٠٠٠، ص ٢٣٦.

(١٠) محمد بيومي مهران، حضارات الشرق الأدنى القديم، ص ٢٣٠.

"وهم لا يعلمون من أين تأتي، وأي البلاد تنتجها، وجلهم يخمنون بأنها تنمو في مكان ما في الإقليم الذي ترعرع فيه ديونيسوس، إذ يقولون أن تلك العيدان الجافة – التي تعلمنا من الفينيقيين أن ندعوها قرفة – تجلبها طيور كبيرة، وتضعها في أعشاشها المبنية من الطين، والمتواجدة على حواف الجبال، التي يعجز أي إنسان عن الوصول إليها"[١].

وكانت القرفة قد صدرت إلى مصر منذ حوالي ألفي سنة قبل الميلاد، وهي تعد من المواد الثمينة[٢]، وتعد هدية ذات قيمة عالية، وكانت تهدى إلى الملوك والآلهة، وقد أهديت إلى معبد أبولو في مليتوس، وكانت القرفة مكلفة للغاية لاستخدامها بشكل شائع في طقوس الجنازات في روما[٣]، حتى أن الإمبراطور "نيرون" أحرق في جنازة زوجته "بوبيه" كميات من البخور تفوق ما تنتجه الجزيرة العربية خلال سنة[٤].

وآخر ما ذكره هيرودوت في كلامه عن منتجات الجزيرة العربية هو "اللادن"[٥](Ladanon)، وهي شجرة لطيفة الأغصان، طولها كقامة رجل وأقل قليلاً، وأوراقها تشبه ورق "الآس"، إلا أن لونها أسود وأغصانها سوداء، وعلى أغصانها زغب، وهي شجرة مفرطة اللزوجة، تشبه شجرة "العوسج" في الرطوبة التي تدبق على اليد والأصابع، وأيضاً في لونها الأسود، أما الظاهر منها والمسمى لادن فلا يشبهها[٦].

واللادن هو نوع من الطيب[٧]، يدخل في صناعة العطور[٨]، وكذا يستخدم في علاج بعض الأمراض، وهو يعد صمغاً، ويصنف من الفصيلة اللبانية[٩]، ووصفه هيرودوت بأنه:

"مادة ذات رائحة زكية، رغم أنها توجد في مكان ذي رائحة كريهة جداً، وهي تعلق كالصمغ

---

(١) تاريخ هيرودوت، ص ٢٦٩؛ Histories, III: 109

(٢) محمد بيومي مهران، حضارات الشرق الأدنى القديم، ص ٢٣٠.

(3) Maguelonne Toussaint-Samat, History of Food, translated by Anthea Bell, Cambridge, Mass. : Blackwell Reference, 1994, p. 437.

(٤) فرانسواز ديمانج، قوافل البخور، ص ١٢٤.

(٥) هناك من يرى أن اللادن هو نفسه ما يعرف اليوم بـ"المستكة". انظر: لطفى عبد الوهاب، الجزيرة العربية في المصادر، ص ٥٦.

(٦) ليبيا دماج، المحاصيل الزراعية، ص ١٠٤؛ أبو بكر أحمد ابن وحشية، الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق فهد، ج٢، دمشق: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٥، ص ١٢٦٣-١٢٦٤.

(٧) ا.ف.ل. بيستون وآخرون، المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء، بيروت: دار نشريات بيترز-لوفان الجديدة- مكتبة لبنان، ١٩٨٢، مادة "ل د ن"، ص ٨١.

(٨) إبراهيم البريهي، الحرف والصناعات، ص ٢٣٥.

(٩) مجموعة من المؤلفين، "اللادن"، الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة: دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥، ص ١٥٣٨.

بلحية ذكر الماعز وهو يرعى بين الشجيرات، ويستخدم في صناعة العديد من أنواع العطور، وهو البخور الرئيسي عند العرب"[1].

كيفية جمع المنتجات الزراعية:

تحدث هيرودوت عن ما كان يلاقيه العرب من صعوبة، وأنهم يتكبدون مصاعب جمة في أثناء قيامهم بجمع منتجاتهم من اللبان والسنا والقرفة والصمغ المسمى باللادن، واستثنى من ذلك المر دون غيره، فمن أجل أن يجمعوا البخور فإنهم كانوا يحرقون صمغ الميعة، وهو صمغ ذكر هيرودوت أن الإغريق كانوا يحصلون عليه عن طريق (التجار) الفينيقيين، وأن العرب عندما يحرقون الصمغ فإن ذلك يولد كميات من الدخان الكثيف، يتسبب في طرد ما أسماه بـالثعابين المجنحة، والذي ربما يقصد به الجراد أو ما يشبه ذلك من أنواع الهوام التي تكثر في المزارع والحقول، حيث أن أشجار البخور كانت بحسب وصفه تخضع لحراسة أعداد كبيرة "أفاعي مجنحة" صغيرة في الحجم، ومتعددة في ألوانها، وذكر أيضاً أنها من نوع الأفاعي الذي يحاول غزو مصر، وعلى أية حال، فإن الدخان الكثيف وسيلة سهلة وفعالة، متعارف عليها أثناء مواجهة الحشرات الطائرة.

"ويتكبد العرب في جمع هذه الأشياء مصاعب جمة، ما عدا المر، فمن أجل أن يجمعوا البخور فإنهم يحرقون صمغ الميعة، وهو صمغ يحصل عليه الإغريق عن طريق الفينيقيين، وعن طريق حرق هذا الصمغ يحصلون على الدخان الذي يستطيعون عن طريقه طرد الأفاعي الطائرة (الجراد)، فأشجار البخور تحرسها بأعداد كبيرة أفاعي مجنحة صغيرة في الحجم ومتعددة في ألوانها، وهذه الأفاعي من نوع الأفاعي التي تحاول غزو مصر، ولا يمكن طرد هذه الأفاعي عن أشجار البخور إلا عن طريق الدخان المنبعث من احتراق صمغ الميعة، ويقول العرب أن هذه المخلوقات كان يمكن أن تغزو العالم، لولا حدوث أمر غريب حد من انتشارها"[2].

وتتماشى هذه المشقة التي ذكرها هيرودوت مع وصف صاحب كتاب "الطواف حول البحر الإريتري" لسواحل حضرموت الجنوبية بأنها مناطق موبوءة يتجنبها الناس، ومن ثم فلا يجمع التوابل واللبان منها إلا العبيد أو المجرمين الذين صدرت ضدهم أحكاماً صارمة.[3]

ويواصل هيرودوت كلامه، فيصف لنا مدى المشقة التي كان يواجهها العرب أثناء قيامهم بجمع هذه المحاصيل التي عددها سلفاً:

"عندما يخرج العرب لجمع السنا، فإنهم يغطون أجسادهم ووجوههم، ما عدا العينين، بجلود الحيوانات، إذ أن تلك النبتة تنمو في بحيرة ضحلة المياه، تعج والأرض المحيطة بها بمخلوقات

(١) تاريخ هيرودوت، ص ٢٧٠؛ Histories, III: 110 ؛ محمد عبد الغني: شبه الجزيرة العربية، ص ١٣٥.

(٢) تاريخ هيرودوت، ص ٢٦٨؛ Histories, III: 107.

(٣) إبراهيم مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ص ٣٢٣.

مجنحة شديدة الشبه بالعناكب، تطلق صرخات عالية، لتنبه إلى الخطر، ولديها ولع شديد بالقتال، ويقومون بإبعادهم وعدم السماح لها بمهاجمة أعين الرجال في أثناء قيامهم بجمع السنا"[1].

وهذا وصف مناسب، يتماشى مع الظروف البيئية الصعبة التي يتحتم على العمال جمع المحصول فيها، وسط محاصرتهم بأسراب من الحشرات الطائرة، التي يبدو جلياً أنها كانت تؤذي القريبين من أماكن وجودها على الأشجار وفي محيطها.

وبنوع من أسلوبه التشويقي في السرد، استطرد هيرودوت واصفاً كيفية قيام العرب بجمع محصول القرفة، بطريقة غير تقليدية لما هو متبع عادة في جمع المحاصيل، ونجد فيها نوعاً من المكر والحيلة، والتي نعتها هيرودوت بأنها تدعو لمزيد من الدهشة عما سبق:

"أما الطريقة التي يتم فيها جمع القرفة فهي أكثر مدعاة للدهشة، .....، وقد ابتكر العرب طريقة للحصول عليها بأن يقوموا بتقطيع لحوم الثيران أو الحمير أو أي حيوان آخر إلى قطع كبيرة، ويضعونها فوق سفوح الجبال التي تتواجد فيها هذه الطيور، ثم يتراجعون إلى مسافة آمنة، فتنزل تلك الطيور، وتحمل قطع اللحم إلى أعشاشها، ولما كانت تلك الأعشاش أضعف من أن تتحمل وزن قطع اللحم، فإنها تقع على الأرض، حينذاك يأتي الرجال لالتقاط القرفة، التي يصدرونها لاحقاً إلى بلدان أخرى"[2].

وفي موضع لاحق لحديثه عن كيفية حصول العرب على القرفة، ذكر هيرودوت أن الأمر ذاته ينسحب على محصول اللادن، وبشكل أكثر غرابة:

"لكن الطريقة التي يجلبون بها اللادن، كما يسميه العرب، أكثر مدعاة للعجب"[3].

ولكنه لم يوضح لنا مقصده من ذلك، ولم يشرح لنا أو حتى يقدم إشارة نفهم منه مغزى كلامه عن كيفية جمع اللادن، وربما يكون في ذلك لون آخر من ألوان التشويق التي يتبعها كثيراً في سرده للأحداث، ولكن وفقاً لما ذكره في وصفه من أن اللادن يعلق في لحى ذكور الماعز، فإنه من المتوقع أن يكون الحصول على هذه المادة الصمغية لا بد وأن يكون بامتصاصها من هذه اللحى بأية وسيلة ممكنة، وربما كانت تلك الوسيلة التي اتبعها القوم غريبة أو غير معتادة على هيرودوت، فنعتها بأنها مدعاة للعجب.

تجار الجزيرة العربية وصفاتهم الأخلاقية:

بداية من القرن الثاني عشر والقرن الحادي عشر قبل الميلاد تكونت على ما يبدو مبادلات

(١) تاريخ هيرودوت، ص ٢٦٩. Histories, III: 110.

(٢) تاريخ هيرودوت، ص ٢٦٩-٢٧٠؛ Histories, III: 110

(٣) تاريخ هيرودوت، ص ٢٧٠؛ Histories, III: 110

تجارية منتظمة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها[١]، لكن الازدهار التجاري عبر الجزيرة العربية[٢] لم يشهد بالفعل انطلاقته إلا ابتداءً من القرن الثامن قبل الميلاد، ومنذ الحقبة الآشورية، فضل الناس في بلاد ما بين النهرين وفي المشرق استنشاق البخور بدلاً من الأعشاب العطرية المحلية[٣]، علاوة على استخدام البخور بكميات كبيرة – كما ذكرنا سلفاً — في الحياة اليومية وفي المناسبات بممالك العالم القديم.

وهكذا برز تجار الجزيرة العربية، وازدهرت تجارتهم، وارتفع شأنهم، وهو ما دفع الكتاب الكلاسيكيين إلى البحث والتحري عن مصادر هذه التجارة، وأنواع السلع المصدرة، ومناطق الإنتاج، وغيرها من الموضوعات ذات الصلة، التي أكسبت العرب شهرة عالمية في الأسواق الدولية، وامتلاكهم الأموال والثروات الضخمة، التي حققوها من تجارة المواد العطرية والتوابل والمشتقات الأخرى[٤].

ونحن نستطيع أن ندرك مقدار ما كان يمكن أن تجنيه بعض مناطق الجزيرة العربية من ثروة من هذا المورد الاقتصادي التجاري إذا ألقينا نظرة سريعة على بعض المؤشرات التي نستنتج منها حجم النشاط التجاري والمعاملات التجارية في الجزيرة العربية، ومن بين هذه المؤشرات، على سبيل المثال، ما نجده في النقوش التي عثر عليها المنقبون في العربية الجنوبية من وفرة الألفاظ ذات المعاني التجارية، التي تتصل بالبيع والشراء والامتلاك والعقود والأوامر التي كان الملوك يصدرونها لتنظيم جباية المكوس (الضرائب الجمركية) على السلع التي تباع في الأسواق، أو لتنظيم المعاملات التجارية بجوانبها المختلفة[٥].

وكانت هذه التجارة الكبيرة في أيدي مختلف الشعوب والقبائل[٦]، حسب الحقب وتقلبات التنظيمات السياسية للجزيرة العربية، لكننا دائماً ما نلاحظ النوع نفسه من التنظيم الذي يتضمن مشاركة البدو الرحل وكذا السكان المقيمين، فسكان الواحات كانوا يقدمون خدمات المأوى

(١) وهناك إشارات إلى استخدام منتجات الجنوب العربي في مصر بوفرة، منذ الألف الثاني قبل الميلاد على أقل تقدير. انظر: عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٩.

(٢) عن نشاط العرب خارج نطاق الجزيرة العربية، انظر: عبد المنعم عبد الحليم سيد، "النشاط التجاري للعرب القدماء خارج الجزيرة العربية من خلال النقوش العربية القديمة وروايات الكتاب الكلاسيكيين"، مجلة بحوث ندوة التجارة عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ، حصاد ٨، القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب، ٢٠٠٠، ص ١٧-٤٢.

(٣) فرانسواز ديمانج، قوافل البخور، ص ١٢٤.

(٤) عبد الله العبد الجبار، نظرة الكتاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربية، ص ١١٩.

(٥) لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، ص ٣١١-٣١٢.

(٦) لمزيد من المعلومات عن هذه التجارة ومراحلها المتعددة وطرق التجارة التي كانت تسلكها القوافل داخل الجزيرة العربية وخارجها، والقبائل العاملة في هذا المجال، انظر: دانيال ت. بوتس، "تاريخ الأصول"، طرق التجارة القديمة، ص ٧١-٧٩؛ كريستيان جوليان روبان، "العصور القديمة"، ص ٨١-٩٩.

والسقاية والعلف، في حين أن التجار المنظمين لعمليات التبادل التجاري كانوا يقيمون فيها، ويشكلون مجموعات قوية وثرية، ونتيجة لاحتكاكهم بالأمم الأخرى فقد كانوا بالتأكيد منفتحين على الثقافات الأجنبية ومتأثرين بها بدرجات، كما كان أصحاب الدواب، الذين اكتسبوا مع الوقت أهمية متزايدة، ممولين ضروريين لحسن سير هذه التجارة، لأنهم كانوا يؤمنون الدواب، ويتطوعون بصفتهم جمالين أو قادة للقوافل، عبر الطرق والدروب، كما كانوا عند الضرورة يوفرون مواكب حماية للقوافل[١]، تجنباً لاعتداءات قطاع الطرق وإغارتهم على القوافل أثناء ذهابها نحو الشمال، وأثناء إيابها منه.

وإذا كان هيرودوت هنا يعد أول من تناول صادرات الجزيرة العربية من البخور[٢]، إلا أنه لم يفدنا في ماهية الطرق التي كان يسلكها التجار براً أو بحراً، ونحن نستنتج من أكثر من موضع في حديثه أن التجار الفينيقيين[٣] في هذه الفترة كانوا لا يزالون هم الوسطاء في تجارة الطيوب والتوابل بين الجزيرة العربية والعالم اليوناني، حيث تصل البضائع إلى الموانئ الفينيقية، ثم يحملها التجار الفينيقيون إلى الموانئ اليونانية[٤]، وربما إلى مصر أيضاً[٥].

وهؤلاء التجار العرب كانت لهم صفات وطبائع أثيرة تميزهم على مر العصور في تعاملهم مع الأمم الأخرى، فلطالما عرف العرب بحسن الخصال، ومنها الصدق والأمانة، واحترام العهود والوفاء بالعقود المبرمة، حتى أنهم يكتبونها بالدم، وغير ذلك من الصفات الحميدة التي يجب وأن تتوفر في التاجر بوجه خاص.

ومن خلال ما كتبه هيرودوت وجدنا إشارات صريحة في كلامه تبين رؤيته للعرب بما يتماشى مع ذلك:

"والعرب يحترمون العهود أكثر من أي أمة أخرى[٦]، وإذا أراد رجلان أن يوثقا العهود بينهما فإنهما يقفان على جانبي رجل ثالث يحمل حجراً حاداً، يستخدمه لجرح راحتي يديهما بالقرب

---

(١) فرانسواز ديمانج، قوافل البخور، ص ١٢٥.

(٢) عبد الله العبد الجبار، نظرة الكتاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربية، ص ١٢٤.

(٣) بلغ الفينيقيون أوج ازدهارهم مع بداية الألف الأولى قبل الميلاد، حيث أسسوا مستعمرات كانت بمثابة مراكز تجارية عظيمة، وسط البحر الأبيض المتوسط وغربه ،ثم اتصلت هذه المستوطنات بعضها ببعض وبالمدن الأصلية الأم بطرق الملاحة، وانتشرت المستعمرات الفينيقية من رأس الدلتا إلى ساحل "كليكيا"، كما انتشرت في جزر البحر الأبيض المتوسط ، وكانت مستعمراتهم في شرق البحر المتوسط أقدم من مستعمراتهم في إفريقيا وإسبانيا. انظر: إبراهيم محمد بيومي مهران، "الملاحة الفينيقية في جزر البحر المتوسط"، دراسات في آثار الوطن العربي، كتاب المؤتمر الخامس عشر للاتحاد العام للآثاريين العرب، الندوة العلمية الرابعة عشرة، وجدة – المملكة المغربية، ١٣-١٥ أكتوبر ٢٠١٢م، ص ١.

(٤) لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٥) عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٩.

(6) Histories, III: 97.

من أسفل الإبهام، ثم يأخذ بعض خيوط الصوف من ثيابهما ويغمسها بدمهما، ويلطخ بها سبعة أحجار تقع بينهما، وهو يردد اسم كل من ديونيسوس[١] وأورانيا[٢]، ثم يقوم الشخص الذي أخذ العهد على نفسه بتوصية أصدقائه بمن عاهده، سواء كان غريباً أو قريباً"[٣].

وهذا الوصف الذي قدمه لنا هيرودوت ليس بمستغرب على العرب وعاداتهم المعروفة في توثيق العقود والعهود والمواثيق بواسطة الدم، وحتى استخدام الأحجار، ربما لتكون بمثابة الشهود على هذه الأحلاف، حيث اعتاد العرب فعل ذلك[٤]، في إشارة لتقدمهم ورقيهم الاجتماعي آنذاك[٥].

وكذلك تخبرنا التوراة بكيفية عقد يعقوب لحلف بينه وبين "لابان" الآرامي: "فالآن هلم نقطع عهداً أنا وأنت، فيكون شاهداً بيني وبينك، فأخذ يعقوب حجراً وأوقفه عموداً، وقال يعقوب لإخوته: التقطوا حجارة، فأخذوا حجارة، وعملوا رجمة، وأكلوا هناك على الرجمة"[٦].

وأما عن اختيارهما لأحجار عددها سبعة في المعاهدة، فهو أيضاً ليس بالأمر المستغرب على أسماعنا، حيث أن هذا الرقم له قدسية خاصة في مصر ومنطقة الشرق الأدنى القديم[٧]، وقام بدور في السحر والمعتقدات الدينية، وربط العراقيون القدماء الرقم سبعة بالأجرام السماوية السبعة التي كان لها تأثير مهم في حياة الناس، فعدت بمصاف الآلهة التي يجب توفيرها، وطبقاً لمفاهيم القوم الدينية، فقد قام هذا الرقم بدور مهم في عملية خلق الإنسان في العراق القديم، عندما خلقت الآلهة أول سبعة ذكور وأول سبع إناث، لتكون بذلك بداية البشرية، كما كان لهذا الرقم تأثير مهم في المعتقدات الدينية لسكان بلاد الرافدين، من خلال الآلهة السبعة والحكماء السبعة الذين جلبوا المعرفة إلى الناس، وبالمقابل كان للشياطين السبعة موقع مرعب لهم من خلال ممارساتهم الشريرة ضد الناس.[٨]

---

(١) ديونيسوس أو باكوس أو باخوس هو إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة، ومن أشهر رموز الميثيولوجيا الإغريقية، أصوله غير محددة لليونانيين القدماء، ويعتقد أنه من أصول غير إغريقية كما هو حال الآلهة آنذاك. Burkert, Greek Religion, Harvard University Press, 1987, p.162.

(٢) هناك من يرجح أن ديونيسوس هو المعبود العربي القديم العزى، وأن أورانيا هي اللات. انظر: رحمة بنت عواد السناني، "جوانب من حياة العرب السياسية والاجتماعية خلال القرن الخامس قبل الميلاد كما صورها هيرودوتوس ٤٨٤-٤٢٤ ق.م"، الجزيرة العربية واليونان وبيزنطة، التواصل الحضاري عبر العصور القديمة والوسيطة، الندوة العالمية لعلاقات الجزيرة العربية بالعالمين اليوناني والبيزنطي (القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن العاشر الميلادي)، ٦-١٠ ديسمبر ٢٠١٠، الرياض: جامعة الملك سعود، ص ٣٨.

(٣) تاريخ هيرودوت، ص ٢٢٠؛ Histories, III: 8

(٤) فهد العتيبي: هيرودوت، ص ٧٥.

(٥) رحمة السناني، جوانب من حياة العرب، ص ٣٧.

(٦) سفر التكوين: ٣١/ ٤٤-٤٦.

(7) David Asheri et al, A Commentary on Herodotus, Book I-IV, Oxford University Press, 2007, p. 407.

(٨) حكمت بشير الأسود، الرقم سبعة في حضارة بلاد الرافدين، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٧، ص ١٠-١٨.

نقد كتابات هيرودوت عن تجارة الجزيرة العربية:

إن حديث هيرودوت، وإن كان يعطينا معلومات جادة عن الجزيرة العربية وأبعاد الحياة فيها، فإنه يبقى حديثاً موسوعياً، يعنى بالقضايا العامة التي تقترب من المعرفة المجردة، بقدر ما تبتعد عن المعلومات الواقعية المحددة التي تعرف القارئ بالأماكن والقبائل والأسماء والطرق والمسافات والاتجاهات[١].

ونلاحظ أن حديثه عن العرب أو عن الجزيرة العربية ليس متصلاً دائماً، وإنما يأتي متناثراً في أغلب الأحوال، حسبما يقتضي سياق الموضوع الأساسي، فذكر أن بلاد العرب بعيدة، وأنها تقع في نهاية العالم المأهول (بالنسبة لمعرفته)، كما أنه قد اتبع أسلوب التعميم والتجريد، ولم يعطنا وقائع دقيقة تعرفنا بالأماكن والقبائل والأسماء والطرق والمسافات والاتجاهات.

وقال أن أهل العلم قد أبلغوه بإنتاج العرب للبان والبخور، وقصر صراحة إنتاج اللبان (البخور) والمر والسنا والقرفة والصمغ الذي يسمى اللادن على الجزيرة العربية تحديداً، دون غيرها من سائر بلدان العالم ومناطقه، وقال بشكل عام أن العرب يتاجرون في هذه الطيوب والتوابل مع البلاد الأخرى، وإن كان لم يوضح لنا شيئاً عن ماهية الطرق التي كانت تسلكها قوافلهم التجارية، وترك لنا استنتاج ذلك، كما ذكر في موضع آخر أن العرب قدموا هدايا قيمة للملك الأخميني داريوس الأول (٢٥١ – ٤٨٦ ق.م) تتضمن ما قيمته حوالي ألف تالنت[٢] من البخور كل سنة.

وتحدث بشكل مفيد عن الصعوبات التي كان العرب يلاقونها في أثناء قيامهم بجمع محاصيلهم ومنتجاتهم من اللبان والسنا والقرفة والصمغ المسمى باللادن[٣].

وتعددت مصادر هيرودوت في الكتابة، واتسمت بأنها تتأرجح بين الحقيقة والمبالغة والأسطورة، فكان يعرض بأسلوبه النثري لكثير من الروايات المنقولة، وكان الأساس الذي استند عليه في تاريخه هو الملاحظة والبحث والاستنتاج وتحليل الوقائع، وقد توسل في ذلك بعدة مناهج مختلفة، كلما عرضت له مشكلة ذات طبيعة خاصة، فهو يعتمد على المعاينة في استخلاص النتائج المتصلة بملاحظة عادات الناس وتصرفاتهم[٤].

وذكر هيرودوت في بداية كلامه أنه يهدف للحفاظ على الأعمال البشرية الخالدة التي قام

---

(١) لطفي عبد الوهاب، الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، ص ٥٦.

(٢) التالنت يساوي حوالي ٢٥,٥ كجم. انظر: عبد الله العبد الجبار، نظرة الكتاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربية، ص ١٢٣، حاشية رقم ١٤.

(3) Herodotus, The History of Herodotus, trans by A.D. Dodley, London: The Digital Loeb Classical Library, 1981, III: 97.

(٤) تاريخ هيرودوت، ص ١٤.

بها الإغريق، وأيضاً البرابرة (الشعوب الأخرى) من الضياع، وهو هدف سامي، ويفترض أن نجده متأصلاً عند كل من عكف على كتابة التاريخ وانغمس في مناقشة الأحداث التاريخية وتحليلها بشكل علمي سليم.

وبسبب اتباعه في مواضع عديدة لأسلوب التشويق في الكتابة، فقد ضمن كتابه العديد من الأمور التي ربما تصل إلى حد الخرافة، مثل حديثه عن جمع العرب للمحاصيل العطرية من أشجار البخور، التي كانت بحسب وصفه تخضع لحراسة أعداد كبيرة من الأفاعي المجنحة صغيرة الحجم، ومتعددة الألوان، وكذا عند وصفه لكيفية جمعهم لمحصول القرفة بطريقة غريبة غير معتادة، وهو ما جعل البعض يعتبره قد تخطى كونه مؤرخاً وأصبح كناقل للأساطير[١].

ورغم كل ما يوجه من نقد لكتابات هيرودوت، إلا أنه يبقى له فضل الريادة في هذا المجال[٢]، حيث يعد المؤسس الحقيقي للكتابة التاريخية[٣]، كما أنه أورد كثيراً من المعلومات التي ثبتت صحتها، وهو قد تعرض للكثير منها في استفاضة.

وأخيراً، فإن هيرودوت كمؤرخ، في حقبة مبكرة جداً للتأريخ، له فضل السبق على غيره من المؤرخين القدامى في تسليط الضوء على تاريخ العرب وحضارتهم القديمة، وكان له حس وإبداع أدبي وفني ملموس، وقدم لنا وصفاً للجزيرة العربية، اشتمل على جغرافيتها وحدودها، تجعلنا مدينين له بتوثيق تاريخها في هذه الحقبة المبكرة من التاريخ، وهو في كتاباته قد أظهر لنا إعجابه الشخصي بهذه البلاد التي قال "إن أريج الطيوب يملأ جوها"، وكذلك أثنى على أخلاق العرب، وتقديسهم للعهود والمواثيق، أكثر من أي شعب آخر، علاوة على أنهم، كما رآهم، "الأمة الوحيدة التي لم ترضخ أمام سلطان الفرس، ولكن عقدوا معهم المعاهدات".

(1) Rosaria Vignolo Munson, Telling Wonders Ethnographic and Political Discourse in the Work of Herodotus, Ann Arbor: The University of Michigan Press, 2001, P. 23.

(٢) حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام، ص ١٠.

(3) De Ste. Croix, Herodotus, p.130.

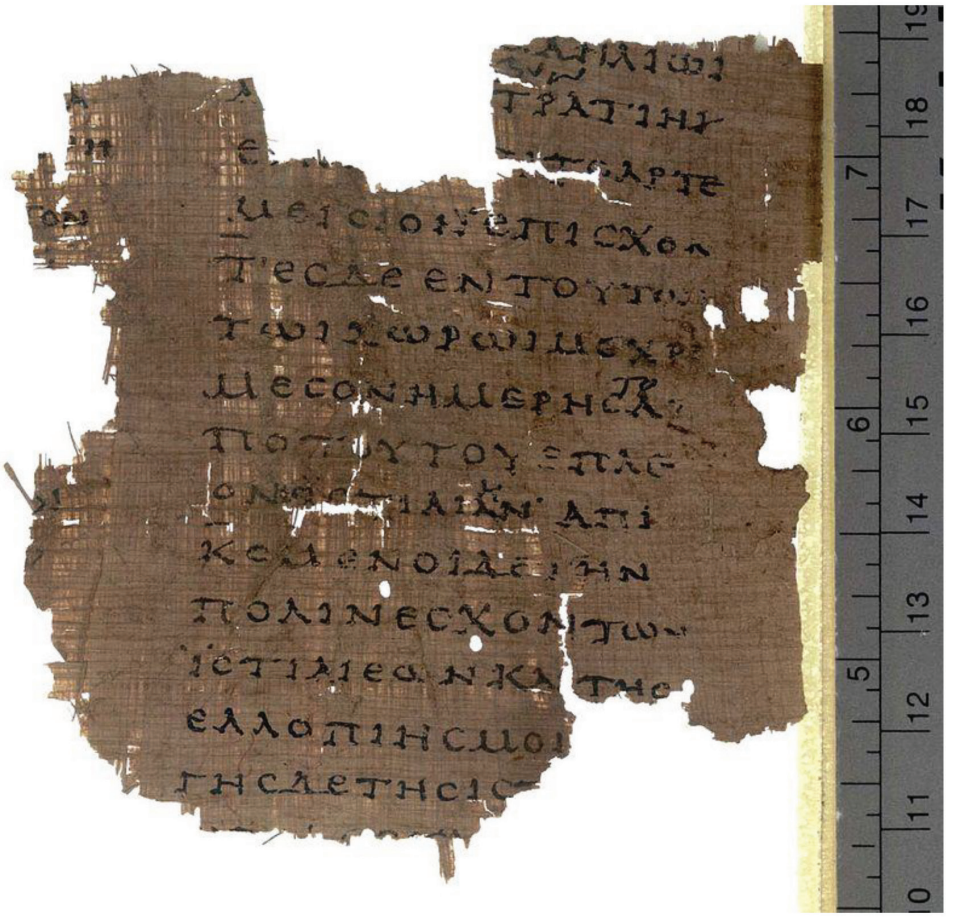

قطعة بردي من الجزء الثامن من كتاب هيرودوت (Histories)

من حفائر برنارد جرنفل (B. Grenfell) وأرثر هنت (A. Hunt) ١٨٩٥ – ١٩٠٣م

في موقع (Oxyrhynchus) بالفيوم – مصر، محفوظة حالياً في جامعة أكسفورد

Oxyrhynchus no.2099 Papyrology Rooms, Sackler Library, University of Oxford.

المصدر:

http://163.1.169.40/gsdl/collect/POxy/index/assoc/HASH0156/0e601624.dir/POxy.v0017.n2099.a.01.hires.jpg

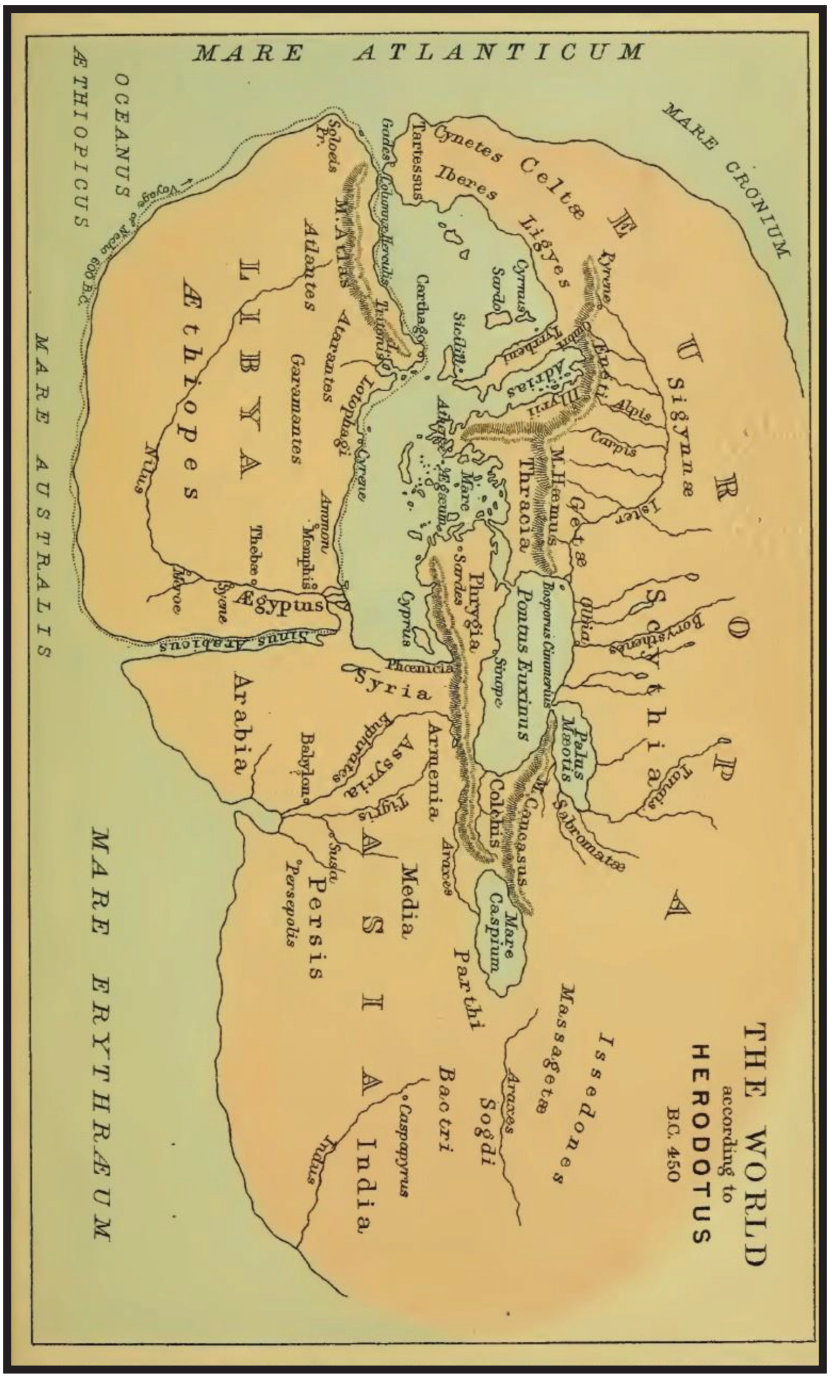

الجزيرة العربية على خريطة العالم حسب هيرودوت

Atlas of Ancient and Classical Geography, J. M. Dent & sons, E. P. Dutton & Co, London and Toronto, 1925, p. 4.